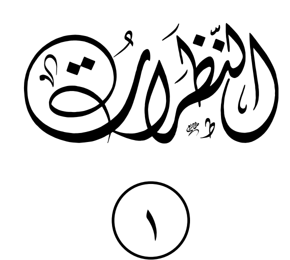

النظرات
١

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

اسم الكتاب: النظرات

اسم المؤلف: مصطفى لطفي المنفلوطي

القطع: ١٤×٢٠سم

عدد الصفحات: ٣٦٨ صفحة

سنة الطبع: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

رقم الإيداع:

ترقيم دولي:

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع دار الفوائد

المركز الرئيسي: فارسكور- تليفاكس: ٠٠٢٠٥٧٣٤٥٤٤٥٥ - جوال: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢

فرع القاهرة: ١٣ شارع البيطار- خلف الجامع الأزهر- هاتف: ٠٠٢٠٢٢٥١٤١٠١٥

فرع المنصورة: ٣٣ عزبة عقل - هاتف: ٠١٠٢٥٣٦٠٣٣٥

Web site: www.daribnragb.com

Email: ibnragb@gmail.com



الجزء الأول



دار ابن رجب

دار الفوائد





المقدمة

بقلم مصطفىٰ لطفي المنفلوطي

يسألُني كثيرٌ من الناس -كشأنِهم في سؤال الكُتاب والشُّعراء - كيفَ أكتبُ رسائلي؛ كأنما يريدونَ أنْ يعرفوا الطَّريق الَّتي أسلكُها إليها فيسلكوها معي، وخيرٌ لهم ألَّا يفعلوا؛ فإني لا أحبُّ لهم، ولا لأحدٍ من الشَّادينَ[1] في الأدب أنْ يكونوا مُقيَّدين في الكِتابة بطريقتي، أو طريقةِ أحدٍ من الكُتاب غيري. وليعلموا -إن كانوا يعتقدونَ لي شيئًا من الفَضْل في هذا الأمر- أني ما استطعت أنْ أكتبَ لهم تلك الرسائلَ الَّتي يعلمونها، بهذا الأسلوبِ الَّذي يزعُمونَ أنهم يعرفونَ لي الفضلَ فيه، إلَّا لأني استطعتُ أنْ أتفلَّتَ من قيودِ التَّمثُّل والاحتذاءِ. وما نفعني في ذلك شيءٌ ما نفعني ضَعفُ ذاكرتي، والتواؤها عليَّ، وعجزُها عن أنْ تُمسكَ إلَّا قليلًا من المقروءات الَّتي كانت تمرُّ بي، فلقد كنتُ أقرأ من منثور القول ومَنظومِه ما شاء اللهُ أنْ أقرأ، ثم لا

---

(١) **الشادين**: جمع الشادي وهو طالب العلم والأدب. «المعجم الوسيط» مادة (شدو).

ألبثُ أنْ أنساهُ، فلا يبقىٰ منه في ذاكرتي إلَّا جمالُ آثارِه، وروْعةُ حُسنه، وَرنَّةُ الطَّرب به.

وَمَا أذكرُ أنِّي نَظرتُ في شيءٍ من ذلك لأحْشُو به حافظتي، أو أستعينَ به علىٰ تهذيبِ بياني، أو تقويم لساني، أو تكثير مادَّةِ علمي باللُّغةِ والأدب، بل كلُّ ما كانَ من أمْري أنني كنتُ امْرَأً أحبُّ الجمالَ، وأفتتنُ به كلَّما رأيتُه في صورةِ الإنسان، أو مَطْلَع البَدْر، أو مَغْرِب الشَّمس، أو هَجْعَةِ[١] الليل، أو يَقَظَة الفجر، أو قمم الجبال، أو سُفوح التِّلال، أو شواطئ الأنهار، أو أمْواج البِحار، أو نَغَمةِ الغناء، أو رَنَّة الحُداءِ، أو مُجتَمع الأطيار، أو مُنتثرِ الأزهار، أو رِقَّةِ الحِسِّ، أو عُذوبةِ النَّفس، أو بيتِ الشِّعر، أو قطعةِ النَّثر، فكنتُ أمُرُّ بروض البيانِ مرًّا، فإذا لاحتْ لي زهرةٌ جميلة بين أزهارِه، تتألقُ في غصن زاهر بين أغصانهِ، وقفتُ بين يديها وَقفةَ المُعجب بها، الحاني عليها، المُستهتر بحسن تكوينها، وإشراق منظرِها من حيثُ لا أريدُ اقتطافَها أو إزعاجَها[٢] من مكانها، ثم أترُكها حيثُ هي وقد علِقتْ بنفسي صورتُها إلىٰ أخرىٰ غيرها.

وَهَكَذا حتىٰ أخرُجَ من ذلك الرَّوض بنفسٍ تَطيرُ سرورًا به، وتَسيلُ

---

(١) **هجعة**: نَوْمة خفيفة. «مختار الصحاح» مادة (هجع).

(٢) **إزعاجها**: اقتلاعها من مكانها. «القاموس المحيط» مادة (زعج).

وجدًا عليه، وما هو إلَّا أنْ درتُ ببعض تلك الرِّياض بعضَ دورات، ووقفتُ علىٰ أزهارِها بعضَ وَقَفات، حتَّىٰ شعرتُ أنْ قد بُدِّلتُ بنفسي نفسًا غيرَها، وأنَّ بين جنبي حالًا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فأصبحتُ أرىٰ الأشياءَ بعينٍ غير التي كنتُ أراها بها، وَأَرىٰ فيها من المعاني الغريبةِ المُؤثرة ما يملأ العينَ حسنًا، والنفسَ بهجة.

فقَدْ كنتُ أرىٰ النَّاسَ، فَرَأيتُ نفوسَهم، وأرىٰ الجمالَ، فرأيتُ لُبَّه وجوهرَهُ، وأرىٰ الخيرَ فرأيتُ حسنهُ، وأرىٰ الشرَّ فرأيتُ قبحَهُ، وأرىٰ النَّعْماءَ فرأيتُ ابتساماتِها، وأرىٰ البأساءَ فرأيتُ مدامِعَها، وأرىٰ العيونَ فرأيتُ السِّحرَ الكامنَ في محاجرها، وأرىٰ الثُّغورَ(١) فرأيتُ الخمر المترقرقةَ بين ثناياها.

وكنتُ أرىٰ الشَّمسَ فرأيتُ خيوطَها الفضيَّةَ الهفَّافة بينَ السَّماء والأرض، وأرىٰ القمرَ، فرأيتُ شُعاعَهُ كأنما يَهُمُّ أنْ ينبسطَ حتَّىٰ يَفيضَ عن جوانبه فيضًا، وأرىٰ الفجرَ فرأيتُ بياضَهُ وهو يَدبُّ في تجاليد الظَّلام دبيبَ المشيب في تجاليد الشَّباب، وأرىٰ النُّجوم فرأيت عيونها الذَّهبيَّة تُطِلُّ علىٰ الكون من فُروج قميص اللَّيل، وأرىٰ اللَّيل فرأيتُهُ وهو يهوي

---

(١) **الثغور**: الأسنان. «المعجم الوسيط» مادة (ثغر).

بأجنحته السَّوداء إلىٰ الأرض هُوِي الكرَىٰ[١] إلىٰ الأجفان.

وكنتُ أسمعُ خريرَ المياه، فسمعتُ مناجاتَها، وحَفيف الأوراقِ ففهمتُ نغماتِها، وتغريد الأطيارِ فعرَفتُ لُغاتها؛ فأحببتُ الأدبَ حبًّا جمًّا ملأ ما بين جانحتي، فلم تكنْ ساعةٌ من الساعاتِ أحبَّ إليَّ، ولا آثرَ عندي من ساعةٍ أخلو فيها بنفسي، وأمسكُ عليَّ بابي ثم أُسْلم نفسي إلىٰ كتابي، فيخيَّلُ إليَّ كأني قد انتقلتُ من هذا العالم الَّذي أنا فيه إلىٰ عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فأشاهدُ بعيني تلك العصورَ الجميلة؛ عصور العربية الأولىٰ، وأرىٰ العربَ في جاهِليَّتها بينَ خيامِها وأخبِيتها، وأَطْنابها[٢] وأعوادها، وإبلها وشائها، وشيحها وقيصومها[٣]، وأرىٰ مساجلاتِها ومنافراتها، وحبَّها وغرامها، وعفتَها ووفاءَها، وصبرَها وبلاءها وحُداءها وغِناءَها، وأسواقَ شعرائها، ومواقفَ خطبائها، وفقرَها وإقلالَها، وشحوبَ وجوهِها، وسُمرةَ ألوانِها، وضَوىٰ أجسامِها، وتردُّدَها في

(١) **الكرىٰ**: النوم أو النعاس. «المعجم الوسيط» مادة (كرىٰ).

(٢) **الأطناب**: جمع طُنُب وهو حبل طويل يُشد به البيت والخباء والسُّرادق ونحوها. «لسان العرب» مادة (طنب).

(٣) **القيصوم**: نوع من النبات، قريب من نوع الشيح، كثير في البادية. «المعجم الوسيط» مادة (قصم).

بَيْدائها بين حمارَّةِ القيظ[١] وصبارَّةِ البرد، وتنقُّلَها من صحراء إلىٰ رِيف، ومن مَشْتىٰ إلىٰ مَصيف، ومن نَجْدٍ إلىٰ وَهْدٍ، ومن شَرَفٍ إلىٰ غَوْرٍ، وانتجاعَها مواقعَ الغيث، ومنابتَ العشب، وقناعَتَها من الطَّعام بأَحْفان التمر، وقِعَاب[٢] اللَّبن، وأصْوُع[٣] الشَّعير. فإذا جدَّ الجِدُّ، أكلتِ القِدَّ[٤]، واشتوتِ الجلد، وتبلَّعت بالضَّبِّ واليَرْبوع وعَراقيبِ الآبال[٥] وأظلاف الأبقار، واكتفاءَها من اللِّباس بأكْسِيَة الكرابيس[٦] وأرْدِية الأشعار، وقُمُص الأوبار، فإذا الأوبار، فإذا أعوزها ذلك لبست الظِّلَّ، وافترشت الرَّمل، غيرَ ناقمةٍ، ولا ساخطةٍ، ولا مُتَبرمةٍ بقضاء الله وقدرِه في قسمةِ أرزاقه بين عبادِهِ، ولا باكِيةٍ حظَّها من رخاء العيش ولينه.

ثم أراها بعدَ ذلك وقد أنعمَ الله عليها بنعمة المدنية الإسلاميَّة؛ فأرىٰ رغَدَ عيشها، ولينَ طعامها، واعشوْشابَ جانبها، وعذوبةَ موارِدها ومصادرِها،

---

(١) **حمارَّة القيظ**: شدة حره. «لسان العرب» مادة (حمر).

(٢) **قِعاب**: جمع قَعْب وهو القدح الضخم. «القاموس المحيط» مادة (قعب).

(٣) **الأصوع**: جمع صاع وهو الذي يكال به، وهو أربعة أمداد. «مختار الصحاح» مادة (صوع).

(٤) **القِدّ**: السَّيرُ يُقدُّ من الجلد لخصف النعال أو نحو ذلك. «المعجم الوسيط» مادة (قدد).

(٥) **الآبال**: جمع إبل. «مختار الصحاح» مادة (أبل).

(٦) **الكرابيس**: جمع كرباس، وهو ثوب غليظ من القطن. «المعجم الوسيط» مادة (كربس).

وسرورَها وغبطتَها بما أفاءَ الله عليها من ذَخائر الفُرْس وأعْلاق الرُّوم، وامتلاء قصورِها باللؤلؤ المَنْظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان.

وأرىٰ مجالسَ غنائها، ومجامعَ أنسها، ومسارحَ لهوها، ومجاملات سبقها، وملاعبَ جيادها، ومذاهبَ طرائدها، ومواقف حجها، وازدحامَ شُعرائها علىٰ أبواب أُمَرائها، وجوائزَ أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاق ألْسنَتِهَا بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابطِ[1] والمَعازف والمَزاهر، والأقداح والدِّنان[2]، والموائد والصُّحف، وألوان الطَّعام حلوهِ وحامضِهِ، وأصنافِ الشَّراب حلالِهِ وحرامِهِ، والطُّيورِ المحلِّقة في الأجواء، والسُّفن الذَّاهبة في الدَّأماء، والرِّياض الخضراء، والغاباتِ الشَّجْراءِ، والقُصور وتماثيلها، والبُحَيراتِ وأسماكِها، والأنهار وشَواطئها، والأزهار ونفحاتِها، والغُيوثِ وقطراتها، ودبيبِ الحُبِّ في القلبِ، والغناء في السَّمع، والصَّهباء في الأعضاء، وخَلْجةِ الشك، ولمحة الفِكر، وبارقةِ المُنىٰ.

ثم لا أشاء أن أرىٰ بين هذا وذاك خلقًا عذبًا، أو أدبًا غضًّا، أو حُبًّا وفيًّا، أو مُجونًا مُستظرَفًا، أو جِوارًا مُستملَحًا إلَّا وجدته، ولَا أن أَسْمَعَ ما

---

(١) **البرابط**: جمع بربط، وهو العود من آلات الموسيقىٰ. «المعجم الوسيط» مادة (بربط).

(٢) **الدِّنان**: جمع دَنّ، وهو وعاء ضخم للخمر وغيرها. «المعجم الوسيط» مادة (دنن).

تهتف به العاتقُ في خِدْرها[١]، وما يحدو به الحادي في أَعْقاب إبله، وما يتغنَّىٰ به العاشقُ، وما يَهذي به الشَّارب، وما يترنَّم به الشَّادي، وما يُسَاجل به الماتح[٢] إلا سمِعْتُه، ولا أنْ أعلمَ ما يهجِسُ في نفس المُحبِّ إذا اشتملَ عليه ليلُه، والحائِر إذا ضلَّ به سبيلُه، والثَّاكلِ إذا فُجعتْ بواحدها، والمَوْتورِ[٣] إذا حيلَ بينه وبينَ واتِرِه، والكريم إِذا لاحَ له منظرٌ من مَنَاظر البؤس والشَّقاء، والغريبِ في دارِ غربته، والسَّجينِ بينَ جُدْران سجنه، والخائفِ إذا وقَف بين الرِّضا والغضب، والمُقدَّمِ للقتل إذا وَقَفَ بينَ الرَّجاء واليأس، والبائس إذا أعْوَزَهُ القوتُ، واليائس إذا أعوزه المَوتُ، والعزيز إذا ذَلَّ، والمشرفِ إذا هَوىٰ، والشَّريف إذا عَبث بشرفه عابثُ، والغيورِ إذا لمس عِرْضَهُ لامس؛ إلَا علمتُهُ. ولا أنْ أعرفَ خُلُق الدَّهر في تنقله بالناس، ما بين رَفْعٍ وخفضٍ، وجِدَةٍ وفقرٍ، ونعيم وبؤس، وإقبال وإدبار، ولا أثرَ يدِهِ السَّوداء في خَراب القصور، وخَلاء الدُّور، وإقفار المَغاني، وتَصْويح[٤] الرِّياض؛ إلَّا عرفتُهُ.

فكنتُ أجد في نفسي من اللَّذَّة والغِبْطة بذلك كلِّه ما لا يقوم به عندي

---

(١) **الخِدْر**: سِتْر يُمَدُّ للمرأة في ناحية البيت. «المعجم الوسيط» مادة (خدر).

(٢) **الماتح**: المستقي علىٰ البئر. «لسان العرب» مادة (متح).

(٣) **الموتور**: من قُتل له قتيل فلم يُدْرِك بدمه. «القاموس المحيط» مادة (وتر).

(٤) **تصويح الرياض**: يبس حتىٰ تشقق.

كلُّ ما يَنَعم به النَّاعمون من رَغَد في العيش ورخاء، حتَّىٰ ظننتُ أنْ الله ﷻ قد صنع لي في هذا الأمر، وأنه لما علمَ أنه لم يَكتبْ لي في لَوْح مقاديرِهِ ما كَتبَ للسُّعداء والمجدودين من عِباده، من مالٍ أو جاهٍ أعيشُ في ظِلِّهِ، وأنعَمُ بثمرتِهِ، زَخرفَ لي هذا الجمالَ الخياليَّ البريءَ من الرِّيبة والإثم، وزَوَّرَه[١] لي تزويرًا بديعًا، ووضعَ لي فيه من الملاذِّ والمحاسن ما لم يضَعْ لغيري؛ رحمةً بي، وإرعاءً عليَّ أن أَهْلِك أو يهلك لُبِّي بين اليأس القاتل، والرَّجاءِ الكاذب. وهكذا لا أزالُ محلِّقًا في هذا الجوِّ البديع من الخيال، أضحكُ مرَّةً، وأكتئبُ أخرىٰ، وأتغنَّىٰ حينًا، وأبكي أحيانًا حتَّىٰ يرميني البابُ ببعض الطَّارقينَ أو يَستعيدَ إليَّ نفسي مُستعيدٌ.

ولم يكن حولي لذلك العهد مِمَّن يستعينُ بمثلهم مثلي علىٰ الأدب أحدٌ؛ لأنني كنتُ أعيش في مُفْتتح عهدي به -ولم أكن زاهَمْت[٢] إذ ذاك الثالثةَ عَشْرَةَ من عمري- بين أشياخ أزهريِّين من الطِّراز القديم، لا يروْنَ رأيي فيه، ولا يتعلَّقون منه بما أتعلَّقُ، فكانوا يَروْنَ أنَّ التوفرَ عليه، أو الإلمامَ به عملٌ من أعمال البَطالة والعَبث، وفتنةٌ من فِتَنِ الشَّيطان، فكان الذين يَتولَّوْنَ أمري منهم لا يزالونَ يَحُولون بيني وبينَه، كما يحولُ الأبُ

---

(١) **زوَّره:** حسنه وزينه. «مختار الصحاح» مادة (زور).

(٢) **زاهمت:** قاربت. «المعجم الوسيط» مادة (زهم).

بين ولده وبين ما يَعْرض له من فِتَنِ الهوَىٰ، ونَزَغات الصَّبوة؛ ضنًّا بي - يزعمون- أنْ أنفقَ ساعةً من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها؛ فكنت لا أستطيعُ أنْ ألمَّ بكتابي إلَّا في الساعة التي آمَنُ فيها علىٰ نفسي أن يُلمُّوا بأمري، وقليلًا ما كنتُ أجدها، وكثيرًا ما كانوا يهجمون مني علىٰ ما لا يحبُّونَ، فإذا عثروا في حقيبتي، أو تحتَ وسادتي، أو بين لفائفِ ثوبي، علىٰ ديوان شعرٍ أو كتاب أدبٍ، خُيِّل إليهم أنهم قد ظفروا بالدِّينار في حقيبة السَّارق، أو الزُّجاجةِ في جَيْب الغلام، أو العشيق في خِدْر الفتاة، فأجدُ من البلاء بهم، والغَصص بمكانهم، ما لا يحتملُ مثلهُ مثلي، وهُمْ لا يعلمون - أحسنَ الله إليهم - أنهم وجميعَ من يدور به جدار مسجدهم حسنةٌ من حسنات الأدب الَّذي ينقمونَ منه ما ينقمون؛ ويدٌ من أياديه البيضاء علىٰ هذا المجتمع البشريِّ.

فلولا الأدبُ ما استطاع أئمتُهُم المُجْتهِدون فَهْمَ آياتِ الكِتاب المنزَّل، ولا استنباطَ تلك الأحكام الَّتي دوَّنوها لهم، وتَرَكوها بين أيديهم يستغِلُّونها كما يستغل المالكُ ضيعتَهُ، ويَعِيشونَ في ظلِّها عيشَ السُّعداء المترفين، ولَوْلَاهُ ما استطاعَ علماؤهم اللُّغويُّون أنْ يُورِّثوهم هذه العُلُومَ اللُّغويَّة الَّتي يُدرِّسون اليومَ نَحوهَا وتصريفَها وبيانها ومعانيها في مجالس علمهم، ويُدلون بمكانهم منها علىٰ الناس جميعًا.

كَمَا لا يعلمونَ أنْ الأدبَ هو خيرُ ما يستعينُ به متعلِّمٌ علىٰ علمٍ، وأنَّ الذوقَ الأدبيَّ الَّذي يستفيدُه المتأدِّبُ من دراسةِ الأدب ومُزاولتِهِ، هو الميزانُ الَّذي يزنُ به ما يحاول فهمَهُ من عباراتِ العلوم وأساليبها، وَالدَّليلُ الذي يَتَسمَّتُه وَيَترسَّمُ مواقعَ أقدامه فِي فَهْم أصول الدِّين؛ ليكونَ مجتهِدًا إن استطاعَ، أو واقِفًا علىٰ مَنازع المجتهدين، واللِّسانُ الذي يَسْتعينُ به علىٰ الإفضاء بأدقِّ أغراضِهِ وأعمقها وأقصاها مكانًا من قلبه؛ ليكون إنسانًا ناطقًا، ومعلمًا نافعًا. ولو أنَّ هؤلاء الزَّارين[١] علىٰ الأدب من عُلَماء الدِّين وشُيوخِه -وهم اليوم والحمد لله قليلٌ بل هم فِي طريق الفناء والانقراض- قد تعلَّقوا منه بما كان يتعلَّقُ به أسلافُهم وأئمتُهم من قبل لَنالوا به فِي دينهم خيرًا كثيرًا، وَلَاسْتَدْفعوا به عن أنفسهم فِي أمرِه شرًّا عظيمًا، فما زَال الدِّينُ واضحَ المنهج، قائم الحُجَّة، وما زالتْ آياتُ الكتاب، ومُتُونُ الأحاديث سائغةً هنيئةً، لا يلحقُها الرَّيبُ، ولا يحيطُ بها الشَّكُّ، ولا تَطيرُ بجنباتها الأوهامُ والظُّنون، حتىٰ جَهِلَ علماءُ الدِّين الأدبَ؛ ففَسَدتْ أذواقُهم، وَضلَّت أفهامُهم، فكثرَ بينهم التأويلُ والتَّخريجُ، ووَهَتْ تلك العقدةُ الوثيقةُ بين الألفاظ والمعاني، وَاسْتَرختْ عُرَاها من أيديهم؛ فأصبحَ كلُّ لفظٍ فِي نظرهم محتمِلًا لكلِّ معنىٰ حتىٰ ما يأبىٰ أحدُهما علىٰ

(١) **الزارين**: جمع زارٍ، وهو المعيب. «المعجم الوسيط» (زرىٰ).

الآخر شيئًا، وتَهافت ذلك الحاجزُ الحصينُ الَّذي كان قائمًا بين الحقيقةِ والمجاز، والحقيقةِ والخيالِ، فبغَىٰ بعضُ الكَلم علىٰ بعض، وعاشَ كلٌّ منهما في تربة صاحبه إقبالًا وإدبارًا، وَجِيئةً وذَهوبًا، وصُعودًا ونُزولًا، فاستطاع الواغِلون في الدِّين والناصِبون له أن يُدْخِلوا عليه الأحاديثَ المَنْحولةَ الغريبةَ في أساليبها عن مناهج العرب ومناحيهم ما لا يضبطُه الحسابُ كثرةً؛ فهلكت الأمَّةُ بين هذا وذاك هُلْكًا لا تزالُ تتجرَّعُ كأسه المريرةَ حتَّىٰ اليوم.

فالحمد لله أوَّلًا، وللأدب ثانيًا علىٰ نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي، ويحاولون مني، بل أحمدُ الله إليهم كذلك؛ فقد كُفيتُ بهم وبسوء رأيهم في الأدب، ونقمتهم عليه، شرَّ مَنْ يدخلُ بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعرٍ وشاعرٍ، وكاتبٍ وكاتبٍ، أو الموازنةِ بين أسلوبٍ وأسلوبٍ، وديباجةٍ وأخرىٰ، فلم يكن لي عونٌ علىٰ ذلك كله غيرُ شعور نفسي، وخُفوق قلبي خفقةَ السُّرور أو الألم، إنْ مرَّ بي ما أحبُّ أو ما أكرهُ من حسنات القول أو سيئاته، من حيثُ لا أعرفُ سبيلَ ذلك ومأتاهُ، فكَان شأني في ذَلكَ شأنَ السَّامع الطَّروب الَّذي تطربه نغمةٌ، وتُزْعجه أخرىٰ، فيطيرُ بالأولىٰ فرحًا، وبالثانية جزعًا، ولقد يكونُ ضعيف الإلمام بضُروب الإيقاع، وقواعد النَّغم، فكنتُ لا أقرأ إلَّا ما أفهمُ، ولا أفهمُ إلا ما أشعرُ أنه

قد خرج من فم قائله خروج السَّهم من القوس، فإذا هو في كَبدِ الرَّمِيةِ ولُبِّها، فإنْ رأيتُ أنَّ المعنىٰ قد قام دونَهُ ستارٌ من التَّراكيب المُتعاظِلة[١]، والأساليبِ المُلْتوية، علمتُ أنَّ القائلَ إمَّا ضعيفُ المادَّة اللغويَّة، فهو يعجِزُ عن الإفضاء بما في نفسه؛ لأنه لا يعرف كيف يُفْضي به؛ وإما جاهل لم يستوِ له المعنىٰ الَّذي يريده كلَّ الاستواء، ولم يَدُرْ في جوانب نفسه حتَّىٰ يستقرَّ في قراره منها، فهو يَتَخيَّلُه تخيلًا، ويُجَمجمهُ[٢]، ويَهْذي به هَذَيانًا، فلَا سَبيلَ له إلىٰ الإفصاح عنه، وإمَّا داهيةٌ محتالٌ قد علم أنَّ المَعْنىٰ الَّذي يجولُ في نفسه، ويَشْتَمِلُ عليه خاطِرُهُ، تافهٌ مرذولٌ، وكان لا بد له أن ينفقَهُ[٣] علىٰ النَّاس، ويزخرفَهُ لهم، ويُزوِّرَه في أعينهم، فهو يكسوهُ أسلوبًا غامضًا ليُكدَّهم ويُجهدَهم في سبيله، حتىٰ إذا ظَفِروا به بعد ذلك، خُيِّل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنًىٰ غريبٍ، أو خاطرٍ بَديعٍ، ووجدوا فيه -عندَ الوصول إليه منَ اللَّذَّةِ والمُتْعة ما يجدُ الظامئ في ضَحضاح[٤] الماء الكدِر إذا أبعد النُّجْعةَ في طلبه، ووصل إليه بعد الجَهد والإشفاء.

وَإمَّا عاجزٌ ضعيفُ القوَّة النفسيَّة قد علم أنَّ ضُعفاءَ الأفهام من

---

(١) **المتعاظلة**: المعقدة والصعبة. «المعجم الوسيط» مادة (عظل).

(٢) **يجمجمه**: لا يبين كلامه من غير عيٍّ. «لسان العرب» مادة (جمم).

(٣) **يُنفِّقه**: يجعله رائجًا. «القاموس المحيط» مادة (نفق).

(٤) **ضحضاح**: ماء ضحضاح: قليل لا عمق فيه. «المعجم الوسيط» مادة (ضحضح).

النَّاس -وهم سوادُ الأمَّة ودَهْماؤها- لا يَرْضَوْن عن معنًىٰ من المعاني، ولا يَسْتسنُون قيمتَهُ، ولا يُقِيمونَ له وزنًا إلا إذا جَاءهم في جِلْدةٍ من الألفاظ المتكرِّسة المتقبِّضة، وأنهم إذا وَرَدَ عليهم أثمنُ المعاني وأغْلاها، وأكرمها جوهرًا، وأطيبها عُنْصُرًا، في ثوبٍ من الأساليب الرَّقيقة الشَّفَّافة؛ ذهب بهم الوهمُ إلىٰ أنه ما جاءهم علىٰ هذه الصُّورة إلَّا لأنَّه ساقطٌ مبتذلٌ، أو سُوقيٌّ مطروقٌ، فاحتقروه وازدروه، وكان يرىٰ لضعفِ حيلتِهِ، وسقوطِ هِمَّتِهِ أنْ لا بدَّ له من موافاة رغبتهم، وبلوغ رضاهم، والنُّزول علىٰ حكمهم، فَتجمَّلَ لهم باللُّكنة[١] وَالعِيِّ، وتملَّقَهم بالغموض والإبهام.

وإمَّا أعجميٌّ يظنُّ أنَّ اللُّغةَ العربيَّة حروفٌ وكلماتٌ، وهو لا يعرفُ منها غيرَهُما، فينطق بشَيْءٍ هو أشبهُ الأشياء بما يترجمهُ بعضُ المترجِمين من اللُّغاتِ الأعجميَّةِ ترجمةً حرفيَّة، فإن نَعَيْت عليه غرابةَ أسلوبِهِ، واستعجامَهُ، والتواءَه علىٰ الفهم؛ كان مبلغُ ما يَنضحُ به عن نفسه أنَّ المعانيَ العصريَّة والخيالاتِ الحديثةَ لا يُسْتطاعُ إلْباسُها الأكِسيَة البدويَّة، والأردية العربيَّة، كأنَّما هو يظنُّ أنَّ المعانيَ والخواطرَ خططٌ وأقسامٌ، وبِقاعٌ وضِياعٌ، هذا للشَّرق وهذا للغَرب، وهذا للعَرب، وهذا للعَجم، أمَّا

---

(١) **اللُّكْنة**: عُجمة في اللسان وعيٌّ. «مختار الصحاح» مادة (لكن).

الحَقيقةُ التي لا ريبَ فيها فهي أنَّ الرجلَ لا ينتزعُ تلك المعانيَ من قَرارةِ نفسه، ولا يصورُ فيها صورةَ عقله، وإنَّما هو مترجمٌ قد عَثُرَ بتلك المعاني في اللُّغة الأعجميَّة التي يعرفها، لاصقةً بأثوابها الأصلية، فلمَّا أراد أن يُفْضي بها إلىٰ العرب -وكان غيرَ مُضْطلع بلغتهم، ولا مُتَمكِّن من أساليبهم- عجزَ عن أنْ ينزعَ عنها أثوابَها اللاصِقَةَ بها، فنقلَها إليهم كما هي إلَّا ما كانَ من تبديل حرفٍ بحرفٍ، أو كلمةٍ بأخرىٰ، من حيثُ يُظَنُّ أنه يهتف بشيءٍ قام في نفسه، أو يُفضي بخاطرٍ من خواطر قلبه.

وإمَّا شحيحٌ يأبىٰ له لؤمُ نفسه، وخبثُ فطرته أن يمنح النَّاس منحتَهُ سائغةً هنيئةً، دونَ أنْ يكدِّرَها عليهم بالمَطْل والتَّسْويف، والمُمانعةِ والمُحاولة. والشُّحُّ خُلُقٌ إذا نزلَ منزلَهُ من نفس صاحبِهِ، أقَامَ من نفسه حارسًا يَقظًا علىٰ كلِّ حَاسَّةٍ من حواسِّه الباطنة والظاهرة حتىٰ لا يجدَ فيه واجدٌ مُصطنَعًا، ولا يظفرَ منه مُعْتصرٌ ببِلَّةٍ، فيضنَّ بعلمه، كما يضنُّ بماله، ويَقبض لسانَهُ عن النُّطق، كما يقبضُ يدهُ عن الإنفاق، ويُصرِّد[1] عطاءه تَصريدًا ليستديمَ به حاجةَ الناس إليه، كما يُجيعُ كلبَهُ ليَتْبعهُ، ولَعْنةُ اللهِ والملائكةِ والناس أجمعينَ علىٰ العَجزة والجاهِلينَ، والمُحتالينَ والكاذِبينَ، والأَشِحَّاء والباخِلينَ.

---

(١) **يُصرِّد**: يُقَلِّل. «القاموس المحيط» مادة (صرد).

وكَانَ أشعرُ الشُّعراء عندي، وأكتبُ الكُتاب، سواءٌ في ذلك المتقدِّمُ والمتأخرُ، والنَّابِهُ والخامِلُ، أوصفَهُم لِحَالاتِ نفسه، أو أثرِ مشاهِدِ الكَوْن فيها، وأقدرَهم علىٰ تَمْثِيلِ ذَلكَ وتصويرِهِ للنَّاس تَصْويرًا صَحيحًا، كَأنَّما هو يعرضُهُ علىٰ أنظارهم عَرْضًا، أو يضعُهُ في أيديهم وَضْعًا، فَإنْ ظَنَنتُ أنَّ القائلَ كاذبٌ فيما يقولُ، أو أنه يرسُمُ صورةً غيرَ الصُّورة التي تتلجلجُ في نفسِهِ، أو أنه لُغَوِيٌ يفرُّ من ضَعْف أسلوبِهِ، وفسادِ نَظْمِهِ إلىٰ أَكَمَةٍ من الألفاظ الغريبة، والتَّراكيبِ المُسْتَوْعِرَةِ، يكمُنُ ورَاءها، أو نَاقلٌ يَتَّخذُ الكِتابةَ حقيبةً يحشوها بالمسائل العلميَّة أو الوَقائع التاريخيَّة حَشْوًا، أو مترجِمٌ ينقُلُ عن اللُّغةِ الأعجميَّةِ -الَّتي يعرفُها- آراءَ عُلَمائها، وخَيَالاتِ شُعَرائها، وكأنَّما هو صَاحِبُها، أو شعرتُ أنه قد مَرَّ بخاطِرِهِ، وهو يَنْطِقُ بكلمته، أنْ يكونَ بليغًا فيها، أو مُبْدِعًا ليَعْجبَ الناسُ منها، كانَ كلُّ حظِّه مني أن أعرفَ له قَدْرَهُ في العلم، ومنزلتَهُ من الذَّكاء والفَهْم إنْ أحسنَ فيما يقول، وَلكنَّني لا أَعُدُّهُ كاتبًا، ولَا شاعرًا، لذلك كان أغزلُ الغزل عندي غزلَ العاشِقين، وأفضلُ الرِّثاء رثاءَ الثاكلينَ، وأشرفُ المَدْح مَدْحَ الشَّاكِرين، وخيرُ العِظات عظاتِ المُخلصينَ، وأجملُ البُكاء بكاءَ المَنْكوبين، وأحسنُ الهِجاء هجاءَ الصَّادقينَ، وأبرعُ الوَصْف وَصْفَ الرَّائين المُشاهِدينَ.

ولَا أدري ما الذي كان يُعْجبني في مُطالَعاتي من شعر الهُموم والأحْزان، ومواقِفِ البؤس والشَّقاء، وقِصَص المَحْزونين والمَنْكوبين خاصةً، فقد كان يُعجبني كلَّ العَجَبِ ويُبكيني أحَرَّ البُكاءِ وأشْجاهُ شَقاءُ المُهَلْهِل في الطلب بثأر أخيهِ، وشقاءُ امْرئ القَيْس في الطَّلب بثأرِ أبيهِ، وبكاءُ جَليلةَ أختِ جَسَّاس علىٰ زوجِها وأخيها، وبكاءُ عَدِيٍّ بن زَيْد علىٰ نفسه في سجن النُّعمان، وبكاءُ مُتمم بن نُوَيرَة علىٰ أخيهِ مالِك حتىٰ دمعت عَيْنُهُ العَوْراءُ، وبكاءُ ليلىٰ بنتِ طريف علىٰ أخيها الوَليد، وهُيامُ أمِّ حَكيم زوج عُبَيْد الله بن العباس في المواقف والمواسم تَنْشد طفليها الذَّبيحَيْن، وبكاءُ الشَّريف علىٰ المناذِرة في خرائبِ الحيرة، وبكاءُ أبي عُبادَةَ علىٰ الأكَاسِرَة في خَرَائبِ المَدائن، وبكاءُ الرَّضي علىٰ بني هاشم، وبكاءُ العَبْلي علىٰ بني أمَيَّة، وبكاءُ الرَّقَاشي علىٰ بني بَرْمَك، وذُلُّ أبي فِراس في أسْرِه، والمُعْتَمِد بن عَبَّاد في سِجْنِهِ، وبكاءُ الوزيرِ بن زَيْدونَ علىٰ نفسه مرَّةً، وعلىٰ ولَّادة أخرىٰ، وبكاء ابن مُناذِر علىٰ عبد المجيد، والبُحْتُري علىٰ المُتَوَكِّل، وابن اللَّبانة علىٰ ابن عَبَّاد، والتَّيمي علىٰ يَزيدَ بن مَزيد، ومَرْوانَ بن حَفْصَةَ علىٰ مَعْن بن زَائِدةَ، وجنونُ المجنون بلَيْلاهُ، وجلوسُهُ في جَنَبات الحي مُنْفرِدًا عاريًا مَذْهوبَ اللُّبِّ، مُشْتَرَك[١] العقل، يَهْذي ويُخطِّطُ في الأرض، ويلعبُ بالتُّراب، ثم هُيامُه بعد ذلك مع

(١) مُشترَك: مهموم يحدِّث نفسه. «المعجم الوسيط» في (شرك).

الوحش في البرِّيَّة لا يأكلُ إلا ما ينبت فيها من بَقْلٍ، ولا يشربُ إلَّا مع الظِّباء إذا وردت مناهِلها، وراحتُه إلىٰ الطريق يصعد مع مُصعديه، وينحدرُ مع منحدريه حتىٰ هلك في أرضٍ مُقْشَعِرَّةٍ مغبَّرة بين الصُّخور والأَحْجار.

وَشقاءُ قَيس لُبنَىٰ بِلُبْناهُ بعد أن طَلَّقها؛ بِرًّا بوالده، ونزولًا علىٰ حُكمه، وذَهابُ الحبِّ به بعد ذلك كلَّ مَذْهب حتىٰ هَلَك بين الوفاءِ للفضيلة، والوفاءِ للحُبِّ، وموقفُ جَميل بن مَعْمَر بين يَدَيْ أبيهِ وهو يَعْتِبُ علَيه أَشدَّ العَتْب وأَمَرَّهُ في استهتاره بحبِّ بُثَيْنَةَ، ومخاطرتِهِ بنفسه في الإلْمَام بحُبِّها، فيَقُول: «يا أَبَتِ، هل رأيتَ قبلي أحدًا قَدَرَ أنْ يدفعَ عن قلبه هَواهُ، أو مَلَكَ أن يسليَ نفسَهُ، أو استطاعَ أن يدفعَ ما قُضِيَ به عليه؟ وَاللهِ، لو قَدَرْتُ أَنْ أمحوَ ذِكْرَها من قلبي، أو أزيل شخصَها من عيني لَفَعلتُ، وَلكنْ لا سَبيلَ إلىٰ ذلك، وَإنَّما هو بلاءٌ بُليتُ به لحين قد أتيحَ لي، وأنا أَمْتَنِعُ من طُرُوق هذا الحيِّ، والإلمَام به، ولَوْ مِتُّ كمَدًا، وهَذا جَهْدي، ومَبْلغ ما أقدرُ عليه».

وَبكاءُ النَّبيِّ ﷺ عندما سمعَ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ يُحدِّثُ عن نفسه أنَّه كانَ يَئِدُ بناتِهِ في الجاهليَّة، وأنَّ وَاحدةً منهُنَّ ولدتها أمُّها وهو في سَفَرٍ، فَدَفعَتْها إلىٰ أخوالها ضَنًّا بها علىٰ الموت، وإشفاقًا عليها، فلما عادَ وسألها عن الحَمل، قالت له: إنها وَلَدتْ مولودًا مَيِّتًا، ثمَّ مَضَتْ علىٰ ذلك سنون عدَّةٌ حتىٰ كبِرت البنتُ ويَفَعت، فزارت أُمَّها ذات يومٍ، فرآها

عندها، فأعجب بجمالها وذكائها، وسألها عنها، فحَدَّثَتْهُ حديثَها علىٰ وجهه، ولم تَكْتُمْهُ شيئًا منه؛ طمعًا في أنْ يَضمَّها إليه، ويَمْنحَها رحمتَهُ وعطفَهُ، فأمسَك عنها أيَّامًا، ثمَّ تغفَّلَ أُمَّها عنها ذات يوم، وخرجَ بها إلىٰ الصَّحْراء حتَّىٰ أبعدَ، فاحتفرَ لها حُفْرَةً، وجعلها فيها، فَجَعلتْ تقولُ: «يا أبَتِ، ما تريدُ أنْ تصنعَ بي؟ وما هذا الَّذي تفعلُ؟»، وهو يُهِيلُ عليها التُّرابَ، ولا يلتفتُ إليها، وهي تئنُّ وتقولُ: «أتاركي أنتَ يا أبتِ وَحْدي في هذا المكان، ومُنْصرِفٌ عني؟»، حتَّىٰ واراها، وانقطعَ أنينُها.

وبُكَاءُ الأعرابيَّةِ التي مات منها وَلدُها في دار غربةٍ، فدَفنتْهُ، ثمَّ وَقَفتْ علىٰ قَبْرِهِ تودِّعُه وتقولُ: «وَاللهِ يا بُنيَّ، لقد غَذَوْتُك رَضيعًا، وفَقَدْتُك سَريعًا، وكَأَنْ لم يكن بين الحالَين مدَّة أَلْتذُّ بعيشكَ فيها، فأصبحتَ بعدَ الغَضَارة والنَّضارَةِ، ورَوْنَق الحياة، والتَّنسُّم بطيبِ رَوائحها، تحتَ أَطْباق الثَّرىٰ جَسدًا هَامِدًا، ورُفاتًا سحيقًا، وصَعيدًا جُرُزًا، اللَّهُمَّ إنَّكَ قد وهبتَهُ لي قُرَّة عَيْن، فلَمْ تُمَتِّعْني به كثيرًا، بل سَلبْتَنيه وَشيكًا، ثم أمَرْتني بالصَّبر، ووعدْتَني عليه الأجْرَ، فَصدقتَ وَعْدَك، ورَضيتُ قَضاءك، فارْحَم اللَّهُمَّ غربتَهُ، وآنس وَحْشتَهُ، وَاسْتُرْ عَوْرَتَهُ، يومَ تَنْكشِفُ الهَنَاتُ والسَّوْآتُ، واثكَلَ الوالداتِ! ما أَمَضَّ حَرارةَ قلوبِهنَّ، وأقلقَ مضاجِعَهنَّ، وأطولَ ليلهنَّ، وأقلَّ أنسهنَّ، وأشدَّ وحشتَهُنَّ، وأبعدَهنَّ من السُّرور، وأقربَهنَّ من الأحْزان»!

وَشقاءُ ذينكَ البَائِسيْنِ المَنكوبيْنِ؛ عُرْوةَ بن حزام، وعَفْراءَ بنت عِقال، ومُنَاصبَةُ الدَّهر لهما، وانقطاعُ سبيلهِ بهما حتَّىٰ أَصْبَحتْ زوجًا لغيره، وأصبحَ من بعدها هائمًا مختبلًا، يرمي بنفسه المرامي، ويقذفُ بها في فِجاج[١] الأَرْض ومَخَارِمها[٢]، حتىٰ بلغ منزلَها ذاتَ يوم؛ فَتنكَّرَ حتىٰ زارها وهو يظنُّ أنَّ زوجَها لا يعلمُ من أمره إلَّا أنه أحدُ الأضيافِ الغُرباء، فلَمَّا عَلِمَ أنه يعرفُ حقيقةَ أمرِهِ، وأنَّه علىٰ ذلك لا يتَّهِمُهُ، ولا يتنكَّرُ له، عَزَمَ علىٰ الانصراف حياءً منه، وقال لها: «يا عفراءُ، أنتِ حظِّي من الدُّنيا، وقد ذَهَبْتِ فذَهبَتْ دُنْيايَ بذَهابِكِ؛ فما قيمة العيش من بعدكِ، وقد أجملَ هذا الرَّجُل عِشْرَتي، واحتمل لي ما لا يحتمله أحدٌ لأحدٍ حتَّىٰ استحييتُ منه، وإنِّي راحلٌ من هذا المكان، وإنِّي عَالمٌ أني أرحلُ إلىٰ منيَّتي!»، وما زال يبكي وتبكي حتَّىٰ انصرفَ، فلمَّا رَحلَ، نَكِسَ بعدَ صلاحِهِ وتماسُكِهِ، وأَصابَهُ غَشْيٌ وخَفَقان، فكان كلَّما أُغْميَ عليه، ألقىٰ علىٰ وجهه خِمارًا لعفراء، كانت زوَّدتْهُ إياه، فيُفيق حتَّىٰ بلغ حيَّهُ، وأمسك عامًا كاملًا لا يَسمعُ منه سامعٌ كلمةً، ولا أنَّةً، حتىٰ بلغَ منه اليأسُ، فَسَقط مريضًا، فَمرَّ به بعضُ النَّاس، فَرَآهُ مُلْقًىٰ بجانب خِبَائِهِ، فسأله عمَّا به، فوضَع يدَهُ علىٰ صدره، وقال:

---

(١) **فِجاج**: جمع فَجّ وهو الطريق الواسع بين جبلين. «القاموس المحيط» مادة (فجج).

(٢) **مخارمها**: الطريق في الجبل أو الرمل. «المعجم الوسيط» مادة (خرم).

كـــأنَّ قَطـــاةً عُلِّقَـــتْ بَجَناحِهـــا

علـىٰ كَبِـدِي مـن شِـدَّة الخَفَقـانِ

ثم شَهقَ شهقةً كان نفَسُهُ فيها، فلمَّا بلغ عفراءَ خبرُهُ، قامت إلىٰ زوجها، وَقالَتْ له: «قَدْ كَانَ من خبرِ ابن عمِّي ما كان، وقد مات في وبسَببي، وَلابُدَّ أنْ أندُبَهَ، وأقيمَ مأتمًا عليه»، فقال: «افعلي»، فما زالت تندُبُه ثلاثًا حتىٰ ماتت في اليوم الرابع.

وشقاءُ سَعْد الوَرَّاق بحبِّ عيسىٰ النَّصراني حينما علم أن أهلَهُ قد بَنَوْا له ديرًا[١] بنواحي الرقة ليَترهَّبَ فيه، ويحتجبَ عن الناس؛ فَضَاقتْ عليه الدُّنيا بما رَحُبَتْ، وأحرقَ بيتَهُ، وفارقَ أهلَهُ وإخوانَهُ، ولَزِمَ صَحْراءَ الدَّيْر عَلَّهُ يجدُ السَّبيل إلىٰ الوصول إليه، فامتنع عليه ذلك بعدَما ذلَّ للرُّهبان، وتَخضَّع لهم، وتأتَّىٰ لهم بكل سبيلٍ، فلَمْ يُجْدِهِ ذلك شيئًا، فَصَار إلىٰ الجُنون، وَخرَّقَ ثيابه، وأصبح عُريانًا هائمًا، لا شأنَ له إلَّا أن يقفَ بكل طائرٍ يراهُ علىٰ شجرةٍ؛ فيناشدهُ الله أن يبلغ رَسائلَهُ إلىٰ عيسىٰ، حتَّىٰ رَآهُ بعض النَّاس في بعض الأيام ميتًا إلىٰ جانب الدير.

وأمثالُ ذَلكَ من مواقف البؤس، ومصارع الشَّقاء، كأنما كنتُ أرىٰ

(١) **الدَّير**: دار الرهبان والراهبات. «المعجم الوسيط» مادة (دير).

أنَّ الدُّموعَ مظهرُ الرَّحمة في نفوس الباكينَ، فلما أحببتُ الرَّحمة، أحببتُ الدُّموعَ لحبها؛ أو كَأنَّما كنتُ أرَىٰ أنَّ الحياةَ مَوْطِنُ البؤس والشَّقاء، ومستقرُّ الآلام والأحزان، وأنَّ الباكين هم أصدقُ الناس حديثًا عنها، وتصويرًا لها، فلمَّا أحببتُ الصدق، أحببتُ البُكاء لأجله؛ أو كأنَّما كنت أرىٰ أنَّ بين حياتي وحياةِ أولئك البائسينَ المنكوبينَ شبهًا قريبًا، وسببًا متَّصِلًا، فَأَنِستُ بهم، وَطَرِبْتُ بنُوَاحهم طَرَبَ المُحبِّ بنَوْح الحمائم، وبكاء الغمائم، أو كأنما كنتُ في حاجةٍ إلىٰ بعض قَطَرات من الدَّمع أتفرَّجُ بها مما أنا فيه، فلمَّا بكىٰ الباكون، وبكيتُ لبكائهم، وَجدتُ في مدامعهم شفاءَ نفسي، وسُكُونَ لَوْعتي؛ أو كأنَّما كنتُ أرىٰ أنَّ جمالَ العالم كله في الشعر، وأنَّ الشِّعرَ هو ما تَفجَّرَ من صُدُوع الأفئدةِ الكليمةِ(١)، فَجَرىٰ من عيون الباكينَ مع مدامعهم، وصَعِدَ من صُدُورهم معَ زفراتهم.

تلك أيامي التي سَعِدْتُ بها برهةً من الدَّهر، ومرَّ لي فيها أحسنُ ما مرَّ لأحدٍ، والتي لا أزالُ أذكُرها بعد مرور تلك الأعوام الطِّوال، فأكادُ أشرق بدمعي لذكراها، ثم انثنيتُ، فوجدتُ يديَّ صِفرًا منها، وإذا أنا بين يَدَيْ هذا العالم المظلم المُقشعرِّ -عالم الحقيقة والألم، فنظرتُ إليه نظرَ الغريب الحائر إلىٰ بَلَدٍ لا عهدَ له به، ولا سَكنَ له فيه؛ فَرَأيتُ مَخازيَهُ

(١) **الكليمة**: المجروحة. «القاموس المحيط» مادة (كلم).

وشُرُورَهُ، وظلمةَ أجوائه، واغبرار سمائه، وقتالَ النَّاس بَعْضَهُم بَعضًا علىٰ الذَّرةِ والحبَّة، والنَّسْمة والهَبْوة[١]، واتساعَ مسافةِ الخُلْفِ بين دَخائل القلوب، وَمَلامح الوُجُوه، وسُلطانَ القوَّة علىٰ الحقِّ، وغَلبَةَ الجَهل علىٰ العِلْمِ، وإِقْفَارَ القلوبِ من الرَّحمة، وجمودَ العُيون عن البُكاء، وعجزَ الفقراءِ عن فُتَات موائِدِ الأغنياء، وتمضُّغ الأغنياءِ بلحوم الفُقراء.

ورأيتُ التَّرائيَ بالرَّذيلة حتَّىٰ ادَّعاها لنفسه، وأنحلَها إياها مَنْ لا يَتخلَّقُ بها طلبًا لِرضا النَّاس عنه برضَاه عنها، وَرأيتُ البراءةَ من الفضيلة حتَّىٰ فَرَّ بها صَاحِبُها من وجوه السَّاخرينَ به، والنَّاقمينَ عليه فرارَ العاري بسَوْأته، والمَوْسوم بِخِزْيته.

ورأيتُ الرَّجلَ والمرأةَ وقد سرا[٢] كلٌّ منهما ثوبَهُ عن جسمه وألقاهُ بين يديه، ثم تقايضا، فلَبستْ قَباءه، ولبسَ غِلَالَتها؛ فأصبح امرأةً لها من النِّساء التكسُّرُ والتبرُّدُ، وأصبحتْ رجلًا له من الرِّجال التَّوقُّحُ والتَّشَطُّرُ[٣].

وَرَأيتُ الدِّين، وهو دَوْحةُ السَّلام الخضراء الَّتي يستظلُّ بها

(١) **الهبوة**: الغبرة. «مختار الصحاح» مادة (هبو).

(٢) **سَرا**: ألقىٰ. «المعجم الوسيط» في (سرو).

(٣) **التشطُّر**: صار شاطرًا. والشاطر: الخبيث الفاجر. «المعجم الوسيط» مادة (شطر).

الضَّاحون[١] من لَفَحات الحياة وزَفَراتها، قد استحالَ في أيدي النَّاس إلىٰ سهامٍ مَسْمومةٍ يحاولُ كلٌّ منهم أنْ يُصيبَ بها كبدَ أخيه، فلا يخطئها.

ورأيتُ ضلالَ الأسماء عن مُسمَّياتها، وحيرةَ مُسمَّياتها بينها، واضطرابَ الحدود والتَّعاريف عن أماكِنها ومواقِفها؛ حتَّىٰ دخلَ فيها ما لم يكنْ دَاخِلًا، وَخَرج منها ما لم يَكنْ خارجًا، فسُمِّيَ الشُّحُّ[٢] اقتصادًا، والكرمُ إسرافًا، والحِلْمُ جبنًا، والسَّماحةُ جرأةً، والسَّفاهةُ براعةً، والفجورُ فُتوَّةً، والتَّبذُّلُ حريَّةً، واشتبهَتْ طرقُ الفضيلةِ ومسالكُها علىٰ مَنْ يريدُ ركوبها؛ لأنَّه يجدُ علىٰ رأس كلِّ وَاحِدَةٍ منها زعيمًا من زعماء الخديعة والكذب، يصرفُهُ عنها إلىٰ غيرها.

وكُنْتُ أرَىٰ أنْ الأدبَ حالٌ قائمةٌ بالنَّفس، تمنعُ صاحِبَها أنْ يُقدمَ علىٰ شرٍّ، أو يحدِّثَ نفسَهُ به، أو يكونَ عونًا لفاعليه عليه، فَإنْ سَاقتْهُ إليه شَهوةٌ من شَهَوات النَّفس، أو نَزوةٌ من نَزَواتها، وجَدَ في نفسِهِ عندَ غِشَيانِهِ ومخالطتِهِ من المَضَض[٣] والارتماض[٤] ما ينغِّصُ عليه عيشَهُ، ويُقلقُ مضجعَهُ، ويطيلُ سُهْدَهُ وألَمَه، فإذا هو صورةٌ من صُوَرِ

---

(١) **الضاحون**: الذين أصابهم حرُّ الشمس. «المعجم الوسيط» مادة (ضحو).

(٢) **الشحُّ**: البخل مع حرص. «مختار الصحاح» مادة (شحح).

(٣) **المضض**: وجع المصيبة. «لسان العرب» مادة (مضض).

(٤) **الارتماض**: اشتداد الغيظ والوجع والقلق. «لسان العرب» مادة (رمض).

الجوارح، وعَرَضٌ من أعراض الجسم لا دَخْلَ له في جَوْهر النَّفس، لا علاقة بينه وبينَ الحسِّ والوِجْدانِ.

فَأكثرُ النَّاس عند النَّاس أدبًا، وأقْوَمُهم خُلقًا، وأطهرُهُم نفسًا، مَنْ لا يفي علىٰ شَرطِ أنْ يَعِدَ، ومَنْ يكذبُ علىٰ أنْ يكون كذبُهُ سائغًا مهذَّبًا، ومَنْ يملأ صدرَهُ مَوْجِدةً وحِقْدًا علىٰ أنْ يكونَ بَسَّامًا ضَحوك السِّنِّ، ومَنْ يسرقُ علىٰ أَنْ يستطيعَ العبثَ بموادِّ القانون، وَخداع القُضاة عنها، ومَنْ يبغضُ النَّاسَ جميعًا بقلبه علىٰ أنْ يحبَّهم جميعًا بلسانِهِ، ومَنْ يحفظ تلك المُصطلحاتِ اللفظيَّة، وتلك الصُّورَ الجافَّة من الحركاتِ الجسميةِ الَّتي تَوَاضعَ عليها المتكلِّفون في الزِّيارة والاستزارة، والهناء والعزاء، والمؤاكلة والمنادمة، وأمثال ذلك ممَّا يرجعُ العِلْمُ به غالبًا إلىٰ صغر النَّفس وإسفافها أكثرَ ممَّا يرجع إلىٰ علوِّها وكمالها، فداخلني من ذلك هَمٌّ عظيمٌ لم أَسْتَطعْ أنْ أملكَ نفسي معه، كأنَّما خُيِّلَ إليَّ -لقرب عهدي بما أرىٰ- أنَّني أرىٰ شيئًا عجيبًا، أو منظرًا غريبًا، أَوْ كأنَّما كُنْتُ أحسب أن عالم الخيال الذي كنتُ فيه إنَّما هو صورةٌ صحيحةٌ لعالم الحقيقة الذي أنتقلُ إليه، فأزعجني ما رَأيتُ من هذا الاختلاف العَظيم بينهما؛ فأرسلتُ الكلمةَ إثْرَ الكلمةِ كما يتنفَّسُ المتنفِّسُ أو يئنُّ الحزينُ، فرَأىٰ ذَلكَ بعضُ النَّاس فَسمَّوْا ما رَأوْهُ كلامًا، ثمَّ ما زَالوا يَسْتحسنونَ ما أقولُ، ويُغرونني بأمثاله، وما زلتُ أطمعُ فيهم، وأرجو أنْ أصيبَ ما في نفوسِهم حتَّىٰ رأيتُني كاتبًا.

ولقد كَانَ لهذا الأدبِ الذي تولَّيتُ نفسي به أثَرٌ باقٍ عندي إلىٰ هذه الساعة التي أكتبُ فيها رسالتي هذه، فإنِّي لا أحسنُ حتىٰ اليوم أنْ أكتبَ كلمةً يُفْضي بها إليَّ غيري، أو أعبِّرُ عن معنًىٰ لا يقومُ بنفسي، أو أبكي علىٰ مَنْ لا يَحزنُني فراقُه، أو أندُبُ مَنْ لا يَفجعُني موتُه، أو أستنكرُ ما أستحسنُ، أو أستحسنُ ما أستنكرُ، كما لا أستطيعُ أنْ أمرَّ بمَشْهدٍ من تلك المَشَاهِدِ الَّتي تُهيجُ في نفسي حُزنًا شديدًا، أو طربًا كثيرًا، فأملك نفسي عن مُحَاوَلَةِ الإفضاء بما ترَكَه عندي من خيرٍ أو شرٍّ، وما أعلمُ أنِّي كتبتُ كلمةً في شَأْنٍ من الشُّؤون إلَّا وكان بعضُ تلك المشاهد مَنْشؤها في قلبي؛ فقد كنتُ رجلًا لا أحبُّ الكذبَ، ولا أحملُ نفسي عليه ما وَجدتُ منه بدًّا، فأبغضتُ الكاذبينَ بُغْضَ الأرض للدَّم، فكانَ من هَمِّي أن أقاتلهُم علىٰ الصدق قتالًا مستحِرًّا[1] حتَّىٰ أصلَ بهم إلىٰ إحدىٰ الحُسْنيَيْن: إمَّا أن يكونوا صَادِقينَ، وإمَّا أن يَعْلَمَ النَّاسُ أنَّهم كاذبونَ.

وَكنتُ إنسانًا بائسًا لم يتركِ الدَّهرُ سهمًا من سهامِهِ النَّافذة لم يَرْمني به، ولا جَرعةً من كؤوس مصائبه ورزاياهُ لم يجرعُني إيَّاها، فقد ذُقْتُ الذُّلَّ أحيانًا، والجوعَ أيَّامًا، والفقرَ أعوامًا، ولقيتُ من بأساء الحياة وضَرائها ما لم يَلقَ بشرٌ، فشعرتُ بمرارةِ الحياة في أفْوَاهِ المساكين،

---

(١) أي شديدًا.

ورَأيتُ مواقعَ سهام الدَّهْرِ في أكبادِ البائسينَ والمنكوبينَ؛ فكَان من هَمِّي أنْ أبكيَ كلَّ بائسٍ، وأَنْدُبَ كلَّ منكوبٍ، وأطلبَ رحْمَة القويِّ للضَّعيف، والغنيِّ للفقير، والعَزيز للذَّليل.

وقُدِّرَ لي فيما مرَّ بي من أيام حياتي، أنْ رأيتُ بعينيَّ مَنْ وقفَتْ بين يديه امرأةٌ ذليلةٌ تبكي وَتضرعُ إليه أنْ يرضخ لها بقليلٍ من المال؛ لتستعينَ به علىٰ سَتر ما كَشَفَ ابنهُ من سَوأةِ ابنتِها، فأبىٰ ذلك عليها، وقال لها وهو يحسَبُ أنه يعلمُ ما يقول: «أيتها المرأةُ، لا حَقَّ لابنتكِ عندي، ولا عندَ ولدي؛ فلم يكن حظُّه منها فيما كَانَ من أمرِهما بأكبرَ مِنْ حظِّها منه». ورَأيتُ مَنْ تَزوَّجَ فتاةً كانَ يُمسك في نفسه لأهلها حِقدًا قديمًا، فما دنا منها لَيْلَةَ البِناء[١] بها حتَّىٰ صَدَفَ عنها صارخًا: «أيُّها النَّاسُ، إنَّ الفتاةَ مريبةٌ». وكان كَاذبًا فيما يقول، ولكن صدَّقَهُ النَّاسُ، فانتقم لنفسه بذلك شَرَّ انتقامٍ وأَقْذَعَهُ.

ورأيتُ مَنْ دخلتْ إليه امرأةٌ من أولئك النِّساء المُريبات تسألُه بعضَ المعونةِ علىٰ أمْرِها، فأمَرَ بطردِها ذَهابًا بنفسه أنْ تسوءَ بمكانها، وكانَ هو الَّذي أفسدَها علىٰ نَفْسِها؛ فنزلَ بها فسادُها إلىٰ هذه المنزِلَةِ من السُّقوط ثمَّ الفَقر، فلما جَدَّ الجِدُّ، حاسبَها علىٰ لُقْمةٍ تَتذوَّقُها في بيته، ولم يُحَاسِبْ نفسَهُ علىٰ عِرْضٍ كان يأكلُهُ في بيتها أكلًا؛ فكان بي منذُ ذلك العهد أن أنظرَ

(١) **ليلة البناء**: ليلة الزفاف. «القاموس المحيط» مادة (بني).

إلىٰ المرأةِ بعينٍ غَيرِ الَّتي ينظرُ بها النَّاسُ إليها، وأنْ ألتمسَ لها من العُذْر -وإن زَلَّتْ بها قَدَمٌ- ما لا يلتمسُهُ لها أحدٌ، وأنْ أنتصِفَ لها من الرَّجُل كلَّما وَجدتُ السَّبيلَ إلىٰ ذَلكَ حتىٰ يُديل(١) لها الله منه، وكنتُ من شؤون عَيْشي في حالةٍ لا أستطيعُ معها أنْ أعتزلَ النَّاسَ الاعتزالَ كلَّه، ولا أنْ أختارَ لعشْرَتي مَنْ أشَاءُ من خِيَارهم وذَوي المُرُوءةِ فيهم، فَلَبِسْتُهُمْ(٢) علىٰ عِلَّاتهم، فما حَفِظَ لي صديقٌ عهدًا، ولا صانَ لي صاحبٌ سرًّا، ولا استدنتُ مرَّةً فنفَّس عني دائنٌ، ولا دِنتُ فَوَفَّىٰ لي مَدينٌ، ولا رَدَّ لي مُسْتعيرٌ عاريةً، ولا شكرَ لي شاكرٌ صنيعةً، ولا فَرَّجَ لي كُربتي مفرِّجٌ إلَّا إذا استقطرَ ماءَ وَجْهي إلىٰ القطرةِ الأخيرةِ منه؛ ليأخذَ أكثرَ مما أعطىٰ، ويسلُبَ فوقَ ما وهَب.

ووجدتُ في طريق حياتي مَنْ خالَطَني مخالطةَ الزَّائر للمزور، حتىٰ أمكنَتْهُ الفرصةُ فسرَقَ مالي بعدَما تَحرَّم(٣) بطَعامي وشَرابي؛ ومَنْ كانَ يتردَّدُ وجهُهُ في وجهي، فأكره أنْ أردَّه بالأمل الخائبِ، فلمَّا عَجزْتُ عن ذلك مرَّةً، أَضْمَرَ لي في قَلْبِهِ من الشَّرِّ ما لا يضمرُ مثلَه الرَّجلُ إلَّا لمَنْ

(١) **يُدين**: يقتصُّ. «المعجم الوسيط» مادة (دين).

(٢) أي خالَطهم وعاشَرهم.

(٣) **تحرَّم بطعامي وشرابي**: حَرُمَ عليه بسببهما ما كان له أَخْذُه. «المعجم الوسيط» مادة (حرم).

يَغْلبُهُ علىٰ تُرَاثِ أبيه وأُمِّه، أو يُخضِّبُ لحيتَهُ من دم مَفْرِقهِ؛ ومَنْ نَصَبَ(١) لي وغَرِيَ بمحادَّتي ومماظَّتي(٢)؛ لأنه كان يحملُ في رأسه فتكةً لم يجدْ في طريقه مَنْ يحملُها عنه، ويَستخذي(٣) له فيها سواي؛ ومَنْ أخَذ نَفْسَهُ بالنَّيل منِّي، والغَضِّ من شأني؛ لأنه كان يشكو الخمولَ والضِّعَة، وكانَ لابدَّ له من أن يكونَ نابهًا مذكورًا، فاتفق له أنْ رأىٰ عاتقي بين يدَيْه، فظنَّ أنه أعلىٰ العواتِق وأبعدُها مَذْهبًا في جوِّ السماء، فعَلاه ليُشرفَ منه علىٰ النَّاس، فيَعْرِفوا مكانَهُ، فَواللهِ ما تحلحلتُ(٤)، ولا نبوتُ(٥)؛ بَقيًا عليه، وضنًّا به أنْ يسقطَ سقطةً لا يئلُ منها؛ ومَنْ كان لا يُكبرُ شأني إلَّا إذا اتَّقاني، فَإذَا أضَاءَ ما بيني وبينه، كنتُ في عينه أصغرَ منه في عين نفسه؛ ومَنْ كانَ يُقبل ويُدبر بإقبال الدَّهر عليَّ، وإدبارِهِ عنِّي، ثم لا يَستحْيي من ذلك حتىٰ أسْتَحْيِيَ له منه، فعركتُ بجنبي(٦) أكثرَ ما

(١) **نصَبَ لي**: عاداني. «القاموس المحيط» مادة (نصب).

(٢) **مماظتي**: مخاصمتي ومشاتمتي. «المعجم الوسيط» مادة (مظظ).

(٣) **يستخذي**: يخضعُ ويذلُّ. «المعجم الوسيط» مادة (خذي).

(٤) **تحلحلت**: تحركت. «القاموس المحيط» مادة (حلل).

(٥) **نبوتُ**: تباعدتُ. «مختار الصحاح» مادة (نبو).

(٦) **فعركت بجنبي**: احتملت ذنبه. «المعجم الوسيط» مادة (عرك).

كَرِهْتُ من ذلك، وَلكنَّني لم أرْضَ لنفسي أَنْ أنزل في الغرارة[١] والغَفْلة دونَ المنزلةِ الَّتي ينخدعُ فيها الغِرُّ الكريمُ، فأصبحَ رأيي في الناس غيرَ رأيهم في أنفسِهم، ورَأي بعضهم في بعضٍ، وَخِفتُ أنْ يصيبَ كثيرًا من الضُّعفاء والمَحدودين[٢] أمثالي مثلُ ما أصابني، فَكَانَ من هَمِّي أنْ أنبُشَ دَفَائنَهُم؛ خيرًا كَانتْ أو شرًّا، وَأَنْ أَكْشِفَ أثوابَهُم عَن أَجْسَامِهم، وأَجْسَامَهُم عن نُفُوسِهِمْ، حتَّىٰ يَتَراءَوْا ويَتَكاشَفوا، فيَتواقَوْا ويتحاجزوا؛ فلا يهنأ خادعٌ بخُدْعته، ولا يبكي مخدوعٌ علىٰ نَكْبته، ولا يتَّخذ بعضُهم حُمُرًا يركبونها إلىٰ أغراضهم ومطامعهم.

وكان مَنْشَئي في قومٍ بُداةٍ سُذَّج لا يبتغونَ بدينهم دينًا، ولا بوطنهم وَطنًا، ثمَّ تَرامَىٰ بي الأَمْرُ بعدَ ذلك، وتَصرَّفَتْ بي في العيش شُؤونٌ جَمَّةٌ؛ فَخَضعتُ لِكَثِيرٍ من أحكام الدَّهر وأقضيَته إلَّا أنْ أَكُونَ مُلْحِدًا في ديني، أو زاريًا علىٰ وَطني، فاستطعتُ، وقد غمرَ النَّاسَ ما غمرهم من هذه المدنيةِ الغربيَّة أنْ أجلسَ ناحيةً منها، وأَنْ أنظرَ إليها من مَرْقَبٍ عالٍ، وكُنْتُ أَعْلَمُ أنَّ مِنْ أعجزِ العَجْزِ أنْ ينظرَ الرَّجلُ إلىٰ الأمر نظرةً طائرةً حمقاءَ، فإمَّا أخذَه كلَّه، وإمَّا تركَه كلَّه، فَرأيتُ حَسَناتِها وسَيِّئاتِها، وفضائلَها ورذائلَها، وعرفتُ ما

---

(١) **الغرارة**: الغفلة. «مختار الصحاح» مادة (غرر).

(٢) **المحدودون**: قليلو الحظ. «المعجم الوسيط» مادة (حدد).

يجبُ أنْ يأخذَ منها الآخذُ، وما يترك التَّاركُ، فكَانَ من هَمِّي أنْ أحملَ النَّاسَ من أمرها علىٰ ما أَحْمِلُ عليه نفسي، وأَنْ أَنقِمَ من هؤلاء العَجَزةِ الضُّعفاء تهالكَهم(١) لها، واستهتارَهم بها، وسقوطَ نفوسهم أمامَ رَذَائِلها ومَخَازيها، وإلحادِها وزَنْدقَتها، وشُحِّها وقسوتها، وَشَرِّهها وحِرْصِها، وتبذُّلها وتَهتُّكِها حتَّىٰ أصبحَ الرَّجلُ الَّذي لا بأسَ بعلمه وفهمه إذا حَزَبَهُ(٢) الأمْرُ في مناظرةٍ بينهُ وبين من يأخذُهُ برذيلةٍ من الرَّذائل لا يجدُ بين يديه ما ينضَحُ(٣) به عن نفسه إلا أنْ يعتمدَ عليها في الاحْتِجاج علىٰ فِعْلِ ما فَعَلَ، أو تَرْكِ ما تَرَك، كأنَّما هي القانونُ الإلهي الَّذي تَثوبُ إليه العُقُولُ عند اختلافِ الأنظار، وَاضْطِرابِ الأَفْهام، أو القانونُ المنطقيُّ الَّذي توزَنُ به التَّصديقاتُ والتَّصوُّراتُ لمعرفة صَوابها وخَطئها، وصَحيحها وفاسِدِها، وحَتَّىٰ أصبحَ السيِّدُ في منزله يستحْيي من خادمةِ مَطْبخِه الأوروبيَّة أنْ تَطَّلعَ منه علىٰ جهلٍ ببعض عاداتها وعاداتِ قومها حتىٰ في لُبْس الرِّداء، وخَلْع الحِذاء، أكثرَ مما يستحيي من الله، ومن النَّاس أن يَهجُموا منه علىٰ أَرْذلِ الرَّذائل، وأكْبَرِ الكبائر، وَحتَّىٰ أصبحَ تاريخُ المشرق، وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفتِهِ

(١) **تهالكهم**: التهالك علىٰ الشيء: الإقبال عليه في حرص شديد. «المعجم الوسيط» مادة (هلك).

(٢) **حزبه الأمر**: اشتد عليه. «القاموس المحيط» مادة (حزب).

(٣) **ينضح عن نفسه**: يدفع عنها. «المعجم الوسيط» مادة (نضح).

وشُعرائه صورةً من أقْبَح الصُّور وأسمجِها في نظر كثيرٍ من الشَّرقِيِّين الَّذين أصبحوا يَفخرونَ بجَهْل تاريخهم إن جهلوه، ويُراؤون بجهله إنْ عَلموه، وحتَّىٰ قَدرَ ذلك الغلامُ الرُّوميُّ خادِمُ الحان أو القهوة منفردًا علىٰ ما لم تَقْدِرُ عليه الأُمَّةُ جَميعُها مجتمعةً، فَحَملَها علىٰ النُّزول إليه لتحدِّثه بلغته قبلَ أنْ تحملَهُ علىٰ الصُّعودِ إليها ليحدِّثَها بلغتها، وهو إلىٰ أنْ يترضَّاها ويستدْنِيَها أحوجُ منها إلىٰ أنْ تزدلفَ[١] إليه، وتنزل علىٰ حُكمِهِ.

فذلك ما تراهُ في رسائل النَّظراتِ منتثرًا هاهنا وهاهنا، قد شَعَرَ به قلبي، ففاضَ به قلمي من حيث لا أكذِبُ النَّاسَ عن نفسي، ولا أكذِبُ نفسي عنها، ولو كانَ بي أنْ أكْذِبَهم لكَذَبتُهم فيما يرضيهم، وما أعلمُ أني أتَخَطَّاهم به، وَأنَالُ به الأثَرَةَ الخالدةَ في نفوسهم، ولو أَرَدتُ ذلك منهم، لمَا كَانَ بيني وبينَ خاصَّتهم -إن أردتُ الخاصَّة- إلَّا ثَلاثُ كلماتٍ: السُّخريةُ بالأديان، واحتقارُ تاريخ المَشرق، والقولُ بتبرُّج المرأة وسُفورِها؛ ولا كانَ بيني وبينَ عامَّتِهم -إنْ أردتُ العامَّة- إلَّا ثلاثٌ أخرىٰ: سَبُّ الكفار، وعبادةُ الأضرحة، والجمودُ علىٰ كل قديمٍ.

وعندي أنَّ الكاتبَ المسخَّر الَّذي لا شأنَ له إلَّا أنْ يكتبَ ما يُفْضي به النَّاسُ إليه، صَانعٌ غيرُ كَاتِبٍ، ومُتَرجِمٌ غيرُ قائلٍ، ولا فرقَ بينه وبين

(١) **تزدلف إليه**: تدنو وتتقدم منه. «المعجم الوسيط» مادة (زلف).

صائغ الذَّهب وثاقِب اللؤلؤ، كلاهما ينظمُ ما لا يملكُ، ويَتَصرَّفُ فيما لا شأنَ له فيه.

علَىٰ أنَّ خيرَ ما ينتفعُ به الأديبُ من أدبه أنْ يترك يومَ وداعِهِ لهذه الدنيا صفحةً يقرأ فيها النَّاظِرونَ في تاريخِهِ مِن بعده مِن أبنائه وشيعته وذَوي رَحِمهِ صورةَ نفسه، ومضطرَبَ آماله، ومَسْرَحَ أحلامِهِ، فَإِذَا كَانَ كلُّ شأنِهِ في حياتِهِ أنْ يكونَ مرآةً تَتقلَّبُ فيها مُخْتلِفاتُ الصُّور، أو وَفيعةً[١] تَتَمسَّحُ بها أعْوَادُ الأقلام؛ كان خُسْرانُهُ عظيمًا، لا يَقُومُ به كلُّ ما يَربح الرَّابحونَ من مالٍ، أو يؤثلون من جاهٍ، والتَّاريخُ أَضَنُّ من أنْ يحفظَ بين دَفَّتيْهِ من مجدِ الأدباء إلَّا مجدَ أولئك الَّذين يُودِعون نُفُوسَهم صَفَحاتِ كُتُبهم، ثمَّ يَمُوتونَ وقَدْ تركوها نقيَّةً بيضاءَ من بعدهم. وحياةُ الكاتبِ بحياةِ كِتابَتِهِ في نفوس قُرَّائها، ولا تَحيا كتابةُ كاتبٍ سيعلمُ النَّاسُ من أمرهِ -بعدَ قَليلٍ- أنه يَكذِبُهم عن نفسه، وعن أنفسهم، وأنه رَوَّاغٌ مُتخلِّجٌ، يَأْمُرهم اليومَ بما يَنْهاهم عنه غدًا، ويَرَىٰ في ساعةٍ ما لا يرىٰ في أخرىٰ، وأنه يَسْتبكي ولا يبكي، ويَسْتَرحمُ ولا يَرْحم، ويحرِّكُ النُّفوس وهو ساكنٌ، ويثيرُ الثائرة وهو سالمٌ، فَيستريبونَ به، ويَحارونَ في مصادرِه ومواردِه، ثم يَحْملون أَمْرَهُ علىٰ شرِّ حاليهِ، ثم ينقطعُ ما بينهم وبينَهُ.

---

(١) وفيعة: خِرْقة يُمسحُ بها القلم. «القاموس المحيط» مادة (وفع).

والبَيَانُ ليس سِلْعةً من السِّلع الَّتي يتنقلُ بها تجارُها من سوقٍ إلىٰ سوقٍ، ومن حانوتٍ إلىٰ آخَر، ولكنه حركةٌ طبيعيَّة من حركات النَّفس تصدرُ عنها عفوًا بلا تَكلُّفٍ، ولا تعمل صدور النور عن الشَّمس، والصَّدىٰ عن الصَّوت، والأريج عن الزَّهر؛ وشُعاعٌ لامعٌ يشرقُ في نفس الأديب إشراقَ المِصْباحِ في زجاجتِهِ؛ ويَنبوعٌ ثَرَّارٌ[1] يَتفجَّرُ في صدره، ثمَّ يفيضُ علىٰ أَسَلاتِ قلمِهِ، وهو أمرٌ وراءَ العِلْمِ واللُّغةِ والمحفوظاتِ والمقروءاتِ والقواعدِ والحدود، ولَوْ أنَّ أمرًا من ذلك كائنٌ لكانَ أبرعُ الكُتاب، وأشعرُ الشُّعراء، أغزرَهم مادَّةً في العلم، أو أعلمَهم بقواعدِ اللُّغة، أَوْ أَجْمَعَهم لمُتونها، أو أحفظهم لفَصيح القول ورائعِهِ. أمَّا العِلْمُ فأَكْثَرُ المُؤلِّفين الَّذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفارَ الَّتي نقرؤها في الشَّريعة والحِكمة والمنطق وغيرِها كانوا علماء، ما يتدافعُ في ذلك اثنان، وها قد مَرَّتْ علينا وعلىٰ ما تركوه بينَ أيدينا القرونُ والحِقَبُ، وأكثَرُنا عَاجزٌ عن فَهْم أكثرِ ما كانوا يكتبونَ. وأمَّا المحفوظاتُ فَمَا نَعْلمُ أحدًا أحفظَ لكتابِ الله من جماعةِ القُرَّاء، ولا أحفظَ للحديثِ من الفُقَهاء، ولا أَقَلَّ منهم إلمامًا بالأدب، ولا أبعد منهم عنه مكانًا، وأمَّا اللُّغةُ فما عَرَفنا بينَ المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ من رُوَاتها وحُفَّاظها، والمُتوفِّرينَ علىٰ تدوينها وتحقيقها، والمُنقطِعينَ لدرس قواعِدِها وفنونها، مَنْ عُرِفَتْ له البراعةُ والتفوُّقُ في تحبير

---

(١) ثرَّار: غزير. «القاموس المحيط» مادة (ثرر).

الرَّسائل، أو قرض الشِّعر، أو القوَّةُ القلميَّةُ في التَّصنيف في غير ما أخذوا أنفسَهُم به. وكانَ الخليلُ بنُ أحمدَ إذا سُئِلَ عن نَظْم الشِّعر قال: «يَأْبَاني جيِّدُه، وآبي رَديئَهُ»، وَكانَ الأصمعيُّ يحفظُ ثُلثَ اللُّغة، وأبو زيد الأنْصاري يحفظُ نصفَها، وأبو مالك الأعرابيُّ يحفظُها كلَّها، وكذلك كان شأنُ النَّضر بن شُمَيْل، وأبي عُبَيْدَةَ، وابن دُرَيْد والأزْهَريِّ والصَّاغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النِّهاية والجَوْهَريِّ والفيروز آبادي، وأمثالهم من عُلماء اللُّغة والنَّحو، وما سَمعنا لوَاحِدٍ منهم في إحْدىٰ الصِّنَاعتين[١] شيئًا مَذكورًا. وقال أبو العباس المُبرِّد في بعض أحاديثه: «لا أحتاجُ إلىٰ وَصْف نفسي؛ لعِلْمِ النَّاس بي أنه ليس أَحدٌ من الخافِقَيْن تختلجُ في نفسه مشكلةٌ إلَّا لقيني بها، وأعدني لها، فأنا عالم ومتعلِّم، وحافظٌ ودارس، لا يَخْفىٰ عليَّ مُشتَبِهٌ من الشِّعر والنَّحو والكلام المَنْثور والخُطَب والرَّسائل، وربما احتجتُ إلىٰ اعتذارٍ من فلتةٍ أو التماس حاجة، فأَجْعَلُ المَعنىٰ الَّذي أَقْصِدُه نُصْبَ عينيَّ، ثمَّ لا أَجدُ سبيلًا إلىٰ التعبير عنهُ بيَدٍ ولا لِسَانٍ، ولقد بَلَغني أنْ عُبَيْدَ الله بنَ سُلَيمان ذَكَرني بِجَميل، فحاولت أنْ أكتبَ إليه رُقعةً أشكُره فيها، وأعرض بعض أموري، فأتعبتُ نفسي يومًا في ذلك، فلم أقدر علىٰ ما أرتضيه منها، وكُنْتُ أحاولُ الإفصاحَ عمَّا في نفسي، فينصرفُ لساني إلىٰ غيره». اهـ.

---

(١) **الصناعتان**: يقصد الشعر والنثر، وهما من فنون الأدب.

بل لو شئتَ لقلتَ: إنه ما أفسدَ علىٰ المُتَنَبِّي وأبي تمام كثيرًا من شعرهما، ولا علىٰ المعري كثيرًا من مَنْظومِهِ ومَنْثورِهِ، ولا علىٰ الحريري مقاماتِه، ولا علىٰ ابن دُرَيْد مقصورَتَهُ، إلَّا غَلَبَةُ اللُّغة عليهم، وَاسْتهتَارُهم بها، وشَغَفُهم بتَدْوينها في كل ما يكتبون؛ فقد كانوا هم وأمثالُهم من حبائس[1] اللُّغة وأنضائها[2] في كثيرٍ من مواقفهم يؤلِّفون ويدوِّنون من حيثُ يظنون أنهم يَنْظِمونَ أو يكتبونَ، ولَا تَزالُ نفسي تَشْتملُ علىٰ لَوْعةٍ من الحزن لا تفارقها حتىٰ الموتِ، كلما ذكرتُ أنَّ الأدبَ العربي كان يستطيعُ أنْ يكونَ خيرًا مما كان؛ لو أنَّ الله كتب لِلُزوميات المَعَرِّي النَّجاةَ من قبضةِ اللغة، وأَسْر الالتزامِ، وَإنَّك لا تَكَادُ تَرَىٰ اليومَ من شُعَراء هذا العصر وكُتَّابه الَّذين يأخُذُونَ بزِمَامِ هذا المجتمع العربي، ويُقِيمُونَ عَالَمهُ ويُقْعدونهُ بقُوَّتهم القلميَّة في شُؤونِهِ السِّياسيَّةِ، والاجتماعيَّةِ، والأَدبيَّةِ كافَّة، مَنْ يُعَدُّ من حُفَّاظ اللُّغة العربيَّة وثِقاتِها، أو مَنْ يَسْلَمُ له مَقالٌ من مَأخَذٍ لنحويٍّ، أو مَغْمزٍ لِلُغَويٍّ، وهم علىٰ ذلك عندي أَدْخَلُ في باب البَيان، وأَلْصَقُ به، وأَمَسُّ به رَحِمًا من أُولَئك الَّذين يستظهرونَ متونَ اللُّغة، ويحفظونَ دقائقَها، ويحيطونَ بمترادفها ومتوارِدِها، ويَتباصرونَ بشاذِّها وغريبها،

---

(١) **الحبائس**: جمع حُباسة، وهو شبه حوضٍ يُجمعُ فيه الماء. «المعجم الوسيط» مادة (حبس).

(٢) **أنضائها**: جمع نِضْو، وهو المهزول من الحيوان. «المعجم الوسيط» مادة (نضو).

ويحملونَ في صدورهم ما دقَّ وجَلَّ من مسائل نَحْوها وتصريفها، فإذا عَرَضَ لهم غَرَضٌ من الأغراض في أيِّ شأنٍ من شؤون حياتهم، وأرادوا أنفسَهم علىٰ الإفضاء به، ارتج[١] عليهم فأغلقوا، أو تقعَّروا وتشدَّقوا، فكأنَّهم لم ينطِقوا. والفَرقُ بين الأُدَباء واللُّغويينَ أنَّ الأوَّلينَ كَاتِبونَ، والآخرينَ مُصحِّحونَ، فَمَثلُهما كمثل النَّسَّاج وعامِله، هذا ينسجُ الثَّوبَ، وهذا يلتقطُ زوائدَهُ، ويمسحُ عنه زئبـرَهُ[٢]، أو كَمَثل الشَّاعر والعَرُوضِي، هذا يَنْظِمُ الشِّعرَ، وهذا يعرضُه علىٰ تفاعيله وموازينه.

وليسَ البيانُ ذَهابَ كلمةٍ، ومجيءَ أخرىٰ، ولا دخول حرفٍ، وخروجَ آخرَ، وإنَّما هو النَّظمُ والنَّسقُ، والانسجامُ والاطرادُ، والماءُ والرَّونق، واستقامةُ الغرض وتطبيقُ المفصل، والأخذُ بالنُّفوس، وامتلاكُ أَزِمَّةِ الهواء، فإنْ صحَّ ذلك لامرئٍ فهو الكاتبُ القدير، أو الشَّاعرُ الجَليل، فَإنْ زلَّتْ به قدمٌ في وضع حرفٍ مكانَ حرفٍ، أو غلبَهُ علىٰ لسانه دخيلٌ، أو خرجَ من يده أصيلٌ، أَوْ كانَ ممَّن يفوتُهُ العِلمُ ببعض قواعِد اللغة، أو بعض وُجُوهِ الاستعمال فيها، كَانَ ذلك عيبًا لَاحِقًا بعلمه أو بحافظتِهِ، لا ببيانه وفصاحَتِه. ومتىٰ صَدَرَ القائلُ في قوله عن سَجيَّةٍ وطَبْع؛ أصبحَ شأنُه

---

(١) **أرتج عليهم**: استغلق عليهم الكلام. «المعجم الوسيط» مادة (رتج).

(٢) **زئبره**: الزئبر: الزَّغَبُ والوبَرُ الذي يعلو المنسوجات. «المعجم الوسيط» مادة (زأب).

شبيهًا بشأن العرب الأوَّلين، وكان من شأنهم أنْ يسبقَهم إلىٰ كلامِهم الخَطأ اللَّفظيُّ في بعض الأحيان، وكانَ السَّببُ في ذلك -كما يقول أبو عليٍّ الفارسي- أنهم كَانتْ تهجُم بهم طباعُهُم علىٰ ما ينطِقونَ به، فربما استهواهم الشَّيءُ فَزَاغوا به عن القَصد من حيثُ لا يَشْعرونَ، وَكما أنَّ الجسمَ لا يغيرُ صورتَهُ، ولا يَقلبُ سَحْنَتَهُ أنْ تطيرَ منه ذرَّة، وتحلَّ أخرىٰ محلَّها لِتُمَثِّلَها، كذلك لا يُغيِّرُ صورةَ الكلام، ولَا يَذهبُ بنسقِهِ خروجُ أصيلٍ، أو دخولُ دخيلٍ، ولقد قيلَ لأحد الكُتاب الإنجليز: «نراكَ كثيرَ الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجلٌ لَحَّانة[1] لا يحفِل بقواعدِ اللُّغة!»، فأجاب: «إنَّ سطرًا واحدًا مما يكتبه «كبلنغ» أثمنُ عندي من قوانين اللُّغة جميعها، وليس من الرَّأي أَنْ أحرمَ نفسي التَّمتُّعَ بأدبه إكرامًا لسَوَادِ عُيُون الغراماطيق الإنجليزيِّ»!.

وفَضْلُ الأُدَباءِ علىٰ اللُّغة في سَيْرورتِها وذُيُوعِها وتَداوُلها وخلودِها أكبرُ من فَضْل اللُّغويِّين علَيها في ذلك؛ لأنَّهم هم الَّذينَ يُمهِّدونَ سبلَها، ويُعبِّدون[2] طُرقَها، ويَسْتدنونَ نافِرَها، ويَجمعونَ شارِدها، ويَنْظمونَ لآلئها نظمَ الثاقب لآلئه في السِّلك، فيأخذها النَّاسُ عنهم من أخْصرِ

(١) **لحَّانة:** كثير الخطأ. «لسان العرب» مادة (لحن).

(٢) **يعبِّدون:** يذلِّلون. «مختار الصحاح» مادة (عبد).

الطُّرق وأقربِها، وأشهاها إلىٰ النَّفس، وأعلَقِها بالقلب، وقَليلٌ من النَّاس مَنْ يأخذُ مادته اللُّغويَّة من معاجم اللُّغة، أو يكتسبُ مَلَكَةَ الإعرابِ من كتب النَّحو والتَّصريف، وما كَانتِ اللُّغةُ عَدُوَّةً للأدب، ولَا كَانَ الأدَبُ عَدُوًّا لها، بل هي أساسهُ وقِوامُه الَّذي يقومُ به، وَلكنَّ المُشتغِلين بها، والمُتوَفِّرين علىٰ دراستها، والمُنقطِعينَ لاسْتِظْهارِها، والنَّظرِ في دَقَائقها، والتَّعمُّقِ في أَطْوائها، لا يَزالُ يَغْلبُ علَيهم الوَلَعُ بها، والفَناءُ فيها حتَّىٰ تُصبحَ في نَظَرهم مَقْصِدًا من المقاصِدِ، لا وسيلةً من الوَسائل.

وللبَيَانِ وَسائلُ كثيرةٌ غير وسيلةِ اللُّغة، فَمَنْ لا يأخذ نفسَه بجميع وسائله، لا يصلُ إليه، والتربيةُ العلميَّةُ كالتربية الجسميَّةِ؛ فكما أنَّ الطِّفلَ لا ينمو جسمُهُ، ولا ينشطُ، ولا تتبسَّطُ أعضاؤه، ولا تنتشرُ القوَّةُ في أعصابِهِ إلَّا إذا نشأ في لَهوِهِ ولعبِهِ، وقفزِه ووثبِه، كذلك الكاتبُ لا تنمو مَلَكةُ الفَصاحةِ في لسانه، ولا تأخذُ مكانها من نفسِه إلَّا إذا ملك الحريَّةَ في التَّصرُّف، والافتنانَ والذَّهابَ في مَذَاهبِ القول ومَنَاحيهِ كَما يَشاءُ، وَحَيث يشاء دونَ أن يسيطرَ عليه في ذَلكَ مسيطِرٌ إلَّا طبعُهُ وَسَجيَّـتُهُ. واللُّغوِيُّ لا يَزالُ يَحُوطُ نفسَهُ بالحذرِ والخوفِ، والوَسَاوِس والبَلابِلِ(١)، فَإنْ مَشَىٰ خُيِّلَ إليه أنه يمشي

(١) **البلابل**: جمع بَلبال وهو شدة الهمِّ والوسواس. «المعجم الوسيط» مادة (بلل).

علىٰ رَملةٍ مَيْثاءَ[١]، وَإنْ تَحرَّك خُيِّلَ إليه أنَّ تحتَ قدمَيْهِ حُفرةً جَوفاءَ، حتىٰ يقعدَ به خوفُهُ ووَسْواسُهُ عن الغَايَةِ الَّتي يريدُ الوُصُولَ إليها. علىٰ أنَّ الكَاتِبَ لا يبلغُ مَرْتبةَ الكِتَابَةِ إلا إذَا نَظَرَ إلىٰ الألفاظِ بالعَين الَّتي يَجبُ أنْ ينظرَ بها إليها، فلم يَتَجاوزْ بها منزلِتَها الطَّبيعيةَ الَّتي تنزلُها من المعاني، وهي أَنْ تَكُونَ خدَمًا لها وخَوَلًا، وأثوابًا وظُروفًا، فإذا كَتبَ، تركها وشَأنها، وأغفلَ أمْرَها حتىٰ تأتي بها المعاني وتقتادَها طائعةً مُرْغَمة. والمعاني هي جوهرُ الكَلام ولُبُّه، ومِزاجُه وقِوامُه، فما شغل الكاتبُ من همته بغيرها، أزري بها حتىٰ تُفلتَ من يَده، فيُفْلت من يَده كلُّ شيءٍ.

وَبَعْدُ، فالعِلْمُ والمَحفوظاتُ والمَقروءاتُ والمادَّةُ اللُّغويَّة، والقواعدُ النَّحْويَّة إنَّما هي أعوانُ الكاتبِ علىٰ الكِتَابةِ، ووسائِلُه إليها، فالجاهلُ لا يكتبُ شيئًا؛ لأنه لا يعرفُ شيئًا، ومَنْ لا يضطلعُ بأساليبِ العرب ومَناحيها في مَنْظومها ومَنْثورها، سَرَت العُجْمةُ[٢] إلىٰ لسانه، أو غَلبتْهُ علىٰ أمْرِهِ، ومَنْ قلَّ مَحْفوظُهُ من المادَّةِ اللُّغويَّةِ، قَصُرَتْ يدُه عن

---

(١) **ميثاء**: لينة سهلة. «لسان العرب» مادة (ميث).

(٢) **العُجْمة**: أي لا يبين كلامه. «مختار الصحاح» مادة (عجم).

تناوُل جميع ما يريدُ تناوُلَهُ من المَعاني، ومن جَهِلَ قانونَ اللُّغة، أغمْضَ الأغراضَ وأبْهَمَها، أو شَوَّهَ جمالَ الألفاظِ وَهَجَّنها، ولكنها ليستْ هي جوهرَ الفَصاحة، ولا حقيقةَ البيَان، فأكثرُ القَائِمِينَ عليها، والمضطلعين بها، لا يكتبونَ، ولا ينظمونَ، فَإِنْ فعلوا، كانَ غايةُ إحسان المُحِسن منهم أنْ يكونَ كصانع التَّماثيل الَّذي يصبُّ في قالَبِهِ تمثالًا سوِيًّا مُتناسِبَ الأعْضاءِ، مُسْتوِيَ الخَلْق إلَّا أنه لا رُوحَ فيه، ولا جمالَ له؛ لأنه ينقصه بعدَ ذلك كلِّه أمرٌ هو سرُّ البيان ولُبُّه، وهو الذَّوْقُ النَّفسيُّ، والفطرةُ السَّليمة، وأنَّىٰ لهم ذلك، وما دَخَلتِ الفلسفةُ أيًّا كان نوْعُها علىٰ عَمَلٍ من أعمال الفطرة إلا أَفْسَدَتْهُ، وما خالطَ التكلُّفُ عملًا من أعمال الذَّوق إلَّا شوَّهَ وجهَهُ، وذهبَ بحسنِه وروائِهِ!

ولقَد قرأتُ ما شئت من منثورِ العَرب ومنظومِها، في حاضِرها وماضيها، قراءةَ المُتثَبت المُسْتبصر، فَرَأيتُ أنَّ الأَحَاديثَ ثَلاثةٌ: حديثُ اللِّسان، وحديثُ العقل، وحديثُ القلب. فَأمَّا حَديثُ اللِّسان، فَهُو تلك العباراتُ المُنمَّقة، والجُمَلُ المُزخْرَفة، أو تلك الكلماتُ الجَامدةُ الجافَّة الَّتي لا يعني صاحبَها منها سوىٰ صورتِها اللَّفظيَّة، فَإنْ كانَ لُغويًّا، تَقعَّر وتَشدَّق، وتكلَّفَ وأغربَ حتىٰ يأتيَكَ

بشيءٍ خَيْرُ ما يصفُهُ به الواصفُ أنه مَتْنٌ مشوشٌ من مُتون اللُّغة، لا فصولَ له، ولا أبوابَ. وَإنْ كانَ بديعيًّا جَنَّسَ ورَصَّعَ وقابلَ ووَشَّعَ وَزاوَجَ، وافتنَّ في الإتيانِ بالكلمةِ؛ مهمَلةٌ كلُّها أو مُعْجمَةٌ كلُّها، أو رَاوَحَ بين الإِهْمال والإِعْجام، فيُخيَّل إليكَ وأنتَ تَراهُ يَنْطِقُ بما يَنْطِقُ به كأنما هو يصنعُهُ بيديه صُنْعًا، أو يُصفِّفه تصفيفًا، ثم لا يُبَالي بعد ذلك باستقامةِ المعنىٰ في ذاته، ولا بِمقدار ما لَهُ من الأثرِ في نَفْس السَّامع، وهذا الحَديثُ هو أَسْقَطُ الأَحَادِيثِ الثَّلاثة وأدْناها، وأَجْدَرُها أنْ ينظمَهُ النَّاظمُ في سِلك الصِّناعات اليدويَّةِ الَّتي لا دخلَ للعقل، ولا للفهم في شيءٍ منها، وأنْ ينظِمَ صاحِبَها في سِلك جماعةِ الصَّيادلة الَّذين لا شأنَ لهم إلَّا تحليلُ الموادِّ وتركيبُها، وجمعُها وتفريقُها، والمزاوجةُ بينَ مقاديرِها، والموازنةُ بينَ أثقالها، من حيثُ لا يَكُونُ لقوَّة التَّصوُّر، ولا لذَكاء القلبِ، دَخْلٌ في هذا، أو ذاك.

وَأمَّا حَديثُ العَقْل، فهو تلك المَعَانِي الَّتي ينحتها النَّاحِتونَ من أذهانهم نحتًا، ويَقْتطعونَها منها اقتطاعًا، ويَذْهبونَ فيها مذاهبَ المُعَاياةِ والتَّحدِّي والتَّعمُّقِ والإغراب، ويسمُّونها تارَةً تخييلًا، وأخرىٰ غُلُوًّا، وأخرىٰ حُسْنَ تَعْليلٍ، إلىٰ كَثِيرٍ من أمثال هذه الأسماءِ والألْقَابِ الَّتي

تتفرَّق ما تتفرَّقُ، ثم يجمعُها شيءٌ واحدٌ هو الكَذِبُ والإحالة، وآيةُ ما بينَك وبينها أنَّك إذا رأيتها، شَعُرتَ بأنك ترىٰ أمامك شيئًا غريبًا عن نفسك، وعن نفس صاحبه، وعن نُفوس النَّاس جميعًا، وأنَّ صاحِبَهُ لا يريدُ إلَّا أنْ يُطرفَك، أو يُضْحككَ، أو يُدْهشَك، أو يُعجِّبَك من ذكائه وفِطْنَتِهِ، واقتدارِهِ علىٰ تصْويرِ ما لا يُتصوَّرُ، وإيجادِ ما لا يَكُونُ، وهو أمرٌ لا علاقةَ له بجوْهرِ الشِّعر، ولا حقيقةِ الكِتابة، وربما انعكسَ عليه حتىٰ غَرَضُهُ هذا، فنفَّرك وأكدَّك، وملأ قلبَكَ غَيْظًا وقيحًا، كأن يقولَ:

لَـوْ لَـمْ تكـن نِيَّـةُ الجَـوْزاء خِدْمَتَـهُ
لَمَـا رأيـتَ علَيهـا عِقْـدَ مُنْتَطـقِ

فَإِنَّ الجَوْزاءَ لا تنتطق، ولَوْ كَانَ هذا الَّذي نراهُ يستدير بها نطاقًا، فهو شيءٌ مُتَّصلٌ بها قبل أن يُخْلقَ الممدوحُ، ويُخلقَ آباؤه الأوَّلونَ والآخِرونَ إلىٰ آدمَ وحوَّاءَ. والكواكبُ ليستْ أشخاصًا أحياءً يتخذُ منها النَّاسُ خدمًا وخَوَلًا لأنفسهم، ولو كَانتْ كذلك لاستحالَ عليها -وهي من سُكَّان السماء- أنْ تهبطَ إلىٰ الأرض لتخدمَ سكانها، فقَدْ كَذَبَ وأحالَ أربعَ مَرَّاتٍ في بيتٍ واحدٍ، ثم عَجَزَ بعد هذا كلِّه أنْ يتركَ في نفس السَّامع صورةً تُمثِّلُ جلال ممدوحِه، وعِظَمَ شأنهِ؛ فهو في الحقيقة إنما

يُرِيدُ ببيتِهِ هذا أنْ يَمْتدِحَ نفسَهُ بالإبداع وقوَّةِ التَّخيُّل، لا أنْ يمتدحَ ممدوحَهُ بِرِفعةِ الشَّأن، وعُلُوِّ المَقام.

أو يقولُ:

مـــا بـــه قَتْـــلُ أَعَاديـــهِ ولكِـــنْ

يَتَّقـي إخْـلافَ مـا تَرْجـو الـذِّئابُ

فَإنَّ الَّذي يَحْملُ في صَدْرِهِ قلبًا رحيمًا مُشْفقًا علىٰ الذِّئابِ من الجوع، مُسْتعظِمًا أن يُخْلِفَها ما عَوَّدَها إيَّاهُ من طعامٍ وشَرابٍ؛ لا يمكنُ أنْ يكونَ هو نفسُهُ ذئبًا ضاريًا يريقُ دماءَ النَّاس ويمزِّقُ أحْشاءَهم، ويقطعُ أوْصالَهم؛ ليملأ بها بُطونَ الوحش. ولا يوجدُ بينَ الأسباب الَّتي تحملُ الناسَ علىٰ القتال سَببٌ يُشبهُ هذا السَّببَ الَّذي ذَكرَه، علىٰ أنَّ المُحسنَ لا يكونُ مُحْسنًا إلَّا إذا وَهَبَ ما يَهَبُ من ماله، ومن خزائن بيتِهِ، فأمَّا أن يُقتِّلَ النَّاسَ تَقتيلًا، وَيُمثِّلَ بهم ثم يُنْعِمَ بجُثَثهم علىٰ الجائعينَ والظِّماءِ من وُحوش الأرْض وذئابها، فذلِكَ شيءٌ هو بالجُنون أشْبَهُ منه بالإحْسانِ.

أو يقولُ:

لا يَـــذوقُ الإغْفـــاءَ إلَّا رَجـــاءَ

أنْ يَــرىٰ طَيْــفَ مُسْــتميح رَواحَــا

فَإِنَّ النَّوْمَ قِوَامُ الإنسانِ، وعِمَادُ حياتِهِ، ولازِمٌ من لوازِمِه اللاصِقَة به، أرادَ ذلك أم لم يُرِدْ؛ فإن كانَ لا بُدَّ من دخوله في باب الاخْتيارِ، فإنَّ من أبعدِ الأشياءِ عن التَّصوُّرِ والفَهْم أنْ يكونَ ما يحملُ الإنسانَ علىٰ طَلَب النَّوم رَجاؤه أنْ يَرَىٰ فيه الأحْلامَ والرُّؤَىٰ، فإنْ فعلَ فلا يدخلُ في بابِ أغراضِهِ وأمانيهِ أنْ ينامَ ليرىٰ خيالَ جماعةِ المُتَسوِّلينَ والمُتأكلينَ وهم ملءُ الأرْض، وهَباءُ الجوِّ، وأرْصادُ الأعتابِ، وأعقابُ الأبوابِ، لا تنفتحُ الأعينُ إلَّا عليهم، ولا تمتلئُ الأنظار إلَّا بهم، فهم لم يبلغوا في الضَّنِّ بأنفسهم، والعَزْفِ بها مَبْلغَ مَنْ لا يراهُ الرائي، ولا يعثرُ به إلَّا إذا ألقىٰ في طريقه حبائلَ الأحلام ليصطادَهُ بها.

أو يقولُ:

لَـم يَتَّخِـذْ وَلَـدًا إلَّا مُبالَغـةً
في صِدْقِ تَوْحيدِ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدَا

فإن الأولادَ لا يُتَّخذونَ اتِّخاذًا، وإنما يُنْعِمُ اللهُ بهم علىٰ من يَشاءُ من خلقهِ إنْعَامًا. وأكثر ما تقذفُ به الأرْحامُ من النَّسَمات إنما هو ثَمرةٌ من ثَمرات الحبِّ يأتي بها عفوًا، لا نَبْتَةٌ من نَبَاتِ الأرض يبذر الزُّرَّاع بذورَها

ليستنبتها، والله تعالىٰ غنيٌّ بربوبيَّته، ووُضُوح آثَارِهَا عَنْ الاستدلالِ علَيها بنُطْفةٍ يقذفها قَاذِفُها في بعض الأَرْحام، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ في إثبات رُبُوبِيَّتِهِ من دليلٍ يدُلُّ علىٰ مخالفتِهِ للحَوَادثِ في الصِّفَاتِ والأفْعَال، فَالأَدِلَّةُ علىٰ ذَلك كثيرةٌ لا يَضْبِطُها الحسابُ كثرةً، وربما كانَ أهونُها وأضعفُها أنه لا يَتَّخذُ ولدًا، وأنهم يَتَّخِذونَ، علَىٰ أنَّ المُتَّخِذينَ كثيرونَ قد ضاقَ بهم بطنُ الأرضِ وظَهْرُها، فالمَسْأَلةُ مَفْروغٌ منها قبلَ أن يُخْلَقَ هذا المَمْدوحُ، ويُخْلقَ ولدُهُ، فلَا فَضْلَ له في الإتيانِ بشيءٍ جديدٍ.

أو يقولُ:

وَمَــا ريــحُ الرِّيــاض لَهــا وَلَكِــنْ
كسَــاها دَفْــنُهُمْ في التُّــرْبِ طِيبَــا

فَإِنَّ الأَزْهَارَ الَّتي تَسْتمِدُّ حَياتَها ونَماءَها من جُثَثِ المَوْتىٰ وَرِمَمِهم لا يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ طَيِّبَةَ الرِّيح عَلَىٰ أنَّ الأَزْهَارَ مُرِيحةٌ قبلَ أنْ يُدفنَ هؤلاءِ المَوْتىٰ في قُبورِهم، فلم يَزِدْ في كلمتِه هذه علىٰ أنْ أتىٰ بخيالٍ ضَعِيفٍ مُبْتَذلٍ، هُوَ أَشْبَهُ الأشياءِ بخيال العامَّة الَّذين يَرْوْنَ أنَّ بعضْ الأزْهار ما خُلِقَ إلَّا إكْرامًا لبعض النَّبيِّينَ.

أو يقولُ:

تُتْلِـفُ فِي اليَـوْم بالهِبَـاتِ وفِي السَّـا

عَــةِ مـــا تَجْتَنيـــهِ فِي سَـــنَتِكَ

فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يصفَ ممدوحَهُ بالكَرم وَصْفًا فوقَ ما يَصفُ النَّاس، ويأتي في ذلك بما لم يأتِ به غيرُهُ؛ فأنزلَهُ منزلةَ مجانين المُسْرفينَ الَّذينَ لا يُحْسنونَ الموازنةَ بينَ أرزاقِهم ونفَقَاتِهِمْ، ولو تَقدَّمتْ هذه التُّهمةُ بهذه الصُّورة إلىٰ قاضٍ من قُضاةِ المال، لَمَا كانَ له بُدٌّ من الحَجْرِ عليه، والقُضاةُ يَرْضَوْنَ في مثل هذه الأحكام بدونِ إنفاقِ دَخْل السَّنة جميعِها في ساعةٍ واحِدةٍ، أو يومٍ وَاحِدٍ.

أو يقولُ:

وَلَمَّـا ضـاقَ بَطْـنُ الأَرْض عَـنْ أَنْ

يَضُـمَّ عُـلاك مـن بَعْـدِ المَمـاتِ

أَصَـاروا الجَـوَّ قَبْـرَك واسْتَعاضـوا

عَـن الأَكْفـان ثَـوْبَ السَّـافِيَاتِ

فَإِنَّ شَيئًا من ذَلكَ لم يَكُنْ؛ فالقبرُ لا يَضيقُ بأَحَد، والجَوُّ لا يكونُ قبرًا، والرِّيحُ ليستْ كَفنًا، والرَّجلُ لا يَزالُ مَصْلوبًا غيرَ مقبورٍ، ولا يَزالُ عارِيًا غيرَ مُدْرَجٍ في كَفَنٍ.

وأَمَّا حَديثُ القَلْبِ، فهو ذلك المنثورُ أو المنظومُ الَّذي تسمعُهُ، فتَشْعرُ أنَّ صَاحِبَهُ قد جلسَ بجانبك ليتحدَّثَ إليك كما يتحدَّثُ الجليسُ إلىٰ جليسِهِ، أو ليصوِّرَ لكَ ما لا تعرفُ من مشاهدِ الكَوْن، أو سرائِر القُلوب، أو ليُفضيَ إليكَ بغَرَض من أغراض نفسِه، أو لينفِّسَ عنكَ كُرْبَةً من كُرَبِ نفسِكَ، أو ليُوَافِيَ رغبتَكَ في الإفصاح عَنْ مَعْنًىٰ من المَعَاني الدَّقِيقَةِ، الَّتي تَعْتَلجُ[1] في صَدْرِكَ، ثمَّ يَتكاءَدك[2] الإفْصاحُ عنها، من حَيثُ لا يَكُونُ للصِّناعَةِ اللَّفظيَّةِ، ولا الفلسفةِ الذِّهنيَّة دَخْلٌ في هذا أو ذاك حتَّىٰ ترىٰ حِجابَ اللَّفظِ قد رَقَّ بينَ يَديْكَ دونَ المعنىٰ حتَّىٰ يَفْنىٰ كما تَفْنىٰ الكأسُ الصَّافيةُ دونَ ما تَشْتملُ عليه من الخمر، فَإذَا الخَمْرُ قَائمةً بغير إنَاءٍ، أو كمَا تَفْنىٰ صَفْحةُ المِرْآةِ الصقيلة بين يَدَي النَّاظر فيها، فلا يرَىٰ إلَّا صورَتَهُ مَاثلةً بينَ يَديهِ، ولا لوح هناك، ولا زجاج، وهو أرْقَىٰ الأحَاديثِ الثَّلاثة وأشرَفُها، وهو الَّذي يريدُه المُريدونَ مهما اختلفت عباراتُهُم، وتَنوَّعتْ أساليبُهُم من تعريفِ كلمة البيان.

---

(١) **تعتلج**: تتجمع. «المعجم الوسيط» مادة (علج).

(٢) **يتكاءدك**: يشق عليك ويصعب. «المعجم الوسيط» مادة (كأد).

وَلَقَدْ كَانَ من أكبَر ما أعَانني علَىٰ أَمْري في كِتَابةِ رسائل النَّظرات: أشياءُ أربعة أنا ذَاكِرُها لَعلَّ المُتأدِّبَ يَجدُ في شيءٍ منها ما ينتفعُ به في أدبه:

«أوَّلها»: أنِّي ما كنت أحتفلُ من بين تلك الأحاديثِ الثَّلاثة بحديثِ اللِّسان، ولا حديثِ العقل، أي أنني ما كنتُ أتكلَّفُ لفظًا غيرَ اللَّفظ الَّذي يقتادُهُ المعنىٰ ويتطلَّبُهُ، ولا أُفتِّشُ عن مَعْنًىٰ غير المعنىٰ الطَّبيعي القائم في نفسي، بل كنتُ أُحدِّثُ الناسَ بقلمي كما أُحدِّثُهم بلساني، فإذا جَلستُ إلىٰ مكتبتي، خُيِّلَ إليَّ أنَّ بين يديَّ رجلًا من عامَّة النَّاس مُقْبِلًا عَلَيَّ بوجهِهِ، وأنَّ من أشْهَىٰ الأشياءِ وآثرها في نفسي ألَّا أترك صغيرًا ولا كبيرًا ممَّا يجولُ بخاطري حتَّىٰ أفضيَ به إليه، فلا أزالُ أتلمَّسُ الحيلةَ إلىٰ ذلك، ولا أزالُ أتَأتَّىٰ إليه بجميع الوسائل، وأُلِحُّ في ذلك إلحاحَ المُشْفِقِ المُجِدِّ حتَّىٰ أَظُنَّ أنِّي قد بلغتُ من ذلك ما أريدُ، فلا أُقيِّد نفسي بوضع مُقدِّمةِ المَوْضوع في أوَّله، ولا سَرْدِ البراهين علىٰ الصُّورةِ المنطقيَّةِ المَعْروفة، ولا التزامِ استعمالِ الكلماتِ الفنيَّة التزامًا مُطَّرِدًا؛ إبقاءً علىٰ نشاطِه وأجمامهِ[1]، وإشفاقًا عليه أنْ يملَّ ويسأمَ، فينصرفَ عن سماع الحديثِ، أو يسمَعَهُ فلا ينتفعَ به.

---

(١) إجمامه: راحته. «لسان العرب» مادة (جمم).

«وثانيها»: أني ما كنتُ أحملُ نفسي علىٰ الكتابةِ حَمْلًا، ولا أجلسُ إلىٰ مكتبتي مُطْرِقًا مُفكِّرًا ماذا أكتبُ اليومَ، وأيُّ المَوْضُوعاتِ أعْجَبُ وألَذُّ وأشْوَقُ، وأيُّها أعْلَقُ بالنُّفوس، وألْصَقُ بالقلوبِ؟ بَلْ كنتُ أرَىٰ فأُفكِّرُ، فأكتبُ فأنشرُ ما أكتبُ فأُرْضي النَّاسَ مرَّةً، وأُسْخِطُهُم أخْرىٰ من حَيْثُ لا أَتَعمَّدُ سُخْطَهُم، ولا أتَطلَّبُ رِضَاهُم.

«وَثَالثها»: أَنِّي ما كنتُ أكتبُ حقيقةً غيرَ مشوبةٍ بخيالٍ، ولا خيالًا غيرَ مرتكزٍ علىٰ حقيقةٍ؛ لأني كُنْتُ أعلمُ أنَّ الحقيقةَ المجرَّدةَ من الخيال لا تأخُذُ من نفسِ السَّامع مأخَذًا، ولا تتركُ في قلبه أثرًا، وأَحْسَبُ أنَّ السَّببَ في ذلك أنَّ أكثرَ ما تَشْتَمِلُ عليه النُّفوسُ من العَقَائد والمَذَاهِبِ، والآراءِ والأَخْلَاق، والخواطِرِ والتَّصوُّراتِ، إنَّما هو أثرٌ من آثارِ الخيالاتِ الذِّهنيَّة الَّتي تتراءىٰ في سماء الفِكْرِ، ثم لَا تزالُ بها الأيامُ تَكْسوها طَبَقةً بعدَ طَبقَةٍ من غُبَار القَدَم حتَّىٰ تُصْبحَ حَقيقةً من الحقائق الثَّابتةِ في الأَذْهَانِ، وكَمَا أنَّ الحديدَ لا يَفِلُّهُ إلَّا الحديدُ، واللَّونُ لا يذهبُ به إلَّا لونٌ غيرُهُ، كذلك الخيالُ لا يذهب به ولا يزعجهُ من مكانه إلَّا الخيالُ. وللخيال الأثرُ الأعْظَمُ في تكوين هذا المجتمَع الإنسانيِّ وتكييفِهِ بالصُّورة الَّتي يريدُها، فلولا خيالُ الشِّعر ما هاج الوجْدُ في قلب العاشِق، ولولا خيالُ الشَّرف ما هلكَ الجنديُّ في ساحة الحربِ، ولولا خيالُ الذِّكْرىٰ ما اخْتُرِعَتِ المُختَرَعاتُ، ولا ابْتُدِعَت المُبتدَعاتُ، ولولا خيالُ الرَّحمة ما عطف غنيٌّ علىٰ فقيرٍ، ولا حَنا كبيرٌ علىٰ صغيرٍ، كما كُنْتُ أعلمُ أنَّ

الخيالَ غيرَ المُرْتكِز علىٰ الحَقيقة إنَّما هو هَبْوَةٌ طَائرةٌ من هَبَواتِ الجوِّ لَا تَهْبطُ أرضًا، ولا تصعدُ إلىٰ سماءٍ.

«ورابعها»: أنِّي كنتُ أكتبُ للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمعَ منهم: «أنتَ أحسنتَ»، بل لِأَجِدَ في نُفُوسهم أثرًا ممَّا كتبتُ. والنَّاسُ -كما قُلْتُ في بعض رسائلي- خاصَّة وعامَّة؛ أمَّا خاصَّتُهم فلا شأنَ لي معهم، ولا علاقةَ لي بهم، ولا دخلَ لكَلِمَةٍ من كلماتي في شأنٍ من شُؤُونِهم، فلا أفرَح بِرِضَاهُمْ، ولا أجزَع لسَخَطِهِمْ؛ لِأَنِّي لم أَكْتُبْ لهم، ولم أَتَحدَّثْ مَعَهم، ولم أُشْهِدْهم أمري، ولم أحضِرْهم عملي، بل أنا أتجنَّبُ جهد المُسْتَطاع أَنْ أَسْتَمعَ منهم شيئًا ممَّا يَتعلَّقُ بي من خيرٍ أو شرٍّ؛ لأني رَاضٍ عن فِطْرتِي وَسَجيَّتي في اللُّغة الَّتي أكتبُ بها، فلا أحبُّ أنْ يُكدِّرَها عليَّ مُكَدِّرٌ، وعن آرائي ومذاهبي الَّتي أودِعُها رسائلي، فلا أحبُّ أن يشكِّكَني فيها مُشَكِّكٌ، ولم يَهَبْني اللهُ من قوة الفِراسَةِ ما أستطيعُ به أنْ أميزَ بين مُخلصِهم ومَشوبِهم، فأصغي إلىٰ الأوَّل لأستفيدَ عِلْمَهُ، وأُعْرض عن الثاني لأتقي غشَّهُ، فأنا أسيرُ بينهم مسيرَ رجُل بدأ يقطعُ مرحلةً لا بدَّ له أنْ يفرغَ منها في ساعةٍ مُعيَّنة، ثم علمَ أنَّ علىٰ يمين الطَّريق الَّتي يسلُكُها رَوْضةً تَعتنقُ أغْصانُها، وتَشتجرُ أفنانُها، وأَنَّ علىٰ يَسارِهِ غابًا تَزْأَرُ أسودُهُ، وتَعْوي ذئابُهُ، وتفحُّ أفاعيهِ وصِلالُهُ[١]، فمَضىٰ قُدُمًا لا يلتفتُ يَمنةً مخافةَ

(١) **صِلال**: جمع صِلّ وهو حية من أخبث الحيات. «المعجم الوسيط» مادة (صلل).

أنْ يلهوَ عن غايتهِ بشَهواتِ سمعِهِ وبَصرِهِ، ولا يَسْرَةً مخافةَ أنْ يُهيجَ بنظراتِهِ فُضُول تلك السِّباع المُقْعيَةِ[١]، والصِّلَالِ النَّاشرةِ، فتعترضَ دونَ طريقِهِ. وأمَّا عَامَّتُهم فهم بينَ ذكيٍّ قد وَهبَهُ اللهُ من سلامةِ الفِطْرة، وصَفاء القلبِ، ولين الوِجْدان، ما يعدُّه لاستماع القول، واتِّباع أحسنِهِ، فأنا أحمدُ اللهَ في أمرهِ، وَضَعيفٍ قد حِيلَ بينه وبينَ نفسِهِ، فهو لا يَرْضىٰ إلَّا عمَّا يعجبُهُ، ولا يسمع إلا ما يطربُهُ، فَأَكِلُ أمرَهُ إلىٰ الله، وأَسْتَلهِمُهُ صوابَ الرَّأي فيه حتَّىٰ يجعلَ اللهُ له من بعد عُسْرٍ يُسرًا.

مصطفىٰ لطفي المنفلوطي

---

(١) **المقعية**: الجالسة علىٰ استها. «لسان العرب» مادة (قعو).

الغَدُ

عَرفتُ أنِّي فكَّرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفتُ أنِّي آخُذُ الساعة بقلمي بين أناملي، وأنَّ بين يديَّ صحيفةً بيضاء، تسودُّ قليلًا قليلًا كلَّما أجريت القلم فيها، ولكنِّي لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو[١] دون غايته؟ وهل أستطيع أن أُتمِّمَ رسالتي هذه، أو يعترضَ عارضٌ من عوارض الدهر في سبيلها؛ لأنِّي لا أعرف من شؤون الغد شيئًا، ولأن المستقبل بيد الله؟

عَرفتُ أنِّي لبستُ أثوابي في الصباح، وأنها لا تزال فوق جسمي حتىٰ الآن، ولكنِّي لا أعلم: هل أخلعها بيدي، أو تخلعها يدُ الغاسل.

الغدُ شبحٌ مُبهمٌ يتَراءىٰ للناظر من مكانٍ بعيدٍ، فربَّما كان مَلكًا رحيمًا، وربما كان شيطانًا رجيمًا، بل ربَّما كان سحابة سوداء، إذا هَبَّتْ عليها ريحٌ باردةٌ، حللت أجزاءها، وفرقت ذراتِها، فأصبحت كأنَّما هي عدَمٌ من الأعدام التي لم يسبقها وجودٌ.

---

(١) يكبو: يسقط. «مختار الصحاح» مادة (كبو).

الغدُ بحرٌ خِضمٌّ زاخرٌ يَعُبُّ عبابه[١]، وتصطخب أمواجه، فما يُدْريك إنْ كان يحمل في جوفه الدُّرَّ والجوهر، أو الموت الأحمر[٢]؟

لقد غمَض الغَدُ عن العقول، ودق شخصُهُ عن الأنظار، حتىٰ لو أنَّ إنسانًا رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أيضعها علىٰ عتبة القصر، أم علىٰ حافة القبر؟

الغدُ صدرٌ مملوءٌ بالأسرار الغِزَار تحوم حوله البصائر، وتتسقَّطه[٣] العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يَبُوح بِسِرٍّ من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزُّلال!

كأني بالغد وهو كامنٌ في مَكمنه، رابضٌ في مَجثمه[٤]، متلفعٌ بفضل إزاره، ينظر إلىٰ آمالنا وأمانينا نظرات الهزءِ والسخرية، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول في نفسه: لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا الباني أنه يبني للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت؛ ما جمع الجامع، ولا بنىٰ الباني، ولا ولد الوالد!

---

(١) **يعبُّ عُبابه**: يرتفع موجه ويصطخب. «المعجم الوسيط» مادة (عبب).

(٢) **الموت الأحمر**: القتل أو الموت الشديد. «المعجم الوسيط» مادة (حمر).

(٣) **تتسقَّطه**: تأخذه شيئًا بعد شيءٍ. «المعجم الوسيط» مادة (سقط).

(٤) **رابض في مجثمه**: لزم مكانه ولم يبرح. «لسان العرب» مادة (جثم).

ذلَّل الإنسان كل عقبة في هذا العالم، فاتخذ نفَقًا في الأرض، وصعد بسُلَّم إلىٰ السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[(١)] من حديد وخيوط من نُحاس، وانتقل بعقله إلىٰ العالم العلوي، فعاش في كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادَها، وسهولها وبطاحها، وعامرها وغامرها، ورطبها ويابسها، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم، ومسافات الأشعة، والموازين لوزن كرة الأرض إجمالًا وتفصيلًا، وغاص في البحار، فعرف أعماقها، وفحص تربتها، وأزعج سكانها، ونبش دفائنها، وسلبها كنوزَها، وغلبها علىٰ لآلئها وجواهرها. ونفذَ من بين الأحجار والآكام إلىٰ القرون الخالية؛ فرأىٰ أصحابها، وعرف كيف يعيشون، وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون، وتَسرَّب من منافذ الحواسِّ الظاهرة إلىٰ الحَواسِّ الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها، والعقول ومذاهبها، والمدارك ومراكزها حتىٰ كاد يسمع حديث النفس، ودبيب المُنَىٰ، واخترق بذكائه كل حجابٍ، وفتح كل بابٍ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزًا مقهورًا لا يجْرُؤُ علىٰ فتحه، بل لا يجسرُ علىٰ قرعه؛ لأنه باب الله، والله لا يُطْلعُ علىٰ غيبه أحدًا.

---

(١) **الأسباب**: الحِبال، وكل شيء يُتوصَّلُ به إلىٰ غيره. «لسان العرب» مادة (سبب).

أيها الشبح الملثَّم بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلًا لنرىٰ صفحة[١] واحدةً من صفحات وجهك المقنَّع، أوْ لا، فاقتربْ منا قليلًا علَّنا نستطيع أنْ نستشفَّ صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا؛ فقد طارت قلوبنا شوقًا إليك، وذابت أكبادنا وجدًا عليك؟

أيُّها الغد، إن لنا آمالًا كبارًا وصغارًا، وأمانيَّ حسانًا وغير حسانٍ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك، وخبِّرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها؟ أأذْلَلْتَها واحتقرتها، أم كنت لها من المُكرِمين؟

لا، لا! صُنْ سرَّك في صدرك، وأبقِ لِثَامك علىٰ وجهك، ولا تحدثنا حديثًا واحدًا عن آمالنا وأمانينا حتىٰ لا تَفْجعنا فيها، فتَفجعنا في أرواحنا ونفوسنا؛ فإنَّما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلةً، وسُعَداءُ بالأمانيِّ وإنْ كانت كاذبةً:

ولَيْسَـت حيـاة المـرء إلا أمانيـا

إذا هي ضاعت فالحياة علىٰ الأثر

---

(١) **صفحةً**: جانبًا. «مختار الصحاح» مادة (صفح).

الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه، وأحبُّ منه سلامةَ قلبِه، وصفاءَ سريرتِهِ، وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه، وغضبه وحلمه، وسخطه ورضاه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياةٍ لا فراقَ ممات، فأنا اليوم أبكيه حيًّا أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتًا، بل أنا لا أبكي إلا حياته، ولا أتمنىٰ إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخَلَّة[١] الغريبة في طبائع النفوس؟!

علقتُ حبالي بحباله حقبةً من الزمان عرفته فيها وعرفني، ثمَّ سلك سبيلًا غير سبيله، فأنكرته وأنكرني حتىٰ ما أمرُّ بباله؛ لأن الكأس التي عَلِقَ بها لم تدع في قلبه فراغًا يسع غيرها، وغير العالقين بها، وربما كان يدفعني عن مُخيِّلته دَفْعًا إذا تَرَاءيتُ فيها؛ لأنه إذا ذكرني، ذكر معي تلك الكلمات المُرَّة التي كُنتُ ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له، وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدِّر علىٰ نفسه بمثل هذه الذكرىٰ صفاءَ هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئًا جديدًا؛ لأن حياةَ المدمنين

---

(١) **الخَلَّة**: الخَصْلَة. «القاموس المحيط» مادة (خلل).

حياةٌ متشابهة متماثلة لا فرق بين صُبْحِها ومسائها، وأمْسها وغدها، ذَهاب إلىٰ الحانات، فشَراب فخُمار[١]، فنوم فَذهاب، كالحلْقة المفرغة لا يُدرىٰ أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يَلفت النظرَ، ولا يَشغل الذهن حتىٰ إن بعضَ مَنْ ينام علىٰ دورة الرَّحىٰ يستيقظُ عند سكونها، وكان أحرىٰ أن يوقظه دورانها.

لذَلكَ، لم يَشغَل هذا المسكين محلًّا من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه مُعَرْبدًا في الحانات، ولا مُطَّرحًا في مدارج الطرق، ولا معتقَلًا في أيدي الشُّرَط[٢]. هنالك سألت عنه فقيل لي: إنه مريض، فلم أعجب من شيءٍ كنت أعُدُّ له الأيَّام والأعوام، كما يَعُدُّ الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس، واصطدام الكواكب.

دَخلتُ عليه أعودُهُ، فلم أجد عنده طبيبًا، ولا عائدًا؛ لأنه فقيرٌ، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويُبْطنون حبَّ الصفراءِ[٣] والبيضاءِ[٤]،

(١) **الخُمار**: ما يصيب شارب الخمر من ألمٍ وصداعٍ. «المعجم الوسيط» مادة (خمر).

(٢) **الشُّرَط**: مفرده شُرطي. والشرطة هم حفظة الأمن في البلاد. «المعجم الوسيط» مادة (شرط).

(٣) **الصفراء**: الذهب. «المعجم الوسيط» مادة (صفر).

(٤) **البيضاء**: الفضة. «المعجم الوسيط» مادة (بيض).

والأصدقاء يخافون عَدْوىٰ المرض، وعَدْوىٰ الفقر؛ فلا يعودون المريض، ولا يزورون الفقير.

دَخلتُ منزله، فلم أجد المنزل ولا صاحبه؛ لأني لم أجد فيه ذلك الرُّوح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته، ولم أرَ دُخَان المطبخ، ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفال، ولا رنين الأجراس، فكأنَّني دخلتُ القَبْر أزور الميِّت لا المنزلَ، أعود الحيَّ!

ثمَّ تقدَّمت نحو سرير المريض، فكشفت كِلَّته(١) البالية عن خيالٍ لم يبقَ منه إلا إهابٌ(٢) لاصقٌ بعظمٍ ناحلٍ، فقلت: «أيُّها الخيال الشاخص ببصره إلىٰ السماء، قد كان لي في إهابك هذا صديقٌ محبوبٌ، فهل لك أن تدلَّني عليه؟»، فبعد لَأْيٍ(٣) ما حَرَّك شَفَتيه وقال: «هل أسمع صوت فلان؟»، قلتُ: «نَعمْ، ممَّ تشكو؟»، فزفَر زفرةً كادت تتساقط لها أضلاعه، وأجاب: «أشكو الكأسَ الأولىٰ». قلت: «أيُّ كأسٍ تريد؟»، قال: «أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وهأنذا اليوم أودعها

---

(١) **الكِلَّة**: الستر الرقيق. «مختار الصحاح» مادة (كلل).

(٢) **الإهاب**: الجِلد ما لم يدبغ. «مختار الصحاح» مادة (أهب).

(٣) **لأْي**: شدة ومشقة. «المعجم الوسيط» مادة (لأي).

حياتي». قلتُ: «قَدْ كنتُ نصحتك ووعظتك وأنذرتك بهذا المصير الذي صرتَ إليه اليوم، فما أجديتُ عليك شيئًا». قال: «ما كنتَ تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النَّكِد أكثر مما كنت أعلم، ولكنني كنت شربت الكأس الأولىٰ، فخرج الأمر من يدي، كل كأسٍ شربتها جَنتْها عليَّ الكأس الأولىٰ، أما هي فلم يَجْنها عليَّ غيرُ ضعفي وقصور عقلي عن إدراك خداع الأصدقاء والخُلَطاء.

«لم تكن شَهْوةُ الشراب مُركَّبةً في الإنسان؛ كبقية الشهوات، فيُعذَرَ في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلىٰ غيرها من الشهوات الغريزية، فلا سلطانَ لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولىٰ، فلم يتناولها؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خِلَّانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها؛ ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي لا تتم إلا بقراع الكؤوس، وضوضاء الاجتماع. ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه، وأيُّ ذريعةٍ تذرَّعوا بها إلىٰ ذلك، لَتحقَّقت أنه أَبْله[١] إلىٰ النهاية من البلاهة، وضعيف إلىٰ الغاية التي ليس وراءها غاية.

---

(١) **أبله**: غافل أو أحمق لا تمييز له. «القاموس المحيط» مادة (بله).

«أنا ذلك الأَبْلَه، وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان:

«قالوا: «إنَّ حياتَك حياةُ همومٍ وأكدارٍ، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب». وقالوا: «إن الشراب يَزيد رونقَ الجسم، ويبعث نشاطه، وإنه يفتِّق اللسان، ويعلم الإنسانَ البيانَ، وإنه يُشجِّع الجبان، ويبعث في القلب الجُرأة والإقدام»، هذا ما سمعته فصدقته، وخدعت به، صدقت أنَّ في الشراب أربع مزايا: السعادة والصحة، والفصاحة والإقدام، فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر والمرض والسقوط والجنون.

«غرَّهم من الصِّحَّة ذلك اللونُ الأحمر الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء، وهو يتغلغل في الأحشاء، ومن الفصاحة الهذَرُ والهذيان، وهُجر[١] القول، وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العربدةُ التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظاتُ القليلة التي يُغشَّىٰ فيها علىٰ عقل الشارب؛ فَيُغمىٰ عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتىٰ يتخيل الشتم طُرفةً[٢]، والصفعَ تحيةً، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين.

---

(١) **الهُجْر**: الهذيان والقبيح من القول. «المعجم الوسيط» مادة (هجر).
(٢) **الطُّرفة**: كل شيء مستحدث عجيب. «المعجم الوسيط» مادة (طرف).

«أيُّ سرورٍ لمَنْ يعيش في منزلٍ لا يزور الابتسام ثغرًا من ثغور ساكنيه؟! أيُّ سرورٍ لمن يودعه أهله كل يومٍ في صباحه بالحسرات، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟! أيُّ سعادةٍ لمَنْ يمشي دائمًا في طريقه مُتَلَوِّيًا مُتَمعجًا[١] يتسرب في المنعطفات والأزقَّة، ويعوذ[٢] بألواذ[٣] الجُدُر والأسوار فرارًا من نظرات الجزَّار، وتهكُّمات العطَّار، وصَرَخات الخمَّار؟!

«ولقد كنت أرىٰ هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة، فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي أنَّهم قتلىٰ الإدمان لا قتلىٰ الشراب، وكنت أقدِّر لنفسي القصد فيه، إن قُدِّر لي في أمره شيءٌ حتىٰ لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلمَّا شربت أخطأ العدُّ، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغُلِبْتُ علىٰ أمري كما يُغلب علىٰ أمره كلُّ مخدوع بمثل ما خدعت به، ولولا الكأس الأولىٰ ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد فيَّ الأقرباءُ، فكن أنت وحدك صديق السَّرَّاء والضَّرَّاء».

---

(١) **متمعِّجًا**: منثنيًا. «القاموس المحيط» مادة (معج).

(٢) **يعُوذ**: يلجأ. «مختار الصحاح» مادة (عوذ).

(٣) **ألواذ الجُدر**: جوانبها. «المعجم الوسيط» مادة (لوذ).

فعاهدته علىٰ ذلك، ثم تركته في حاله.

تُصِــمُّ الســميعَ وتعمــي البصــيرَ
ويُســـأل مـــن مثلهـــا العافيـــة



الدَّفين الصغير

الآن نفضت يديَّ من تراب قبرك يا بُنيَّ، وعدت إلىٰ منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دَمْعةً لا أستطيع إرسالها، وزفرةً لا أستطيع تصعيدها.

ذلك لأنَّ الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك، فرزقني بك قبل أن أسأله إيَّاك، ثم استلبك مني قبل أن أستعفيَه منك، قد أراد أن يتمِّم قضاءه فيَّ، وأن يجرِّعني الكأس حتىٰ ثمالتها[1]، فحرمني حتىٰ دمعةٌ أرسلها، أو زفرةٌ أُصْعدها، حتىٰ لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرَّج به ممَّا أنا فيه، فله الحمد راضيًا وغاضبًا، وله الثناءُ منعِمًا وسالبًا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه، والصبر علىٰ بلائه.

رأيتك يا بُنيَّ في فراشك عليلًا فجزعتُ، ثمَّ خفتُ عليك الموت ففزعت، وكأنَّما كان يُخيَّل إليَّ أنَّ الموتَ والحياةَ شأنٌ من شؤون الناس، وعملٌ من الأعمال التي تملكها أيديهم، فاستشرتُ الطبيبَ في أمرك، فكتب لي الدواء، ووعدني بالشفاءِ، فجلست بجانبك أصبُّ في فمك ذلك السائل الأصفر قطرةً قطرةً، والقدرُ ينتزع من بين جنبيك

(١) **الثُّمَالة**: البقية في أسفل الإناء من شراب ونحوه. «المعجم الوسيط» مادة (ثمل).

الحياةَ قطعةً قطعةً، حتىٰ نظرتُ فإذا أنت في يديَّ جثةٌ باردةٌ لا حِرَاك بها، وإذا قارورةُ الدواء لا تزال في يدي، فعلمتُ أني قد ثكلتُك، وأن الأمرَ أمرُ القضاء، لا أمرُ الدواء.

سأنام يا بُنيَّ بعد قليلٍ علىٰ فراشٍ مثل فراشك، وسيعالج مني المقدارُ ما عالج منك، وأحسَبُ أن آخر ما سيبقىٰ في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها، وخطوبها وأحداثها، هو الندم العظيم الذي لا أزال أُكَابد ألمه علىٰ تلك الجرع المريرة التي كنت أجرُعك إيَّاها بيدي، وأنت تَجود بنفسك، فيربدُّ وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عيناك، وما لك يدٌ فتستطيعَ أن تمدَّها إليَّ لتدفعني عنك، ولا لسانٌ فتستطيع أن تشكوَ إليَّ مرارةَ ما تذوق.

لقد كان خيرًا لي ولك يا بُنيَّ أن أَكِلَ إلىٰ الله أمرَك في شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألا يكونَ آخر عهدك بي يوم وَدَاعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي كنت أجشَمك[١] إيَّاها، فلقد أصبحتُ أَعْتَقِدُ أنني كنت عونًا للقضاء عليك، وأنَّ كأسَ المنيَّة التي كان يحملها لك القدر في يده، لم تكن أمرَّ مذاقًا في فمك من قارورة الدواء التي كنتُ أحملها لك في يدي.

---

(١) **أُجشِّمُك**: أُكلِّفك علىٰ مشقة. «المعجم الوسيط» مادة (جشم).

ما أسمجَ[١] وجهَ الحياة من بعدك يا بُنيَّ! وما أقبح صورةَ هذه الكائنات في نظري! وما أشدَّ ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إيَّاه! فلقد كنتَ تطلُع في أرجائه شمسًا مشرقة تضيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه، أمَّا اليوم فلا ترىٰ عيني مما حولي أكثرَ مما ترىٰ عينك الآن في ظلمات قبرك.

بكَىٰ الباكون والباكيات عليك ما شاءوا، وتفجَّعوا، حتىٰ إذا استنفدوا ماءَ شؤونهم، وضعفت قُوَاهم عن احتمال أكثرَ مما احتملوا، لجأوا إلىٰ مضاجعهم، فَسكنوا إليها، ولم يبقَ ساهرًا في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين: عين أبيك الثاكل المسكين، وعين أخرىٰ أنت تعلمها.

لقد طَالَ عليَّ الليل حتىٰ مللته، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سوادُهُ عن بياض النهار؛ لأنَّ الفجيعةَ التي فُجِعْتُها بك يا بُنَيَّ لم تُبق بين جنبيَّ بقيةً أقوىٰ بها علىٰ رؤية أثرٍ من آثار حياتك، فليتَ الليل باقٍ حتىٰ لا أرىٰ وجه النهار! بل ليت النهار يضيءُ فقد مللت هذا الظلام!

دفنتك اليوم يا بُنيَّ، وَدَفنتُ أخاك من قبلك، وَدَفنتُ من قبلكما أخويكما، فأنا في كلِّ يومٍ أستقبل زائرًا جديدًا، وأُوَدِّعُ ضَيفًا راحلًا، فيا لله لقلبٍ قَدْ لاقىٰ فوق ما تُلَاقي القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب!

---

(١) **ما أسمج**: ما أقبح. «مختار الصحاح» مادة (سمج).

لقد افتَلذ كل منكم يا بَنيَّ من كبدي فِلذةً، فأصبحتْ هذه الكبدُ الخرقاء مِزَقًا مُبعثرةً في زوايا القبور، ولم يَبق لي منها إلا ذماءٌ قليل لا أحسَبه باقيًا علىٰ الدَّهر، ولا أحسب الدهر تاركَه دون أن يذهبَ به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بَنيَّ بعدما جئتم؟! ولماذا جئتم إنْ كنتم تعلمون أنكم لا تُقيمُون؟!

لولا مَجيئُكم ما أسفتُ علىٰ خلو يدي منكم؛ لأنني ما تعودت أنْ تَمْتَدَّ عيني إلىٰ ما ليس في يدي، ولو أنكم بقيتم بعدما جئتم ما تجرعتُ هذه الكأس المريرة في سبيلكم.

لقد كنتُ أرضىٰ من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي التي أسير فيها، وأن يزوِيَ وجهَهُ عنِّي، فلا أراه، ولا يراني، ولا يحسن إليَّ، ولا يسيءُ، ولا يتقدَّمُ إليَّ بخَيْرٍ، ولا شرٍّ، ولا يَتَراءىٰ لي مبتسمًا، ولا مُقَطِّبًا، ولا ضَاحِكًا ولا باكيًا، لو أنه رضي مني بذلك. ولكنه كان أذكىٰ قلبًا، وأنفذ بصرًا من أن يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي علىٰ النعمة لو لم تكن في يدي، وما كنتُ أجدُ مرارة فقدانها، لو لم أذق حلاوة وِجْدانها. وكان لا بدَّ له أن يُجرِيَ فيَّ سُنَّةَ الشقاءِ التي أخذ علىٰ نفسه أمامَ الله أن يُجريَها بين عباده، فلمَّا عجز عن أن يدخل إليَّ من باب الطمع، دخل إليَّ من باب الأمل، فَهو يمنحني المنحة فأغتبط بها حقبةً من الدهر حتىٰ إذا علم أن بذرة

الأمل التي غَرَسها في نفسي قد نَمتْ وأزْهَرتْ، وأنَّني قد استعذبت طعم النعمة التي آتاني، كَرَّ عليَّ فانتزعها من يدي أنعَمَ ما أكون بها، كما تُنتزع الكأس الباردة من يد الظَّامئ الهيمان؛ ليعظمَ وَقْعُ السَّهم في كبدي، ويَفدحَ سلبُ النعمة من يدي، ولولا ذلك ما نال مني منالًا، ولا وجد إليَّ سبيلًا.

يا بَنيَّ، إنْ قَدَّر الله لكم أنْ تتلاقوا في رَوْضَةٍ من رياض الجنة، أو علىٰ شاطئ غدير من غدرانها، أو تحت ظلال قصرٍ من قصورها، فاذكروني مثل ما أذكركم، وقفوا بين يدي ربكم صفًّا واحدًا كما يقف بين يديه المصلُّون، ومدُّوا إليه أكُفَّكم الصغيرة كما يمدها السائلون، وقولوا له: «اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكينَ كان يحبنا وكنا نحبه، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه، فهو لا يزَال يلاقي من بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طَاقةَ له باحتماله، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به، والحنين إليه، ما يُنغِّص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذِّبنا عذابًا كثيرًا، فإما أن تأخذنا إليه، أو تأتيَ به إلينا»، لا، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتيَ بي إليكم؛ فإنَّ الحياة التي كَرهتُهَا لنفسي لا أرضاها لكم، فَعَسىٰ أَنْ يَسْتجيب اللهُ من دعائكم ما لم يستجب من دعائي، فيرَفع هذا الستار المسبَل بيني وبينكم، فنلتقي كما كنا.

مُناجاةُ القَمَر

أيها الكوكبُ المطل من علياء سمائه؛ أأنتَ عروس حسناء تُشرف من نافذة قصرها، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان[١]؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم فص من ماس يتلألأ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك إطار؟ أم عين ثَرة[٢] ثجَّاجة[٣]، وهذه الأشعة جداول تتدفق، أو تَنُّور مسجور[٤]، وهذه الكواكب شرر يتألق؟

أيُّها القمرُ المنير:

إنَّك أنرتَ الأرض؛ وِهَادها[٥] ونجادَها[٦]، وسهلَها ووَعْرها، وعامرها وغامرها، فهل لك أن تشرق في نفسي، فتنيرَ ظلمتها، وتبددَ ما أظلها من سحب الهموم والأحزان؟!

---

(١) **جُمان**: لؤلؤ. «المعجم الوسيط» مادة (جمن).

(٢) **ثرَّة**: غزيرة. «القاموس المحيط» مادة (ثرر).

(٣) **ثجَّاجة**: شديدة الانصباب. «المعجم الوسيط» مادة (ثجج).

(٤) **مسجور**: موقد. «القاموس المحيط» مادة (سجر).

(٥) **وهادها**: الوهْدَة الأرض المنخفضة. «القاموس المحيط» مادة (وهد).

(٦) **نجادها**: النَّجْد الطريق الواضح المرتفع. «القاموس المحيط» مادة (نجد).

أيها القمرُ المنير:

إنَّ بيني وبينك شبهًا واتصالًا، أنت وحيد في سمائك، وأنا وحيد في أرضي، كلانا يقطع شوطه صامتًا هادئًا منكسرًا حزينًا، لا يلوي[١] علىٰ أحد، ولا يلوي عليه أحد، وكلانا يبرز لصاحبه في ظلمة الليل، فيسايره ويناجيه، يراني الرائي فيحسبني سعيدًا؛ لأنه يغترُّ بابتسامة في ثغري، وطلاقة في وجهي، ولو كُشف له عن نفسي، ورأىٰ ما تنطوي عليه من الهموم والأحزان، لبكىٰ لي بكاء الحزين إثْر الحزين. ويراك الرائي فيحسبك مُغتبطًا مسرورًا؛ لأنه يغترُّ بجمال وجهك، ولَمَعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كُشِفَ له عن عالمك لرآه عالمًا خرابًا، وكونًا يبابًا[٢]، لا تهب فيه ريح، ولا يتحرك شجر، ولا ينطق إنسان، ولا يبغم[٣] حيوان.

أيُّها القمر المنير:

كان لي حَبيبٌ يملأ نفسي نورًا، وقلبي لَذَّةً وسُرورًا، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك، وقد فرَّق الدهر بيني وبينه، فهل لك أن تحدثني عنه، وتكشف لي عن مكان وجوده؛ فربما كان ينظر إليك

---

(١) **لا يلوي علىٰ أحد:** لا يقيم عليه ولا ينتظره. «المعجم الوسيط» مادة (لوي).

(٢) **يبابًا:** خرابًا. «المعجم الوسيط» مادة (يبب).

(٣) **يبغم:** يُصوِّت بأرخم ما يكون من الصوت. «لسان العرب» مادة (بغم).

نظري، ويناجيك مناجاتي، ويرجوك رجائي؟ وهأنذا كأني أرىٰ صورته في مرآتك، وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله، فأزداد شوقًا إليه، وحزنًا عليه.

أيها القمر المنير:

ما لي أراك تَنْحَدِرُ قليلًا قليلًا إلىٰ الغروب كأنك تريد أن تفارقَني، وما لي أرىٰ نورك السَّاطعَ قد أخذ في الانقباض شيئًا فشيئًا، وما هذا السَّيفُ المسلولُ الذي يلمع من جانب الأفق علىٰ رأسك.

قِفْ قليلًا لا تغب عني، لا تفارقني، لا تتركني وحيدًا، فإني لا أعرف غيرك، ولا آنس بمخلوقٍ سواك.

آهٍ! لقد طلع الفجر ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتىٰ تنقضي وحشة النهار، ويقبل إليَّ أنس الظلام؟!



أيْنَ الفَضيلَةُ؟!

قرأت في بعض الرِّوايات أن فتًىٰ قضىٰ حقبة من دهره مولعًا بحُبِّ فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وإنما تخيل في ذهنه صورة أَلَّفها من شتىٰ المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر. فلمَّا استقرَّت في مُخيَّلته، تَجسَّمت في عينيه، فرآها، فأحبَّها حُبًّا مَلك عليه قلبَه، وَحَال بينه وبين نفسه، وذهب به كلَّ مذهب، فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعوامًا طوالًا حتىٰ وجدها.

لَا أستطيع أن أُكذِّب هذه القصةَ؛ لأني أنا ذلك الفتىٰ بعينه، لا فرق بيني وبينه إلا أنه يُسمِّي ضالَّته الفتاةَ، وأسميها الفضيلةَ، وأنه فتَّش عنها فوجدها، وفتشتُ عنها حتىٰ عَييتُ بأَمْرها، فما وجدتُ إليها سبيلًا.

فَتَّشْتُ عن الفضيلة في حوانيت التجار، فرأيتُ التاجر لصًّا في أثواب بائع، وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنُه دينار واحد، فعلمت أنه سارقٌ للدينار الثاني، ولو وُكِل إليَّ أمر القضاء، ما هان عليَّ أن أعاقب لصوص الدراهم، وأُغفلَ لصوص الدنانير؛ ما دام كل منهما يسلبني مالي، ويتغفَّلني عنه.

أنا لا أنكر علىٰ التاجر ربحَه؛ ولكن أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من

الجزاء الذي يستحقُّه علىٰ جَهد نفسه في جلب السِّلعة، وبذلِ راحته في صَوْنها وإحْرَازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الأوَّلَ بدلُ الجدِّ والعمل، والثانـيَ بَدلُ الغشِّ والكذب.

فَتَّشتُ عن الفضيلة في مجالس القضاءِ، فرأيتُ أن أعدلَ القضاة مَنْ يَحرص الحرصَ كلَّه علىٰ ألَّا يهفوَ في تطبيق القانون الَّذي بين يديه، هفوة يحاسبه عليها مَنْ منحه هذا الكرسيَّ الذي يجلس عليه مخافةَ أنْ يسلبه إياه، أمَّا إنصاف المظلوم، والضرب علىٰ يد الظالم، وإراحة الحقوق علىٰ أهلها، وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب، فهي عنده ذيولٌ وأذنابٌ لا يأبه[١] لها، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده، فمشت مع القانون في طريقٍ واحدٍ؛ مصادفةً واتفاقًا، فإذا اختلف طريقهما بين يديه، حكم بغير ما يعتقد، ونَطق بغير ما يعلم، ودانَ البريءَ، وبرَّأ الجانيَ، فإذا عَتَب عليه في ذلك عاتبٌ، كانت معذرتُهُ إليه حكم القانون عليه! كأنما يريد أن يجعل العقلَ أسيرَ القانون، وما القانونُ إلا حسنةٌ من حسنات العقل، وصنيعةٌ من صنائعه.

فَتَّشتُ عن الفضيلة في قصور الأغنياء، فرأيت الغنيَّ إمَّا شحيحًا أو متلافًا، أما الأول فلو كان جارًا لبيت فاطمة رضي الله عنها، وسمع في

---

(١) **لا يأْبَه**: لا يفطن ولا يُحتفل بها. «لسان العرب» مادة (أبه).



جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع، ما مد أصبعيه إلىٰ أذنيه؛ ثقةً منه أن قلبه المتحجر لا تنفُذه أَشعَّة الرحمة، ولا تمرُّ بين طيَّاته نسمات الإحسان، وأما الثاني فمالُهُ بين ثغر الحسناء، وثغر الصهباء[1]، فعلىٰ يد أيِّ رجلٍ من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء؟!

فتَّشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت أن المعاهدةَ والاتفاقَ والقاعدةَ والشَّرطَ ألفاظٌ مترادفةٌ معناها الكذب، ورأيت أن الملك في كرسيِّ مملكته، كالحُوذيِّ[2] في كرسيِّ عربته، لا فرقَ بينهما إلا أن هذا ينقض «تعريفته»، وذاك ينقض معاهدته، ورأيت أن أعدَىٰ عَدُوٍّ للإنسان الإنسانُ، وأن كل أمة قد أعدَّت في مخازنها ومستودعاتها، وفي بطون قلاعها[3]، وعلىٰ ظهور سفنها، وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تُعدَّه لأختها من عُدَد الموت، وأفانين العذاب، حتىٰ إذا وقع بينهما الخُلف علىٰ حدٍّ من الحدود، أو لقبٍ من الألقاب، لبس الإنسان فروةَ السَّبُع، واتخذ له من تلك العُدد الوحشية أظفارًا كأظفاره، وأنيابًا كأنيابه، فشحذ الأولىٰ، وكشر عن الأخرىٰ، ثم هَجم علىٰ ولد أبيه وأمه هجمةً لا يعود منها إلا به أو بنفسه الَّتي بين جنبيه، وإنَّك لو سألت الجنديين المتقاتلين:

---

(١) **الصهباء**: الخمر. «القاموس المحيط» مادة (صهب).

(٢) **الحوذي**: سائق العربة. «المعجم الوسيط» مادة (حوذ).

(٣) **قلاعها**: القَلْعة الحصن علىٰ الجبل. «مختار الصحاح» مادة (قلع).

ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجِدة[١] التي تحملانها بين جنبيكما، ومتىٰ ابتدأت الخصومة بينكما، وعهدي بكما أنكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها؛ لعرفت أنَّهما مخدوعان عن نفسيهما، وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا دُرَّةً في تاج الملك أو «نيشانًا» علىٰ صدر القائد.

فَتَّشتُ عنها بين رجال الدين، ورجال الصحف، فرأيت أنهما يَتَّجران بالعقول في أسواق الجهل، ورأيت كلًّا منهما قد ثغر[٢] له في كل رأسٍ من رؤوس البشر ثُغْرة ينحدر منها إلىٰ العقول فيفسدها؛ والقلوب فيقتلها؛ ليتوسل بذلك إلىٰ الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبها، هذا باسم السياسة، وذاك باسم الدين.

فَتَّشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها، فلم أعثُرْ بها، فليت شِعري هل أجدها في الحانات والمواخير أو في مغارات اللصوص أو بين جدران السجون!

سيقول كثيرٌ من الناس: «قد غلا الكاتب في حكمه، وجاوز الحدَّ في تقديره؛ فالفضيلةُ لا تزال تجد في صدور كثير من الناس صدرًا رحبًا،

(١) **الموجدة**: الغضب. «المعجم الوسيط» مادة (وجد).

(٢) **ثَغَر**: أحدث فيه ثُلْمة وفُرْجة. «المعجم الوسيط» مادة (ثغر).

وموردًا عذبًا»، وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم: «إني لا أُنْكِرُ وجود الفضيلة، ولكني أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابةً سوداء أظلم لها بصري حتىٰ ما أجد في صفحة السماءِ نجمًا لامعًا، ولا كوكبًا طالعًا».

كل النَّاس يدَّعي الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها، ويرتدي رداءها، ويعدُّ لها عُدَّتها، من منظَرٍ يَسْتهوي الأذكياء والأغبياء، ومظهرٍ يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًّا، فمَنْ لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك، والليل الأَلْيل[1]!

إِنْ كان صحيحًا ما يتحدَّث به الناس من سعادة الحياة، وطيبها، وغبطتها، ونعيمها، فَسَعادتِي فيها أن أعثرَ في طريقي في يومٍ من أيام حياتي بصديقٍ يصدقني الودَّ، وأصدُقه، فيُقنعه مني ودي وإخلاصي دون أن يتجاوز ذلك إلىٰ ما وراءه من مآربَ وأغراضٍ، وأن يكون شريفَ النفس، فلا يطمع في غير مطمعٍ، شريفَ القلب فلا يحمل حقدًا، ولا يحفظ وِترًا، ولا يُحدِّث نفسه في خلوته بغير ما يحدِّث به الناس في محضره، شريفَ اللسان فلا يكذب، ولا ينُمُّ، ولا يُلِمُّ

(١) **الليل الأليل**: الشديد الظلمة. «المعجم الوسيط» مادة (ليل).

بعرضٍ، ولا ينطق بِهُجْرٍ[١]، شريفَ الحب، فلا يحبُّ غير الفضيلة، ولا يبغض غير الرذيلة.

هذه هي السعادة التي أتمناها، ولكني لا أراها، إني لأرىٰ الرياض الغنَّاء[٢] تهفو أشجارها، وترنُّ أطيارها، وأرىٰ جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعي الرقطاء في الرمال البيضاء، وأرىٰ أنامل النسائم تَعبَثُ بمنثورات الأوْرَاقِ عبثَ الهوىٰ بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخرير الجداول نغمات شجية، تبلغ من نفس الإنسان ما لا تبلغ أوتار العيدان، فلا يسرني منها منظرٌ، ولا يطربني مسمعٌ؛ لأني لا أَرَىٰ بين هذه المشاهد التي أراها ضالَّتي التي أنشُدها.

لقد سَمُجَ[٣] وجه الرذيلة في عيني، وثقل حديثُها في مسمعي حتىٰ أصبحت أتمنىٰ أن أعيش بلا قلب، فلا أشعر بخير الحياة وشرِّها، وسرورها وحزنها.

ولولا بُنيَّاتٌ صغار يفقِدن بفقدي طيبَ العيش ونعيمَه، لفررتُ من

---

(١) **الهُجْر**: الهذيان والقبيح من القول. «المعجم الوسيط» مادة (هجر).

(٢) **الغَنَّاء**: الكثيرة العُشب. «القاموس المحيط» مادة (غنن).

(٣) **سَمُج**: قبح. «مختار الصحاح» مادة (سمج).

هذا العالم الناطق إلىٰ ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول:

عـوىٰ الـذِّئب فاستأنسـت بالـذئب إذ
وصــوَّت إنســان فكــدت أطيــر

الغَنِيُّ وَالفَقِيرُ

مررت ليلة أمس برجل بائس، فرأيته واضعًا يده علىٰ بطنه، كأنما يشكو ألمًا، فرثيت[١] لحاله، وسألته ما بالُه، فشكا إليَّ الجوع ففثأته[٢] عنه، ثم تركته وذهبت إلىٰ زيارة صديقٍ لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أني رأيته واضعًا يده علىٰ بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألتُهُ عما به، فشكا إليَّ البِطْنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطىٰ الغنيُّ الفقيرَ ما فضل عن حاجتِهِ من الطعام ما شكا واحدٌ منهما سُقمًا ولا ألمًا، لقد كان جديرًا به أن يتناول من الطعام ما يشبع جَوْعته، ويُطفِئُ غُلَّته، ولكنه كانَ مُحِبًّا لنفسه مغاليًا بها، فَضَمَّ إلىٰ مائدته ما اختلسه من صَحفةِ الفقير؛ فعاقبه الله علىٰ قسوته بالبطنة حتىٰ لا يَهنِئ للظالم ظلمُه، ولا يطيب له عيشُه، وهكذا يَصدُقُ المثل القائل: بطنة الغنيِّ انتقامٌ لجوع الفقير.

مَا ضَنَّت السماء بمائها، ولا شَحَّت الأرْضُ بنباتها، ولكن حَسد القَويُّ

---

(١) **رثيت:** رثىٰ له: رحمه ورقَّ له. «المعجم الوسيط» مادة (رثي).

(٢) **فثأته:** كسرت حدته. «لسان العرب» مادة (فثأ).

الضعيفَ عليهما فزواهما[١] عنه، واحتجنهما[٢] دونه، فأصبح فقيرًا مُعْدِمًا، شاكيًا متظلمًا، غُرَماؤه المَيَاسيرُ[٣] الأغنياء، لا الأرضُ والسماء.

لَيْتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس، فأستطيعَ أن أتصوَّر كما يتصوَّرون حُجةَ الأقوياء في أنَّهم أحقُّ بإحراز المال، وأولىٰ بامتلاكه من الضعفاء، إن كانت القوةُ حُجَّتهم عليهم، فلِمَ لا يملكون بهذه الحجة سلبَ أرواحهم كما ملكوا سلبَ أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحيِّ بأثمن قيمة من اللُّقمة في يد الجائع. وإن كانت حُجَّتُهم أنهم ورثوا ذلك المال من آبائهم، قلنا لهم: إن كانت الأبوَّة علَّةَ الميراث، فَلِمَ ورِثتُم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم في مظالمهم؟! فلقد كان آباؤكم أقوياء، فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقًّا عليهم أن يردُّوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بدَّ ورثاءهم، فاخلُفُوهم في ردِّ المال إلىٰ أربابه، لا في الاستمرار علىٰ اغتصابه.

---

(١) **زواهما**: نحَّاهما. «لسان العرب» مادة (زوي).

(٢) **احتجنهما**: الحُجْنة ما اخْتَزَنْتَ من شيء، واختصصت به نفسك. «لسان العرب» مادة (حجن).

(٣) **المياسير**: جمع المُوسِر وهو ذو اليسار والغنىٰ. «المعجم الوسيط» مادة (يسر).

ما أظلم الأقوياءَ من بني الإنسان! وما أقسىٰ قلوبَهم! ينام أحدهم ملءَ جفنيه علىٰ فراشه الوثير، ولا يُقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يُرْعَدُ بردًا، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام: قديدِهِ وَشِوَائِهِ، حُلْوِه ومُرِّه، ولا يُنغِّص عليه شهوتَه عِلمُهُ أنَّ بين أقربائه وذوي رحمه من تَثِبُ أحشاؤه شوقًا إلىٰ فُتات تلك المائدة، ويسيل لُعابه تلهُّفًا علىٰ فضلاتها، بل إنَّ بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقِد الحياءُ لسانه، فيظل يسردُ علىٰ مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما اسْتعَان به علىٰ عَدِّ ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب، وصناديقه من الجوهر، وغرفه من الفراش والرياش، ليكسر قلبه، وينغِّص عليه عيشه، ويبغِّض إليه حياته، وكأنه في كل كلمةٍ من كلماته وحركةٍ من حركاته يقول له: «أنا سعيد لأني غنيٌّ وأنت شقيٌّ لأنك فقيرٌ».

أحسَبُ لولا أن الأقوياء في حاجةٍ إلىٰ الضعفاء؛ يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم، كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويُسخِّرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليُمتِّعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم، وسجودِهِم بين أيديهم؛ لامتصُّوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولَحَرموهم الحياةَ كما حرموهم لذةَ العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصوَّر أن الإنسانَ إنسانٌ حتىٰ أراه مُحْسِنًا؛ لأني لا

أعتمد فصلًا صحيحًا بين الإنسان والحيوان إلا الإحسانَ، وإني أرىٰ الناس ثلاثة: رجلٌ يحسن إلىٰ غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلًا إلىٰ الإحسان إلىٰ نفسه، وهو المستبدُّ الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان، ورجلٌ يُحْسن إلىٰ نفسه، ولا يُحْسن إلىٰ غيره، وهو الشَّرِه المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلىٰ ذهبٍ جامدٍ لذَبح في سبيله الناس جميعًا! ورجل لا يحسن إلىٰ نفسه، ولا إلىٰ غيره، وهو البخيل الأحمق الذي يُجِيعُ بطنه ليُشبع صُنْدوقه، أما الرابع الذي يحسن إلىٰ غيره ويحسن إلىٰ نفسه، فلا أعلم له مكانًا، ولا أجد إليه سبيلًا، وأحسَبُ أنه هو ذلك الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبي» حينما سُئِلَ ما يصنع بمصباحه -وكان يدور به في بياض النهار- فقال: «أفتِّش عن إنسان!».

مَدينَة السَّعادَةِ

رأيت فيما يرىٰ النائم أنَّني أمشي في بريَّة جرداء قفرٍ قَد انبسطت رمالها علىٰ سطحها مُتَجعدةً تجعُّد الأمواج المتوثبة في القاموس[١] المحيط، وكانت الشمس قد طَفَلت[٢] للإياب، فلم أرَ في بطحائها ظلًّا غير ظلِّي المستطيل الذي رَسمَتْه يد الشمس، فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر، فأوسعتني طولًا، ورسمتني ميلًا.

أَنْشَأتُ أمشي لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا، وأنَّىٰ يكون ذلك في صحراءَ قد تَشَابهتْ مسالكها، وتَشَاكلتْ مذاهبها، وانفرج ما بين قَاصيها ودانيها حتىٰ انحدرت الشمس إلىٰ مستقرها، وَطار طائر الليل من مكمنه، وما نشر الظلام أجنحته السوداء في الأفق حتىٰ وجدتُني أحيرَ من دمعةِ وجدٍ في مقلة عاشق، يدفعها الحب، ويمنعها الحياء، لا أَعْلَم هل أنا سرٌّ كامنٌ في باطن الظلماء، أو حوتٌ مضطرب في أعماق الماء! وأحيانًا كان يخيل إليَّ أني في مَنجم من مناجم الفحم، فأمد يدي أتلمَّس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحدٍ منها، ولم أزل كذلك حتىٰ شعرت بأن الظلام بدأ

---

(١) **القاموس**: وسط البحر ومعظمه. «مختار الصحاح» مادة (قمس).

(٢) **طفلت الشمس**: دنت للغروب. «القاموس المحيط» مادة (طفل).

ينفض صبغته، وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا، فإذا أنا بين يدي جبلٍ عالٍ كأنما هو جدار قائم يُمْسك السماء أن تقع علىٰ الأرض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر، ومن شعاعها الرِّداء الأصفر.

ولا تسل هنالك عمَّا ألَمَّ بقلبي من الهمِّ، وعقلي من الخبال حينما رأيت أن صعود السماء أقربُ إلىٰ الأمل من صعود هذا الجبل، وحرت بين الإقدام والإحجام، فلم أرَ بدًّا من الاستسلام لمقدور الحِمام[1]، ثمَّ رميت بطرفي، فَرَأيتُ بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرةً بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثَّل بقول أبي العلاء:

ضِـجْعةُ المـوت رقـدة يسـتريح الـ
ـجسم فيهـا والعـيشُ مثـل السُّـهَاد

وما هي إلا غمضةُ الطَّرف حتىٰ شَعرت بأنها تتحرك قليلًا قليلًا، ثم نَهَضتْ ثم طَارتْ، فكدتُ أحسب أنَّه الموت قد نزل، وأنها الرُّوح تصعد إلىٰ الملإِ الأعلىٰ لولا أن فتحت عيني، فَرَأيتُ ما كنت أحسبه صخرةً طائرًا أشبه شيءٍ بالنَّسر في خَلْقه، والقُبَّةِ في ضخامتها واستدارتها، وما زَال ذاهبًا بي في أفق السماء، ثم رَنَّق[2] لحظةً في الهواء، ثم هبط إلىٰ قِمة الجبل، فأسرعت

(١) **الحِمام**: قضاء الموت وقدره. «المعجم الوسيط» مادة (حمم).

(٢) **رنق**: خفق بجناحيه ولم يطر. «المعجم الوسيط» مادة (رنق).

بالانحدار عنه، وهنالك أحسستُ بسلسبيلٍ باردٍ من الأمل يتسرَّب إلىٰ قلبي، فينقَعُ غُلته، ويُطْفِئ لوعته؛ لأنني رأيت السفح الثاني من الجانب الآخر، ورأيت بهجة الحياة، وزهرة العمران.

رَأيتُ علىٰ البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء، ورأيت المنازل والقصور كأنها العصافير السوداء، أو الحمائم البيضاء، وكأنَّ ما أَلَمَّ بنفسي من السرور أنساني ما ألَمَّ بجسمي من النَّصبِ[١]، فانحدرت إليها، فما بلغتها حتىٰ رأيتُني في مزرعةٍ في وسطها بِنْيةٌ، قد وقَف علىٰ بابها شيخٌ هو أشبه الأشياء بما يتخيَّله فريق الخياليين من علماء الفلك في صور سكان المِرِّيخ، فذُعر مني كما يُذْعَرُ الإنسان لرؤية الجانِّ، وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر ممَّا قام في نفسي منه لَوْلَا أني أَلِفْتُ الغرائب، وعَجَمت عود العجائب، فتقدمت إليه، وكأنما ألهمت لغته الغريبةَ، فحييته بها فحَيَّانِي، وهو يقول: «ما كنت أحسب أن الشمس تطلع علىٰ مدينةٍ غير هذه المدينة، أو في العالم إنسانًا غير هذا الإنسان»، فما زلت أحدثه وأستدنيه حتىٰ أنس بي، ودعاني إلىٰ منزله، وخلطني بنفسه وأهله، وقدم لي طعامًا شهيًّا، ومهَّدَ لي مرقدًا وثيرًا[٢]، وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه، فنمت نومًا هادئًا

---

(١) **النصب**: الإعياء والتعب. «المعجم الوسيط» مادة (نصب).

(٢) **الوثير**: الفراش الوطيء. «المعجم الوسيط» مادة (وثر).

مطمئنًّا، لا تروعُني فيه خواطرُ الموت، ولا وساوسُ الهلاك.

استيقظتُ أنا والشمسَ من مَرْقَدَيْنا علىٰ صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلىٰ الله تعالىٰ صلاة الخاشعين المُتَبَتِّلين، وتدعو وهي مصطفة صفًّا واحدًا أن ييسر الله لها عُسْرها، ويسهل أمرها، ويصلح شأنها، ويمنحها معونته ونصره، فأخذ من نفسي منظَرُها هذا مأخذًا غريبًا، فلم أَرَ بُدًّا من الانتظام في صفِّها، والدعاء بدعائها، والبكاء لبكائها. وعَجبتُ أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخًا في نفوس أهل هذه المدينة، ولم يُرْسَل إليها رسولٌ، ولم ينزَل عليها كتابٌ، فلمَّا فرغنا من الصلاة، التفت إلَيَّ صاحب البيت، فَقلتُ له: «أراكم تتعبَّدون، فمَنْ تعبدون، وتصلُّون، فمن الذي تدعون؟». قال: «نعبد الله خالقَ هذه الكائنات ومدبرَها». قلت: «هل رأيتُمُوه حتىٰ عرفتُمُوه؟». قال: «نعم، رأيناه في آثاره ومصنوعاته، ورأيناه في السماء والماء، والفلك الدائر، والنجم السائر، وفي أجنَّة الحيوان، وبُذُور النبات، ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك». قلت: «ولِمَ تعبدونه؟». قال: «شكرًا له علىٰ نعمة الخَلق والرزق، وإن أحدنا ليعنيه أن يشكرَ لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعةٍ، أو أنعم عليه بمضغةٍ؛ فأَحْرِ به أن يشكر مانح

المانحين، والمحسنَ إلىٰ المحسنين»، فقُلْتُ في نفسي: «لقد بلغ الرجل مرتبة المُوحِّدين الصَّادقين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين، لا يرجون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا»، ثم سألته: «أين تذهبون بعد الموت؟».
قال: «إلىٰ النعيم المقيم، أو العذاب الأليم». قلت: «لعلَّك تريد الجنة والنار!». قال: «لا أَفْهَم ما تقول، وإنَّما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيرًا علىٰ إحسانه، كما يأبىٰ عدله أن يسويَ بين المحسن والمسيء». قلت: «متَىٰ يكون المحسن محسنًا، والمسيء مسيئًا؟». قال: «الإحسان عمل الخير، والإساءة عمل الشرِّ، لذلك لا ترىٰ بيننا مَنْ يحدث نفسه بالإضرار بأخيه، أو من يقصِّر في دفع الأذىٰ عنه».
فقلت في نفسي: «ليتَ الفقهاءَ الذين يُنْفقون أعمارَهم في الحيض والاستحاضة، والمَذْي والوَدْي، والحدث الأكبر والحدث الأصغر، وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي، ويقرِّحون المآقي في عينيَّة الصفات وغيريَّتها، والجوهر والعرض، والحدوث والقدم، والدور والتسلسل، وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا اللهَ في مشيئته، ويجاذبوه قدرتَه، ويغالبوه علىٰ أمره ونهيه، ويزاحموه في لوحِهِ وقلمِهِ، يعرفون من سرِّ الدِّين وحكمته، والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء

البُلْه[1] الأغْرَار الذين لا يفهمون معنىٰ الجنة والنار، ولا يُميِّزون بين الدِّين والتين!».

فرغنا من الحديث، وعرضت علىٰ الشيخ أن يُزيرني المدينة، فانحدر بي إليها، فرأيتُ شوارعها فسيحةً منتظمةً، ومنازلها متفرقةً غير مُتَلاصقةٍ، وقَدْ أحَاط بكل منزلٍ منها حديقةٌ زاهرةٌ، ورأيتُ سُكَّانها مكبِّين علىٰ أعمالهم، مُجدِّين في شؤونهم، صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً، ما فيهم فقير يتسوَّل، ولا مُتَبَطِّلٌ يتثاءب ويتململ، وأغرب ما استهوىٰ نظري أني لم أرَ في تلك المدينة ذلك التفاوتَ الذي أعرفه في مدائننا بين الناس، في منازلهم ومراكبهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواء في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ: «ألا يوجد فيكم غني وفقير، وسيد ومسود؟». قال: «لا يا سيدي، حَسْبُ الرجل منا بيتٌ يأوي إليه، ومزرعةٌ يستغلها، ودابةٌ تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوىٰ ذلك؛ لذلك لا يوجد فينا سيدٌ ومسودٌ؛ لأنه لا يوجد فينا غنيٌّ وفقيرٌ». قلت: «لا بدَّ أَنْ يُوجَدَ بينكم العاجز عن العمل، والكسول المتبطل!». قال: «أمَّا الكسول، فلا وُجُودَ له بيننا؛ لأنه يعلم أنَّا لا نرحمه، ولا نغفر له زلَّته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل، وأما

---

(١) **البُلْه**: جمع أبْلَه وهو ضعيف العقل. «المعجم الوسيط» مادة (بله).

العاجز فنحدب(١) عليه، ونُحْسن إليه، ولا نرىٰ لأنفسنا في ذلك فضلًا؛ لأننا إنما نمنحه جزءًا من القوة التي منحنا الله إيَّاها لنعبده بها، ولا نرىٰ في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين».

وَإنَّه ليحدثني بهذا الحديث إذْ لاحت لنا بِنْيَةٌ فخمةٌ ضخمةٌ تمتاز عن غيرها من البُنَىٰ بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: «هل أرىٰ قصر الملك؟». قال: «لَا، وَلكنَّه قصر رجلٍ شريرٍ طماعٍ قد خالف إرادة الله وحكمته، فاحتجن(٢) دون عباده أرضَهم ومالهم؛ ليعلوَ عليهم، ويستأثر بالنِّعمة من دونهم، فَغَضب الله عليه، وقلبَ نعمتَه نقمةً، ورَخاءه شِدَّةً، فإنه ما أراح رائحةَ العيش الرغد حتىٰ أسلم نفسَه إلىٰ شهواتها، وَحمَّلها فوق ما تحمل طبيعتها، فهَا هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض، وأنواع الأسقام(٣) ما بغض إليه العيش، وَحبِّب إليه الموت، لم يحمه قَصْره، ولم يغن عنه ماله، فهو عبرة المعتبرين، وموعظة السابلين(٤)»، فكبُر الرجل في ذَرعي(٥)، وَعظُم في عيني، وأكبرتُ فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة،

---

(١) **نحدب**: نعطف. «المعجم الوسيط» مادة (حدب).

(٢) **احتجن مالهم**: ضمه إليه واختص نفسه به. «المعجم الوسيط» مادة (حجن).

(٣) **الأسقام**: الأمراض. «القاموس المحيط» مادة (سقم).

(٤) **السابلين**: أبناء السبيل المختلفون علىٰ الطرقات في حوائجهم. «لسان العرب» مادة (سبل).

(٥) **فكَبُر في ذرعي**: أي عظُم وقعه وجَلَّ عندي. «لسان العرب» مادة (ذرع).

والأخلاق العالية، وقُلْتُ في نفسي: «إنَّ مدارسنا علىٰ ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة، وأصول التربية، وفنون الآداب، لَتعجز عن أن تخرج للناس رجالًا يستطيعون أن يُسَاجلوا هؤلاء القوم في أخلاقهم وفضائلهم!»، وأَردتُ علىٰ ذِكْرِ المدارس أن أعرفَ مناهج التعليم عندهم، فقلت للشيخ: «هَلْ لك أن تُزيرني مدرسةً من مدارسكم؟»، فعجب لسؤالي وقال: «ما المدرسة؟!»، فكان عجبي لجوابه أكثرَ من عجبه لسؤالي، وقلت: «المدرسة مكانٌ محدودٌ يجتمع فيه صغارٌ يتعلمون، وكبارٌ يُعلِّمون». قال: «ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار؟». قلت: «ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم ومعادهم». قال: «وأيُّ حاجة بنا إلىٰ مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود؟! إننا يا سيدي أرحم بأبنائنا من أن نكِلَ أمرهم إلىٰ غيرنا، فنحن الذين نتولَّىٰ هذا الشأن منهم، فلا مدارسَ عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها، كيف يرمون البذورَ، وكيفَ يستنبتونها، وكيف يصنعون آلات الزراعة، وكيف يستعملونها، وفيها نُعلِّمهم كيف يبنون منازلهم، ويَنْسِجون ملابسهم، ويُعدُّون عُدَدهم، وإنَّا لا نعرف علمًا غير العمل، ولا نَعْرف من العمل غير ما نحفظ به قِوام حياتنا، ونستعين به علىٰ عبادة ربنا». قلت: «ألكم حاكمٌ يتولىٰ أموركم؟». قال: «لنا حَكَمٌ لا حاكمٌ، وهو رجلٌ قد وثقنا به وبفهمه واستقامة شأنه، فاخترناه لفَصْل الخصومات إنْ عرض من ذلك

عارضٌ». قلت: «أليس له جندٌ وأعوانٌ يؤيدونه، وينفذون أحكامه؟».
قال: «نعم، كلنا جنده، وكلنا أعوانه علىٰ كلِّ مَنْ يختلف عليه، أو يتمرد علىٰ حكمه، فقد وثقنا به وبعدله وكفىٰ». قلت: «أليس له سجنٌ يَحبس فيه المجرمين؟». قال: «لا، حسب المجرم عندنا عقوبةً أن يتفق أهل المدينة علىٰ احتقاره والزِّراية به، وإنَّ أحدنا ليؤثر أن يتخطَّفه الطير، أو يسقط عليه كِسَفٌ[1] من السماء قبل أن يرىٰ نفسه بغيضًا إلىٰ قومه، صغيرًا في نفوسهم، ذليلًا في أعينهم، لا يرفعون إليه طرفًا، ولا يُقِيمُونَ له وزنًا».

وَما وصلنا من حديثنا إلىٰ هذا الحدِّ حتىٰ كنا قد فَرغنا من الطواف بالمدينة، ووصلنا إلىٰ المنزل الذي خرجنا منه، فاستقبلنا أهلوه بالبِشْرِ والتِّرحاب، واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعِنَاقِ، فلم أر فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتًا أسعد حظًّا، ولا أنعم عيشًا، ولا أروح بالًا من هذا البيت.

تلك مدينة السعادة التي يعيش أهلها سعداء، لا يشكون هَمًّا؛ لأنهم قانعون، ولا يُمْسكون في أنفسهم حقدًا؛ لأنهم مُتَساوون، ولا يستشعرون خوفًا؛ لأنهم آمنون.

تلك مدينة السعادة التي رأيتها، فأحببتها، وأحببت العيش فيها لولا أنَّ لله في خَلْقه سُنَّةً لا تتبدل، وشأنًا لا يتحوَّل، فقد جاء الليل، وأخذت

(١) كِسْف: جمع كِسْفة، والكِسْفة هي القطعة من الشيء. «مختار الصحاح» مادة (كسف).

مكاني من مرقدي في منزل الشيخ، فلم أستيقظ حتىٰ رأيتُني في فراشي في منزلي، فلا السَّهل ولا الجبل، ولا الشيخ ولا المزرعة، ولا المدينة ولا السعادة.

ولما نزلنا منزلًا طَلَّه(١) الندىٰ
أنيقًا وبستانًا من النَّوْر(٢) حَاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه
مُنًىٰ فتمنينا فكنتِ الأمانيا

(١) طلَّه: أمطره مطرًا خفيفًا. «القاموس المحيط» مادة (طلل).
(٢) النَّوْر: الزهْر الأبيض. «المعجم الوسيط» مادة (نَوَر).

أيها المَحْزونُ

إنْ كنتَ تعلم أنك قد أخذت علىٰ الدَّهر عهدًا أن يكونَ لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحبُّ وتشتهي، فَجديرٌ بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عِنانها كلَّما فاتك مأربٌ، أو استعصىٰ عليك مطلبٌ، وَإنْ كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردها، وعطائها ومنعها، وأنها لا تنام عن منحةٍ تمنحها حتىٰ تكُرَّ عليها راجعةً فتستردها، وأنَّ هذه سنتها، وتلك خَلَّتها في جميع أبناء آدم، سواءٌ في ذلك ساكن القصر، وساكن الكوخ، ومَنْ يطأ بنعله هام الجوزاء، ومَنْ ينام علىٰ بساط الغبراء، فَخفِّضْ من حزنك، وكفكف من دمعك؛ فما أنتَ بأول غرضٍ أصابه سهم الزمان، وما مُصَابك بالبدعة الطريفة في جريدة المصائب والأحزان.

أنتَ حزينٌ؛ لأنَّ نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتَراءىٰ لك في سماءِ حياتك، فيملأ عينيك نورًا، وقلبك سرورًا، وما هي إلا كرةُ الطرف أن افتقدته، فما وجدته، ولو أنَّك أجملت في أملك، لَما غلوت في حزنك، ولو كنت أنعمت نظرك فيما تراءىٰ لك، لرأيت برقًا خاطفًا، ما تظنه نجمًا زاهرًا، وهنالك لا يَبهَرك طلوعه، فلا يفجعك أفوله.

أسعدُ الناس في هذه الحياة مَنْ إذا وافته النعمة، تنكَّر لها، ونظر إليها نظرةَ المستريب بها، وترقَّب في كلِّ ساعةٍ زوالَها وفناءَها، فإنْ بقيت في يده فذاك، وإلا فقد أعدَّ لِفراقها عُدَّته من قبل.

لولا السُّرورُ في ساعة الميلاد، ما كان البكاء في ساعة الموت، ولولَا الوثوق بدوَام الغنىٰ، ما كان الجزع من الفقر، ولولا فرحة التلاق، ما كانت تَرحة الفراق.

إلى الدَّير

مسكين ذلك الفتىٰ الذي رأيته صباح أمس منزويًا في ركنٍ من أركان أحد الأندية، وقد ظلَّلت جبينَه الوضاح سحابةٌ سوداء من الحزن، وانحنىٰ علىٰ نفسه كأنما شعر بأن قلبه يتمشَّىٰ في صدره، وأنه يحاول الفرار منه، فهو يَعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنه أراد بنفسه خيرًا لَتركه يمضي في سبيله حيث شاء، فبُعْدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان، ولا يُفيق من الهموم والأحزان! سألته: «ما بالك أيُّها الصديق؟». قال: «لا شيءَ». قلت: «أنت تَكْتمني ما في نفسك، ولو عرفتني ما كتمتني». قال: «ما جهلتك مُذْ عرفتك، ولكني أعطيت الله عهدًا مُذْ خُلقت ألا أشكوَ إلا إلىٰ مَنْ أرجو عنده البُرْء، وما أنا براجٍ عندك، ولا عند أحدٍ من الناس بُرءًا من دَائي». قلت: «هبني طبيبًا، والطبيب وإنْ كان لا يشفي إلا نادرًا، فإنَّه يُسكِّن غالبًا، ويعزي دائمًا، فأنا إن عجزت عن معالجتك، فلا أعجز عن تعزيتك، علىٰ أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلىٰ التنفيس عنه، وإلا طارَ بالقِدْرِ طيرانَ الهمِّ بالصدر».

فأَصْغَىٰ إلىٰ كلماتي، واسْتَخْذىٰ لها، وأنشأ يُحدِّثني حديثًا تُمَازِجُه العبرات، وتقطعه الزفرات، ويقول: «زوَّجني أبي منذ سنين من زوجةٍ جاهلةٍ غبيةٍ لا تفهم من معنىٰ الزواج إلا أن فيه قضاءَ لُبانتها، وترفيهَ عيشها، وإرضاءَ نفسها، وهو يحسب أنَّه قد أحسن إليَّ بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور، أجلْ إنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب عليه -غفر الله له- أني ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالًا، بل زوجًا أجد بجانبي نفسًا يؤنسني محضرها، ويوحشني مَغيبُها، ومرآة صافية نقية أتراءىٰ فيها فتريني نفسي كَمَا هي لا تَكذبني في خيرٍ، ولا شَرٍّ، إنِّي أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقًا في المرتبة العليا من مراتب الصداقة، ومَنْ لي به في امرأةٍ تجهل حتىٰ إرضاعَ طفلها، ولُبس ثوبها علىٰ أنَّ ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها، فقد كان لها خادمة لملابسها، وأخرىٰ لشعرها، وأخرىٰ لسريرها، وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة[1] وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يُغِبُّ[2] زيارتها، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها، ولَمْ تكن ممَّن أنعم الله عليهنَّ

---

(١) **القهرمانة**: مُدَبِّرة البيت ومتولية شؤونه. «المعجم الوسيط» مادة (قهر).

(٢) **يغِبُّ زيارتها**: يأتيها يومًا ويتركها يومًا. «المعجم الوسيط» مادة (غبب).

بنعمة الجمال، فكانت تنفق ما يَزيد علىٰ نصف دَخْلها في الحسن المجلوب، والجمال المكذوب، وليتها كانت تُغفِل أمري، وتتركني وشأني، فأستطيعَ أن أتناساها، وأعدَّ نفسي من العُزَّاب تخيلًا وتقديرًا، بَلْ كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجَحْفَل(١) اللجَب(٢) المحيط بها، حَرسًا كحُرَّاس الليل، وَجَواسيس كجواسيس الإنكليز يراقبن مواقع نظري، ومواطئ قدمي؛ لتعلم أين مذهب قلبي، ووجهة نفسي، فتغار عَليَّ من الكوكب إذا رأتني أنظر إليه، وتكاد تمزق الثوب الذي أحبه، وأتعشَّق لبسه، وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب إذا رأتني أتأوَّه من آلام عشرتها، أو أبكي لعظم مصيبتي فيها، وما هي بغيرة الحب، ولكنها الأثرة(٣) قَبَّحها الله، وقَبَّح كل ما تأتي به! وأكثر ما كان يغيظني منها أنها ما كانت تفتح عليَّ باب الحساب علىٰ اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي، فما أكاد أنتفع بِوَاحِدٍ منهما، فإنْ سكتُّ أغْضَبها سكوتي، وإن نطقتُ أغضبها حديثي، وإن قرأتُ في كتابي ظنَّت أنَّ

(١) **الجَحفل**: الجيش. «مختار الصحاح» مادة (جحفل).

(٢) **اللَّجَب**: ذو الجلبة والصياح. «القاموس المحيط» مادة (لجب).

(٣) **الأَثَرَة**: تفضيل الإنسان نفسه علىٰ غيره. «المعجم الوسيط» مادة (أثر).

المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكايةً بالنساء لكي يتخذها الرجال معتصَمًا يعتصمون به من محادثتهنَّ ومسامرتهنَّ، فكان الكتاب في نظرها أعْدَىٰ أعدائها، وأبغضَ الأشياء إليها. وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلةً لاهيةً لاعبةً في جميع أطوار حياتها، وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها، ودُمية[١] قصرها، وأداة لهوها ولعبها، فلا أقرأ، ولا أكتب، ولا أعطي نفسي حقًّا من حقوقها، ولا أُبكِّر لمزاولة أعمالي، ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملَّة التي لا تشتمل إلا علىٰ نقد الأزياء، واغتياب النساء، فإن وافيتُ رغبتها فذاك، وإلا استحالت[٢] في لحظةٍ واحدةٍ من إنسانٍ ناطقٍ إلىٰ وحشٍ مفترسٍ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تُسمِعُنيها، ولا تترك وسيلةً من وسائل التنغيس لا تَهْجُم بها عليَّ، فكنت بين أَلَمِ رِضَاهَا، وعذاب غضبها في شَقَاءٍ حَبَّب إليَّ الموت، وبَغَّض إليَّ وجه الحياة. وبعدُ: فقد رأيتُ أن العيش معها مستحيلٌ، فلم أرَ بُدًّا من فراقها، ففارقتها، وما علىٰ وجه الأرض شيءٌ أبغضُ إليَّ من المجد، ولا أسمج في نظري من المال». قلت: «وَلكنِّي لا أزال أرَاك حزينًا بعد ذلك». قال:

---

(١) **الدُّمية**: الصنم المُزيَّن يضرب به المثل في الحُسن. «المعجم الوسيط» مادة (دمي).

(٢) **استحالت**: انقلبت عن حالها. «مختار الصحاح» مادة (حول).

«نعم؛ لأنَّني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة، ورحت أُفتِّش عن الزوجة المتعلمة، وقلت: «ليكونن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول بعدما صار إليَّ الخيار، وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار»، فهيأ لي الحظُّ جارًا ملاصقًا ما زلت أسمع مُذْ حلَّ في جواري أن في بيته فتاةً جميلةً ما زال يُعنَىٰ بأمرها حتىٰ خَرَّجها وأدَّبها، فأصبحت نابغةَ مدرستها، وسيدة أترابها؛ علمًا وفضلًا وتهذيبًا وأدبًا، فما قنعت بالخبر حتىٰ خالطت أباها، ثم خالطتها، فَإِذَا المَرأةُ الجَديدةُ من جميع وجوهها، فوقعت من نفسي أحسن موقع، وحَلَّتْ مكانًا لم يكن حلَّ من قبل.

«خطبتُ الفتاة إلىٰ أبيها، فما لبث أن أخطبني، فامتلأ قلبي فرحًا وسرورًا، وخُيِّل إليَّ أنَّني أرىٰ في سماء الآمال نجمًا لامعًا يدنو مني قليلًا قليلًا، وَسَجَّلت أن الدهر أنشأ يكفِّر بحسناته ما أسلف من سيئاته، فإنِّي لكذلك، وقد أعددت للبِناء بها عُدَّته، ولم يبق بيني وبينه إلا يومٌ واحدٌ، وإذا برسول البريد قد جاءني بهذا الكتاب، فهاكه فاقرأه، فإن فيه بقية قصتي، وسرُّ نكبتي»، ثم ألقىٰ إليَّ بغلافٍ معنونٍ باسمه، فوجدت فيه بطاقةً تشتمل علىٰ رسم فتىٰ حسن الصورة والهندام، يخاصر فتاة جميلة، وقد ألقت برأسها علىٰ كتفه، ووجدت مع البطاقة كتابًا، فقرأت فيه ما يأتي:

«علمت أنك خطبت فلانة إلىٰ أبيها، وأنك عمَّا قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذَبَك نظرك وخدعك، من قال لك: إنَّك ستكون سعيدًا بها! فإنَّها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك، ولا يَخلُص حبُّك إلىٰ قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها، فاعدل عن رأيك فيها، وانفض يدك منها، وإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو ذلك العاشق، وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي؛ فانظر إلىٰ الصورة المرسلة مع هذا الكتاب».

التوقيع:

فما نظرتُ الصورة، وقرأتُ الكتاب حتىٰ عرفت كل شيءٍ، فأحسستُ برِعْدةٍ تتمشَّىٰ في أعضائي، وشعرتُ بسحابة سوداء قد غشت علىٰ نظري لهَوْل ما سمعت، وسوء ما رأيت، إلا أنني تماسكت قليلًا، فأعدتُ إليه كتابه، وقلتُ له وهو كل ما استطعت أن أقول: «ماذا يَعنيك من أمر فتاةٍ فاجرةٍ عاهر بعدما انكشف لك سرُّها، وظهرت لك حقيقتها؟ ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن علىٰ فوتها إلىٰ الاستغفار من حُبِّها، وحَمْدِ الله علىٰ ما أَلْهَم من صواب الرأي فيها، أمَّا إنْ سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن، فإنِّي لا أرىٰ لك إلا أن تَترهَّب وتتعزَّب، وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد في الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة، وأدرك خبيئة نفسها: «إلىٰ الدير! إلىٰ الدير!»».

الرَّحْمَةُ

سَأكُون في هذه المرة شَاعرًا بلا قَافِيَةٍ، ولا بَحْرٍ؛ لأني أريد أن أخاطبَ القلب وجهًا لوجهٍ، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا سبيل الشعر.

إنَّ البذورَ تُلْقىٰ في الأَرْض، فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافِلَها، وكذلك القلبُ لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته، وتخللت أجزاءه، وبلغت سُوَيداءه، ولا محراثَ للقلب غير الشِّعر.

أَيُّها الرجل السَّعيد، كُنْ رحيمًا، أشعر قلبَك الرحمةَ، ليكن قلبُك الرحمةَ بعينها.

ستقول: إنِّي غير سعيدٍ؛ لأن بين جنبيَّ قلبًا يُلمُّ به من الهمِّ ما يُلمُّ بغيره من القلوب، أجل فليكن ذلك كَذَلك، ولكن اطعم الجائع، واكس العاري، وعَزِّ المحزون، وَفرِّج كربة المكروب؛ يكن لك من هذا المجتمع البائس خيرُ عزاءٍ يعزيك عن هُمُومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النُّور من سَوَاد الحلك؛ فالبَدْرُ لا يطلع إلَّا إذا شقَّ رداء اللَّيل، والفَجر لا يَدرُج إلَّا من مهد الظلام.

لقد بَليَتِ اللَّذَّاتُ كلُّها، وَرثَّت حبالُها، وأَصْبَحت أثقلَ علىٰ النفس من الحَديث المعاد، ولم يبقَ ما يُعزِّي الإنسان عنها إلا لذة واحدة، هي لذة الإحسان.

إنَّ منظرَ الشَّاكر منظرٌ جميلٌ جذابٌ، ونغمة ثنائه وحمده أوْقَعُ في السمع من رنات العود في هَزَجه ورَمَله(١)، وأعذبُ من نغمات مَعبدٍ في الثقيل الأول.

أَحْسِنْ إلىٰ الفقراء والبائسين، وأعدك وعدًا صادقًا أنَّك ستمرُّ في بعض لياليك علىٰ بعض الأحياء الخاملة، فتسمع مَنْ يحدِّث جاره من حيث لا يعلم بمكانك منه، أنك أكرم مخلوق، وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلتَ، فيدعو صاحبُهُ بدعائه، ويرجو برجائه؛ وهنالك تجد من سرور النفس وحُبُورها بهذا الذِّكر الجميل في هذه البيئة الخاملة ما يجده الصَّالحون إذا ذُكِرُوا في الملإ الأعلىٰ.

لَيْتك تبكي كلما وقع نظرك علىٰ محزونٍ أو مفؤودٍ(٢)، فتبتسم

---

(١) هزجه ورمله: أي صوت ونغمات العود.

(٢) مفؤود: أصابه داءٌ في فؤاده. «المعجم الوسيط» مادة (فأد).

سرورًا ببكائك، واغتباطًا بدموعك؛ لأن الدموعَ التي تنحدر علىٰ خدَّيك في مثل هذا الموقف، إنَّما هي سطورٌ من نورٍ تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان.

إنَّ السماء تبكي بدموع الغمام، ويخفُق قلبها بلمعان البرق، وتصرخ بهدير الرعد، وإنَّ الأرضَ تئنُّ بحفيف الريح، وتَضجُّ بأمواج البحر، وما بُكَاءُ السماء ولا أنينُ الأرض إلا رحمة بالإنسان، ونحن أبناء الطبيعة، فلنُجَارها في بكائها وحنينها.

إنَّ اليدَ التي تَصون الدُّموع أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصُّدور أشرفُ من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد، وأشرف من المجاهد، وكَمْ بين مَنْ يُحْيي الميت، ومَنْ يميت الحيَّ.

إن الرحمةَ كلمةٌ صغيرةٌ، ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها، والشمس في حقيقتها.

إذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالَّته من القلب الرحيم؛ وَجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء.

لو تراحم الناسُ، لما كان بينهم جائعٌ، ولا عارٍ، ولا مغبونٌ، ولا مهضومٌ، ولأقفرت الجفون من المدامع، واطمأنت الجُنُوب في

المضاجع، ولَمَحتِ الرحمةُ الشقاءَ من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مدادَ الظلام.

لم يخلق اللهُ الإنسانَ ليقتِّر عليه رزقه، ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعًا، بل أرادت حكمتُهُ أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيهِ مؤونته، ويسدُّ حاجته، وَلكن سلبه الرَّحمة، فبغَىٰ بعضه علىٰ بعضٍ، وغدَر القويُّ بالضعيف، واحتجن دونه رزقَه، فتغيَّر نظام القسمة العادلة، وتشوَّه وجهها الجميل، ولو كان للرَّحمة سبيلٌ إلىٰ القلوب، لما كان للشقاء إليها سبيلٌ.

الفَردُ هو المجتمعُ، وإنما يتعدَّد بِتَعَدُّدِ الصُّور، أتدري متىٰ يكون الإنسان إنسانًا؟ متىٰ عرف هذه الحقيقةَ حقَّ المعرفة، وأَشْعَرها نفسَه، فخفق قلبه لخَفَقان القلوب، وَسَكن لسكونها، فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها، واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع، فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

وَجِماع القول: أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء، وشقوة الأشقياء في مكانٍ واحدٍ، إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعةٍ واحدةٍ المَلِكُ الرحيم، والشيطان الرجيم!

إنَّ من النَّاس مَنْ تكون عنده المعونة الصالحة للبِرِّ والإحسان، فلا

يفعل، فإذا مشىٰ مشىٰ مندفعًا مندلثًا[١] لا يلوي علىٰ شيءٍ مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقَع نظره علىٰ بائسٍ، لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب[٢] في الضحك سخريةً به، وببذاذة[٣] ثوبه، ودَمَامة خَلْقه. وَإنَّ من النَّاس مَنْ إذا عاشرَ الناسَ، عاشرهم ليعرف كيف يحتلب دِرَّتهم[٤]، ويمتصُّ دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شُوَيهاته وبقراته، لا يقربها ولا يطعمها ولا يَسقيها إلا لما يترقب من الرِّبح في الاتِّجار بألبانها وأصوافها، ولو استطاع أن يهدم بيتًا ليربح حجرًا لفعل! وإن من الناس مَنْ لا حديث له إلا الدينار، وأين مستقره، وكيف الطريق إليه، وما السَّبيل إلىٰ حبسه، والوقوف في وجهه، والحَيطة لفراره، يبيتُ ليله حزينًا كئيبًا؛ لأنَّ خزانته ينقصها درهم كان يتخيَّل في يقظته أو يرىٰ في منامه أنه سيأتيه، فلم يُقيَّض له. وإنَّ من الناس مَنْ يؤذي الناس، لا يَجلُب بذلك لنفسه منفعةً، أو يدفع عنها مضرةً، بل لأنه شريرٌ يدفعه طَبعُهُ إلىٰ ما لا يعرف وجهه، أو لِيُضرِّي[٥] نفسه بالأذىٰ مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه، حتىٰ لو لم يبقَ في العالم شخصٌ غيره لكانت نفسُهُ مذبَّ عقاربه، وغرض سهامه! وإن من الناس من إذا كَشَف لك عن أنيابه،

(١) **مندلثًا**: متقدمًا بلا فكرة ولا رَويَّة. «لسان العرب» مادة (دلث).

(٢) **الإغراب**: المبالغة. «القاموس المحيط» مادة (غرب).

(٣) **بذاذة ثوبه**: رثاثة هيئته. «لسان العرب» مادة (بذذ).

(٤) **الدِّرَّة**: كثرة اللبن وسيلانه. «مختار الصحاح» مادة (درر).

(٥) **ليضرِّي نفسه**: أي ليعوِّد نفسه كما يدرب الكلب علىٰ الصيد.

رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالبَ حادةً لا تسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجرًا صَلدًا من أحجار الغرانيت لا يَبِضُّ[١] بقطرةٍ من الرحمة، ولا تَخْلُص إليه نسمةٌ من العظة.

فَيا أيُّها الإنسان، احْذَر الحذرَ كلَّه من أن تكون واحدًا من هؤلاء، فإنَّهم سِبَاعٌ مفترسةٌ، وَذئابٌ ضاريةٌ، بل أعظك ألا تدنوَ من أحدهم، أو تعترض طريقَه، فربَّما بدا له أن يأكلك، فأكلك غيرَ حافلٍ بك، ولا آسفٍ عليك.

أيُّها الإنسان، ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صِبْيةٍ صغارٍ، ودموعٍ غزارٍ، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها، ويعبث الهمُّ بقلبها، فتفضل الموت علىٰ الحياة.

ارحم المرأة الساقطة لا تُزيِّن لها خلالها، ولا تشتر منها عرضها؛ علَّها تعجز عن أن تجد مُسَاومًا يساومها فيه، فتعود به إلىٰ كسر[٢] بيتها.

ارحم الزوجة أمَّ ولدك، وقعيدة بيتك، ومرآة نفسك، وخادمة فراشك؛ لأنها ضعيفةٌ، ولأن الله قد وَكَل أمرها إليك، وما كان لك أن تُكذِّب ثقته بك، واعتماده عليك.

---

(١) **يبضُّ**: يسيل. «لسان العرب» مادة (بضض).

(٢) **كِسْر**: جانب. «المعجم الوسيط» مادة (كسر).

ارحم ولدَك، وأحسن القيام علىٰ جسمِهِ ونفسِهِ؛ فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته، فكنت أظلم الظالمين.

ارْحَم الجاهلَ، لا تتحيَّن فرصةَ عجزه عن الانتصاف لنفسه، فتجمعَ عليه بين الجهل والظلم، ولا تتَّخذ عقله متجرًا تربح فيه ليكون من الخاسرين.

وارحم الحيوان؛ لأنه يحسُّ كما تحسُّ، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموعٍ، ويتوجع ولا يكاد يُبِينُ، ارحمه وكذب من يقول: إن الإنسان طُبِعَ علىٰ ضرائب لؤم أقلها أنه يقبِّل يد ضاربه، ويضرب من لا يمدُّ إليه يدًا.

ارحم الطُّيور، لا تحبسها في الأقفاص، ودَعْها في فضائها تَهيم حيث تشاء، وتقع حيث يَطيب لها التغريد والتنقير، إنَّ الله وهَبها فضاءً لا نهاية له، فلا تَغْتصبها حقها، فتضعها في محبسٍ لا يسع مَدَّ جناحها، أطلِقْ سبيلَها، وأطلِقْ سَمعَك وبصرَك وراءها لتسمعَ تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلىٰ شواطئ الأنهار، وترَىٰ منظرها وهي طائرةٌ في جوِّ السَّماء، فيخيل إليك أنها أجمل من منظَر الفلك الدائر، والكوكب السَّيَّار.

أيُّها السعداء، أحسنوا إلىٰ البائسين والفقراءِ، وامسحوا دموع الأشقياءِ، وارحموا مَنْ في الأرض، يَرْحَمْكم مَنْ في السماء.

رسالة الغفران

غَفوتُ إغفاءةً طويلةً لا عِلْمَ لي بمداها، ولا بما وقَع لي فيها، ثمَّ صحوت، فرأيت نفسي في صحراء مد البصر، مكتظةٍ بأنواعٍ من الخَلْقِ لا أُحْصيهم عددًا، فعلمت أنِّي بُعِثْتُ، وأنَّه يوم القيامة، فَسَاوَرنِي من الهمِّ ما ساورني حين ذكرت أنَّ مقداره أَلْفُ سنةٍ من سني القيامة، وقلت: «مَنْ لي بالصبر علىٰ موقفٍ يَهْلِك فيه صاحبهُ ظمأً وجوعًا، ويحترق تحت أَشعَّة شمسٍ ليس بينه وبينها إلا قِيدُ ظُفْرٍ!»، فتماسكت بضعة أشهر، ثُم لَمْ أجد بعد ذلك إلىٰ الصَّبر سبيلًا، فزَيَّنتْ لي نفسي الكاذبة أن أذهبَ إلىٰ «رضوانَ» خازن الجنة، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحِمَه، وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فمَا زِلْتُ أرقيه[1] بقصائد المدح المسوَّمة باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أَبَه[2] لي، ولا فهم كلمةً مما أقول، فانصرفت عنه إلىٰ خازنٍ آخر اسمهُ «زُفَرُ»، فَكَان شأني معه شأني مع صاحبه إلا أنه كان أرقَّ منه قلبًا، وأَلْين جانبًا؛ فأشارَ عَليَّ بالذَّهاب إلىٰ النبي الذي أتبعه،

(١) أرقيه: أتملَّقُه. «المعجم الوسيط» مادة (رقي).

(٢) أبه: احتفل. «لسان العرب» مادة (أبه).

وأفهمني أن الأمرَ موكولٌ إليه، فعُدْتُ وبين جنبيَّ من الحسرة والوجد ما اللهُ عالمٌ به، فبينا أنا أتخلَّل الصفوف، وأُزَاحم الوقوف، إذ وقَع بصري علىٰ حَلْقةٍ من الناس تحيط بشيخٍ هَرَمٍ، أنعمت النظر فيه، فإذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي، وإذا بالمُحْتفلين به جماعة من شعراء العرب، كلهم يخاصمه، وكلهم يَنقِمُ عليه، هذا يقول له: «رويتَ بيتي علىٰ غير وجهه»، وذاك يقول: «أعربته علىٰ غير ما أردتُ وذهبتُ»، فدفعني الفضول كما دَفعهم إلىٰ النزول في ميدانهم، فمَا فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتىٰ أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: «قَبَّح الله الشِّعر والإعراب، واللغة والأدب، إنهما شؤم الآخرة والأولىٰ!».

وَقَفتُ أحيرَ من ضَبٍّ في حَمارَّةِ[1] قيظٍ، لا أدري ما آخُذُ، وما أدعُ حتىٰ رميتُ بطرفي، فإذا بأمير المؤمنين عليِّ ابن أبي طالبٍ في لفيفٍ من العِتْرةِ الطاهرة النبوية، فدَلَفت[2] إليه وأبْثثْتُه[3] أمري، وأمر الشهادة المفقودة، فَقَال: «لا عَليكَ، ألَكَ شاهدٌ بالتوبة؟»، فقُلْتُ: «نعم»، فنُودِيَ بشهودي، فشهدوا بتوبتي، فقال: «تَريَّثْ قليلًا حتىٰ تمرَّ فاطمة بنت

(١) **حمارَّة قيظ**: اشتد حرُّه. «المعجم الوسيط» مادة (حمر، قيظ).

(٢) **دلف**: مشىٰ رويدًا وقارب الخطو. «المعجم الوسيط» مادة (دلف).

(٣) **أبثثته أمري**: أطلعته عليه وأظهرته له. «لسان العرب» مادة (بثت).

مُحمَّد، فنسألها في أمرك؛ فهي تَمتُّ[١] إلىٰ أبيها بما لا نَمتُّ به»، وكانت ممن قُسِمَ لهم دُخُولُ الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرج كلَّ حينٍ للتسليم علىٰ أبيها، ثم تعود إلىٰ مستقرها، فَإنَّا لَكذَلك، وإذا بمُنَادٍ يُنَادي: أَنْ غُضُّوا أبصارَكم يا أهلَ الموقف حتىٰ تَعْبُرَ فَاطمةُ بنت مُحمَّد ﷺ، فَهَرعتُ إليها، فرأيتها رَاكبةً مع إخوتها وجواريها علىٰ أفراسٍ من نورٍ، وتَقدُّم مَنْ وَعَدنِي بسؤالها في أمري، فأنجز وَعْده، فقالت لأخيها إبراهيم: «دونك الرجلَ»، فقال: «تَعلق برِكَابِي»، فتعلقتُ، فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال، وتتخطَّىٰ رؤوس القرون حتىٰ وافينا النبي ﷺ واقفًا لشهادة القضاء، فقصَّت عليه فاطمة ما عَلمَتْ من أمري، فرَاجع الدِّيوان الأعظم، فَوجد اسمي في التائبين، فشفع لي، فعُدْتُ في رَكْبِ فاطمة فرِحًا مُسْتبشرًا، وما كنت أُقدِّر أنَّ بين يَدَيَّ عقبة الصراط، فلما وافيته وجدتُني لا أستمسك عليه لرقَّته، فَأمَرَتْ فاطمة جاريةً من جواريها أنْ تعبر معي، فأَمْسَكتْ بيدي، فمشيت أترنَّح ذات اليمين وذاتَ الشمال، وخِفْتُ السقوط، فقُلْتُ لها: «احمليني زقفونة». فقالت: «وما زقفونة؟»، فقلت: «أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب:

صَلَحتْ حالتي إلىٰ الخلْفِ حتَّىٰ
صرتُ أمشي إلىٰ الورىٰ زَقفُونه»

---

(١) تمتُّ: تتوسل. «المعجم الوسيط» مادة (متت).

فَقَالت: «ما سمعتُ بزقفونة، ولا الجحجلول، ولا كفر طاب»، فقلت: «ألقي يديَّ فوق كتفيك، وأجعلُ بطني إلىٰ ظهرك»، فحملَتني وجازت بي الصراطَ كالبرق الخاطف حتىٰ صرت إلىٰ باب الجنة، فرُمْتُ الدخول، فوقف رضوانُ في وجهي، وقال: «أينَ جَوازك؟[١]»، فَبعِلتُ[٢] بالأمر، ثم رأيت في دِهليز الجنة شجرةَ صَفصاف، فعالجتُهُ علىٰ أن يعطيني منها ورقةً أعود بها إلىٰ الموقف لأستكتب عليها الجواز، فأبىٰ، فقلتُ وقد مَلك الهمُّ عليَّ رشدي وصوابي: «أما والله، لو أنك حارسٌ علىٰ أبواب الكرماء، أو خازنٌ لخزائن الملوك والأمراء، لَمَا وصلَ شاعرٌ إلىٰ درهمٍ، ولا سائلٌ إلىٰ سُحْتوتٍ[٣]، ولهلك الفقراء هَمًّا وحزنًا!»، فسمع إبراهيم عليه السلام حِواري[٤]، فجذبني جذبةً حَصَّلني بها في الجنة، وَصاحبي ينظر إليَّ شزْرًا، فَدَخلتُ، فرأيتُ ما لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمعتْ، ولا خَطر علىٰ قلبِ بشرٍ.

---

(١) **الجَوَازُ**: وثيقة المسافر لإثبات شخصيته في السفر. «المعجم الوسيط» مادة (جوز).

(٢) **بَعِلتُ**: دهشتُ فلم أدرِ ما أصنع. «القاموس المحيط» مادة (بعل).

(٣) **السُّحتوت**: السَّويق القليل الدَّسَم، والنَّزرُ القليل من أي شيء. «المعجم الوسيط» مادة (سحت).

(٤) **حِواري**: مجادلتي. «المعجم الوسيط» مادة (حور).

رأيتُ أنهارًا من الماء العذب أصفىٰ من أديم السَّماء، وأصقل من مرآة الحسناء، تنصبُّ فيها جداولُ من الكوثر، إذا جرَعَ الشارِب منها جَرْعَةً، جرع ماء الحياة، وأمن أن يذوق كأس المَنُون مَرَّةً أخرىٰ، ورأيت جداولَ تَفيض بالراح فيضًا قد زُيِّنت حوافيها بأباريقَ من العَسْجَدِ، وكؤوس من الزَّبرجد، فما نهلتُ منها نهلةً حتىٰ قلت: «لو كُشِفَ لأهل العاجلة عمَّا في هذه الخمرة من اللَّذَّة التي لا يشوبها كدرٌ، والنشوة التي لا يَعْقُبها خُمار[١] ما باعوا قطرةً منها بكل ما تشتمل عليه بابلُ وقُطربُّلُ من البواطي[٢] والدنان، ولو نظر الأُقَيْشِر الأسدي بعين الغيب إلىٰ عسجد هذه الأباريق، وزبرجد تلك الكؤوس، لَخجل من نفسه أن يقول:

أفنىٰ تِلادي[٣] وما جمَّعتُ من نَشب[٤]

قرعُ القوازيز[٥] أفواهَ الأباريق»

(١) **خُمار**: ما تصيبه الخمر من ألم وصداع. «لسان العرب» مادة (خمر).

(٢) **البواطي**: جمع باطية، وهي إناء من الشراب يغرفون منه ويشربون. «لسان العرب» مادة (بطىٰ).

(٣) **تلادي**: مالي. «المعجم الوسيط» مادة (تلد).

(٤) **النشب**: المال والعقار. «مختار الصحاح» مادة (نشب).

(٥) **القوازيز**: جمع قازوزة وهي قدح كالقارورة الصغيرة. «المعجم الوسيط» مادة (قزز).

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها علىٰ صور الطيور كالكراكي والطواويس والبط والعندليب، ينحدر من مناقيرها شراب أرقُّ من السراب، وتسبح فيها أسماكٌ من الذهب والياقوت.

يَعُمـــن فيهـــا بأوســـاط مجنَّحـــةٍ[١] كـــالطير تنشـــر في جـــوٍّ خوافيهـــا

ورأيت أنهارًا من لبنٍ، وأنهارًا من عسلٍ، لا يدرك الوَهمُ كُنْهه إلا إذا أدرك ما يمتصُّ نحل الجنة من زهورها وأنوارها.

رَأيتُ جميعَ تلك الأنهار مُكبَّرةً، ثم تمثَّلت في نظري مصغَّرةً، فإذا هي سطورٌ من النور، وأحرف بيضاء في صَحيفَةٍ خضراء، قرأتها فرأيتها: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥].

ظللت أمشي، فما أكاد أخطو خطوةً حتىٰ أرىٰ منظرًا عجيبًا يُنسي السابق، ويشوقُ إلىٰ اللاحق، فوددت لو طُويت لي الأرض طيًّا، فأتعجل النظر إلىٰ ما غاب عني من الجنة وبدائعها، فمَا أخَذ هذا الخاطرُ مكانه من نفسي حتىٰ رأيت بين يدي فرسًا من الجَوهر المتخيَّر مسرجًا ملجمًا، فعَلمتُ أنِّي قد سعدت، وأنها الأُمنيَّة التي كنت أتمناها، فعلوت ظهره، وغمزته غمزة

(١) **مجنحة**: ذات أجنحة يخفق بها في الطيران. «المعجم الوسيط» مادة (جنح).

خرج بها خروج الوَدْق[١] من السحاب، والسيف من القراب، وعلىٰ ما جَهَدتُه لم يشكُ إليَّ ما شكاه جواد عنترة إليه في قوله:

فـــازوَرَّ مـــن وقـــع القنـــا بلَبانـــه
وشـــكا إلـــيَّ بعَبـــرة وتحمحـــم

أو مَا شكاه جواد عمر ابن أبي ربيعة إليه في قوله:

تَشكي الكُمَيْت الجريَ لما جَهدتُـه
وبـــيَّن لـــو يَسْـــطيعُ أن يتكلَّمـــا

ذَكرت أنِّي وأنَا في الدَّار الفانية كنت أسمع بذِكْرِ الذَّاهبين الأوَّلين من الأُدَباء والشعراء والرواة، فآسفُ علىٰ أن لم أكن في زمنهم أراهم، وأحضرُ مجالسهم؛ فقلت: «ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار! وهل سَعِدوا أو شَقوا، وهل يقيَّض لي من رؤيتهم في دار البقاء ما لم يُقيَّضْ في دار الفناء؟».

ثم رميت بطرفي، فإذا فارسٌ يحضر فرسه[٢] في الهواء إحضارًا حتىٰ تقاربنا، فتماسَّت الرُّكب، واختلفت الأعناق. فقال: «انتسب». فقلت:

---

(١) **الودق**: المطر.

(٢) **أحضر الفرس**: وثب في عدوه. «المعجم الوسيط» مادة (حضر).

«فلان، ومَنْ أنت -يرحمك الله- وقد فعل؟» فقال: «عدي بن زيد العبادي»، فدهشت وقلت: «عديٌّ بن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال!»، فقال: «أنا عيسوي، وأنت محمديٌّ، وليس لصاحبك علىٰ أحدٍ حجةٌ إلا بعد ظهوره وبلوغ دعوته»، فقلت: «لا نكران، ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك في قولك:

بَكَــر العَــاذِلُونَ[١] في وضــح الصُّبـــ
ـــح يَقُولــون لــي أمــا تســتفيقُ
وَدَعَــوا بالصَّــبوح[٢] فجــرًا فجــاءت
قَيْنـــة[٣] في يَمِينِهـــا إبريـــقُ»؟

قال: «غَفرَ الله لنا ما غفر لكم». قلت: «هل لك عِلْمٌ بجماعة الشعراء والرواة؛ فقد تَمنَّيت علىٰ الله أن أراهم، فكنتَ عنوان الكتاب، وفاتحة الإجابة؟».

فقال: «اصْحَبْني»، فطارت بنا الخَيلُ. فقلت له: «هل آمنُ ألا يقذفَ بي هذا السَّابحُ علىٰ صَخْرةٍ من الزمرد، أو هضبةٍ من الياقوت، فيكسر لي

(١) **العاذلون**: اللائمون. «المعجم الوسيط» مادة (عذل).
(٢) **الصَّبُوح**: الخمر. «لسان العرب» مادة (صبح).
(٣) **القَيْنة**: الأَمَة مُغنية كانت أو غير مغنية. «مختار الصحاح» مادة (قين).

عضدًا أو ساقًا أو جُمْجُمةً؟»، فتبسَّم، وقال: «أين يُذْهَبُ بك، نحن في دار الخلود والبقاء!».

مَرَرنا برَوْضةٍ من رياض الجنة يخترقها غديرٌ خمريٌّ علىٰ شاطئه جمعٌ كثيرٌ، علىٰ سُرُرٍ متقابلين، أو علىٰ الأرائك متكئين، فَهوَىٰ صاحبي بفرسه، فهويت هُويَّه، وقلنا: «سلام عليكم بما صبَرتم فنعم عُقبىٰ الدار»، فَرَحَّبوا بنا، وهشُّوا للقائنا، وانتسبنا فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه، فإذا الأَصْمعيُّ يُنْشد مروياته، وأبو عبيدة يَسرُدُ وقائعَ الحروب ومَقاتلَ الفُرْسان، وإذَا سِيبَوَيْه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكةِ ما وقع، وأحمد بن يحيىٰ لا يُضْمر لمحمد بن زيد من الموْجِدة ما كان يضمر، وأخذت تهبُّ من ناحية النهر نفحةٌ عِطريةٌ ذكَّرتني بقول الأعشىٰ ميمون: «مثل ريح المسك ذاك ريحها». وعلىٰ ذكر الأعشىٰ ذكرتُ مصرعه وشقاءه، وقلتُ في نفسي: لولا أن قريشًا صدَّته عن الإسلام لكان اليومَ بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفًا من ورائي يقول: «أنا بينكم، وفي مجلسكم»، فالتفتُّ فإذا الأعشىٰ ميمون، فلم أدرِ من أي مَدخَليه أعجبُ: أمنْ مدخله إلىٰ الجنة، أم من مَدْخله إلىٰ نفسي وعلمِهِ بما هجس في صدري؟! فَعلمتُ أنَّ أهل الجنَّة مُلْهَمون، ثم سألتهُ: «كيف

غُفِرَ لك؟»، فقال: «سَحبَتْني الزبانيةُ إلىٰ سقرٍ، فرَأيتُ في عَرَصاتِ[١] القيامة رجلًا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، والناس يهتفون به من كل جانب: «الشفاعةُ يا محمد»، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم، فأمر أن أدنو منه فدنوت، فسألني: «ما حُرْمتُك؟»، فقلت: أنا القائل:

ألا أيُّهــذا الســائلي أيــن يَمَّمْــتُ
فــإن لهــا في أهــل يثــربَ موْعــدَا
فآليــتُ لا أَرْثــي لهــا مــن كَلالَــةٍ
ولا مــن وجًــىٰ حتــىٰ تلاقــي محمــدَا
متــىٰ مــا تُنَـاخي عنـد بـاب ابـن هاشـم
تُراحِــي وتَلْقــي مــن فواضــله نــدَا
نبــيٌّ يَــرىٰ مــا لا تَــروْن وذكــره
أغــار لعمــري في الــبلاد وأنجــدَا

فقال: «ما سمعتُها منك قبل اليوم». قلت: «خَدعَني عنك الناس بعدما شَددتُ راحلتي إليك، وكنتُ رجلًا أحبُّ الشرابَ، وخفتك عليه أَنْ تفرق بيني

---

(١) عَرَصَات: جمع عَرْصة وهي كل بقعة بين الدُّور واسعة ليس فيها بناء. «القاموس المحيط» مادة (عرص).

وبينه»، فشفع لي، فَدَخَلْتُ الجنَّة علىٰ ألَّا أذوقَ فيها الخمرَ، فقنعت بالرُّضاب[١] عن الشراب، وبماء الثغر المنضود[٢] عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شابًّا ريِّقَ الشباب، فسألت عنه، فقيل لي: زهيرُ بن أبي سُلمَىٰ؛ فما كدتُ أصدق أنه القائل:

سـئمت تكـاليف الحيـاة ومـن يعـش
ثمـانين حـولًا لا أبَـا لـكَ يسـأم

فقُلْتُ له: «بِمَ غفَر الله لك؟»، فقال: «كنتُ في جاهليَّتي أتَرقَّبُ مبعثَ محمدٍ، وأتمنىٰ البقاء حتىٰ أراه، فحال بيني وبينه الموت، فأوصيتُ به ابنيَّ كعبًا وبُجيرًا، وكنت أومنُ بالحساب، فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فـلا تكـتُمنَّ الله مـا في نفوسـكم
ليخفـىٰ ومهمـا يُكـتم اللهُ يَعلـم
يـؤخَّرْ فيوضـعْ في كتـاب ويُـدَّخر
ليـوم الحسـاب أو يقـدَّم[٣] فيُـنقَم

(١) **الرُّضَاب**: الرِّيق. «المعجم الوسيط» مادة (رضب).
(٢) **المنضود**: القليل. «المعجم الوسيط» مادة (نضب).
(٣) في مُعلقة زهير «يُعَجَّل» بدلًا من «يقدَّم».

وإلىٰ جانب زهير: عبيد بنُ الأبرص، فسألتُهُ عن مصير أمره، فقال: «كتب لي النار، فما زال الناس يهتفون بقولي:

مـــــن يســـــألِ النـــــاسَ يَحرِمـــــوه

وســــــــائلُ الله لا يَخيـــــــــــب

والعَذابُ يُخفَّف عني شيئًا فشيئًا حتىٰ خرجتُ ببَرَكة هذا البيت من الجحيم إلىٰ النعيم».

ذَهَبنا في الحديث كلَّ مذهبٍ، وذَهَب بعضنا إلىٰ ارتشاف الخمر من النَّهر، في آنية الدُّرِّ، فانتشينا[1] جميعًا، فما أَفَقْنا إلا علىٰ حفيف[2] رَفٍّ من إوَزِّ الجنة نزل بنا، ثم انتفض عن كواعبَ أترابٍ يُغنِّينَ بالمزاهر والآلات؛ الثقيلِ والخفيفِ والهزَجِ، فما أَتَيْنَ علىٰ الألحان الثمانية حتىٰ دارت بنا الأرضُ الفضاء، وحتىٰ مَلكَنا من الطرب ما يَستخفُّ الحلوم، ويطير بالهموم، وقلنا: «لو عَلمَ جَبلةُ بن الأيهم بما نَحنُ فيه، لقَرَع السنَّ علىٰ أن باع دينه بسرورٍ محدودٍ، وأنسٍ معدودٍ، ودُفٍّ وعودٍ».

ذكرتُ جَبلة، فذكرت لذكره النار، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٥٥]، فَتَمنَّيت أن أطَّلع، فأرىٰ المعذَّبين كما رأيت

(١) فانتشينا: سكرنا. «المعجم الوسيط» مادة (نشو).

(٢) حفيف: صوت. «لسان العرب» مادة (حفف).

المنعمين، فألهمت الإِذنَ، فأَشرتُ لصاحبي، فقام وقمت، وركبنا فَرَسيْنا، فطارتا بنا حتىٰ انتهينا إلىٰ سور الجنة، فرأينا عنده من الداخل كوخًا يسكنه شيخٌ زريٌّ الهيئة، فأشرفنا عليه، فقال: «لا تَعْجبوا لشأنِي، أنا الحُطَيئةُ، وواللهِ، لولا أنِّي صَدَقتُ مرةً واحدةً في حياتي في قولي:

أَرَىٰ لـــي وجهًـــا شَـــوَّه الله خَلقـــه
فقُـــبِّح مـــن وجـــهٍ وقـــبح حاملـــه

لما دخلتُ الجنة، ولَما أدركتُ كوخًا ولا جُحْرًا»، فتركناه واطَّلعنا، فمَا رآنا أهل النار حتىٰ ضجوا بصوتٍ واحدٍ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فرأينا ملوكًا وأكاسرةً يَتضَاغَون في السلاسل والأغلال، ويقولون: «ربَّنا ارْجِعْنا نَعمَلْ صالحًا غير الذي كنا نعمل». فيهتف بِهِمْ هاتفٌ: «أوَ لَمْ نعمركم ما يتذكَّر فيه من تذكر، وجاءكم النذير، فذُوقُوا فما للظالمين من نصيرٍ»!

ورَأيتُ بجَانبي امرأةً تَبَينتُها، فإذا هي الخَنساءُ تطَّلع مثلنا، فترىٰ رجلًا كالجبل الأشمِّ علىٰ رأسه شعلةٌ من النار، فتمتعضُ وتَقُول: «يا صخرُ، هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صـــخرًا لتـــأتمُّ الهـــداة بـــه
كأنـــه علَـــم في رأســـه نـــارُ»

وَرَأيتُ هناك كثيرًا من أمثال: امرئ القيس، وعنترة، وعمرو بن كُلْثوم، وطَرَفة بْن العَبد، ورَأيتُ بشارَ بن برد تُفْتح عيناه بكلاليبَ من نارٍ، وكلَّما اشتدَّ به الألم، رفس إبليس برجله، وقال له: «ما كُنْتُ لأدخلَ النارَ لولا قولي فيك:

إبلـــيسُ أفضـــلُ مـــن أبـــيكم آدم
فتبينـــوا يـــا معشـــرَ الأشـــرارِ
النـــار عنصـــره وآدم طينـــةٌ
والطـــين لا يســـمو ســـموَّ النـــار».

وجزعنا من المنظَر، فهممنا بالرجوع، وإذا إبليسُ يَهتِفُ بنا: «يا أهلَ الجنَّة، بلِّغوا عنِّي أباكم آدم أنِّي لم أدخل النار بسببه حتىٰ أخذتُ معي أكثر ولده وأفلاذ كبده؛ فلا يهنأ كثيرًا بمصيري»، فقلنا: «قبَّحه الله! لا يزالُ ينفَس علىٰ آدم نعمته حتىٰ اليوم»، فما كان لنا همٌّ بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا ﷺ، فلقيناه فبلغناه الرسالةَ، فقال: «وارحمتاه له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل، فأرداهُ الحسد، فكان من المهلَكين»، فقبَّلنا يده، وانصرفنا إلىٰ ما أعدَّ الله لنا من ملكٍ كبيرٍ، وجنةٍ وحريرٍ، وحورٍ وولدانٍ، كأنهنَّ الياقوتُ والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

عِبْرَةُ الدَّهْرِ

بنىٰ فلانٌ في رَوْضةٍ من رياض بساتينه الزاهرة قصرًا فخمًا يتلألأ في تلك البقعة الخضراء، تلألُؤَ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء، ويطاول بشُرُفاته الشَّمَّاء أفلاك السماء، كأنَّه نَسرٌ محلقٌ في الفضاء، أو قُرطٌ معلقٌ في أذن الجوزاء، وكأن شُرُفاته آذان تُفْضي إليها النجوم بالأسْرَار، وطاقاتِه أبراجٌ تنتقل فيها الشموس والأقمار.

شَادَه مَرْمـرًا وجَلَّلـه كِلْسًـا[1]
فللطيـر في ذُرَاه وُكُـورُ

ولم يدع ريشةً لمصورٍ، ولا لِيقةً[2] لرسامٍ إلا أجرَاها في سقوفِهِ وجدرانِهِ، وطاقاته وأركانه حتىٰ ليخيَّل إلىٰ السَّالك بين أبهائه وحجراته، ومحاريبه[3] وعرصاته أنه ينتقل من رَوْضَةٍ تَزْهَر بالورود الحمراء، والأنوار البيضاء إلىٰ بَادِيَةٍ تَسْنَح فيها الذِّئابُ الغبراءُ، والنمور الرقطاء،

---

(١) **الكِلْس**: الجير. «المعجم الوسيط» مادة (كلس).

(٢) **ليقة**: صوفة الدواة. «المعجم الوسيط» مادة (ليق).

(٣) **محاريب**: جمع محراب ومعناه هنا صدر البيت. «القاموس المحيط» مادة (حرب).

ومن ملعبٍ تَصيد فيه الظباءُ الأسودَ إلىٰ غابٍ تصيد فيه الأسودُ الظباء. وأنشأ في كُبرَىٰ ساحاته، وأوسع باحاته، صِهْريجًا[١] من المرمر مستديرًا يضمُّ بين حاشيتيه فَوَّارةً ينفِر منها الماء صُعُدًا كأنه سَيفٌ مُجَرَّدٌ، أو سهمٌ مُسَدَّدٌ، فيخيل إلىٰ الرائي أن الأرضَ تثأر لنفسها من السماء، وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاتلها بالرُّجوم والشُّهب، وهذه تُحَاربها بالسِّهام والقُضُب، وَغرسَ حول دائرة الصِّهريج دوائرَ من شجراتٍ، مؤتلفات ومختلفات، وأغصان صنوان[٢] وغير صنوانٍ، إذا رَنَّحتْها نسائمُ الأسحار، رَقَصتْ فَوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنَّت علىٰ رقصها الأطيار، غناءَ الأغاريد لا غناءَ الأَوْتار، وادَّخر فيه لنعيمِهِ وبُلَهْنِيته[٣] ما شاء الله أن يدَّخر من نضائد[٤] ومقاعد، ووسائد ومساند، وفَرش وعَرش، وكِلَل[٥] وحَجَل[٦]، وتماثيل وتهاويل[٧]، وصحاف من ذَهَبٍ

---

(١) **الصِّهريج**: حوض يجتمع فيه الماء. «مختار الصحاح» مادة (صهرج).

(٢) **صنوان**: من أصل واحد. «لسان العرب» مادة (صنو).

(٣) **البُلَهنية**: الرخاء وسعة العيش. «المعجم الوسيط» مادة (بله).

(٤) **نضائد**: جمع نضيدة وهي الوسادة. «القاموس المحيط» مادة (نضد).

(٥) **كِلل**: جمع كِلَّة وهي الستر الرقيق. «المعجم الوسيط» مادة (كلل).

(٦) **حَجل**: جمع حَجَلة وهي ستر يُضرب للعروش في جوف البيت. «المعجم الوسيط» مادة (حجل).

(٧) **التهاويل**: زينة التصاوير والنقوش والثياب. «المعجم الوسيط» مادة (هول).

كاللهب، وأكواب من بلُّور كالنور، وأقفاص للحمائم والنسور، ومقاصيرَ للسباع والنمور، وعربات وسيارات، وجياد صافنات[١]، ووصائفَ وولائدَ[٢]، تُحيط بالمجالس والموائد إحاطة القلائد بأعناق الخرائد[٣]، وخَدَم حسان تَتَنقَّل في الغرف والقيعان تُنقُّلَ الولدان في غرف الجنان.

في ليلةٍ من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غُدافيةِ الإهاب[٤]، أفاق صاحب القصر من غشيته، فتحرك في سريره، وفتح عينيه، فلم يرَ أمامه غير خادمه «بلال»، وهو خَصيٌّ أسودُ من ذَوي الأسنان، ربَّاه صغيرًا، وَكفَلَه كبيرًا، وكان يجمع بين فضيلتي الذَّكاء والوفاء، فأشار إليه إشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماءٍ، فجاءه بها، فتَسَاند علىٰ نفسه حتىٰ شرب وكأنَّ الماء قد حلَّ عقدة لسانه، فسأله: «في أيِّ ساعةٍ من ساعات الليل نحن يا بلال؟»، فأجابه: «نحن في الهزيع[٥] الأخير يا سيدي»، فقال: «ألم تعد سيدتك إلىٰ الآن؟»، قال: «لا»، فامتعض امتعاضًا شديدًا، وزفرَ زفرةً كادت

---

(١) **صافنات**: الصافن من الجَواد هو القائم علىٰ ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة علىٰ طرف الحافر. «مختار الصحاح» مادة (صفن).

(٢) **ولائد**: جمع وليدة وهي الصبية والأَمة. «مختار الصحاح» مادة (ولد).

(٣) **الخرائد**: جمع خريدة وهي العذراء. «المعجم الوسيط» مادة (خرد).

(٤) **ليلة غدافية الإهاب**: أي مظلمة. «المعجم الوسيط» مادة (غدف).

(٥) **الهزيع الأخير من الليل**: نحو الثلث أو الربع الأخير منه. «المعجم الوسيط» مادة (هزع).

تخرق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: «إنها تعلم أني مريضٌ، وأني في حاجةٍ إلىٰ من يسهر بجانبي، ويَتَعهَّد أمري، ويرفِّه عني بعضَ ما أعالجه، وليس بين سُكَّانِ القصر مَنْ هو أولىٰ بي، وأقوَم عليَّ منها، أين وفاؤها الذي كانت تزعمه، وتقسم لي بكل محرِّجة من الأيْمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تَهتِفُ به في صباحها ومسائها، وبكورها وأصائلها؟ أين النعيم الذي كنتُ أُقلِّبها في أعطافه، والعيش الرغد الذي كنت أرشفها كؤوسه؟ أئن عَلِمتْ أنِّي أصبحت بين حياةٍ لا أرجوها، ومَوْتٍ لا أجد السبيل إليه، بَرِمتْ[١] بي، واستثقلت ظلي، واستبطأت أجَلي، وَاسْتطَالت ضِجعتي؟! فهي تفرُّ من وجهي كلَّ ليلةٍ إلىٰ حيث تجد لذَّات العيش، وَمَواطن السرور، آهٍ من العيش ما أَطْوَله! وآهٍ من الموت ما أثقلَه!».

وما زال يحدِّث نفسه بمثل هذه الأحاديث حتىٰ هاج ساكنه، واضطربت أعصابه، فعاودته الحمىٰ، وغلي رأسه بنارها غليانَ القِدْرِ بمائها، فسقط علىٰ فراشه ساعةً تجرَّع فيها من كأس الموتِ جُرَعًا مريرةً، بَيْد أنه لشقائه لم يأتِ علىٰ الجرعة الأخيرة منها.

أَفَاق من غَشيته مرَّةً ثانيةً، فلم يرَ بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها، فسأل الخادم: «ألا تعلم أين ذهبَتْ سيدتك يا بلال؟».

---

(١) برمت: سئمت وضجرت. «مختار الصحاح» مادة (برم).

قال: «خيرٌ لك ألا تنتظرها يا مولاي، وألا تلومها في بُعْدها عنك؛ فإنَّ لها عند بعض الناس دَيْنًا، فهي تخرج كل ليلةٍ لتتقاضاه». قال: «ما عَرفتُ قبل اليوم أن بينها وبين أحدٍ من الناس شيئًا من ذلك، ومتىٰ كان يَتقَاضىٰ الدائنُ دَينَه في مثل هذه الساعة من الليل؟! وهل أعياهَا أن تجدَ مَنْ يقوم لها بذلك، فَهي تتولَّاه بنفسها؟! وهلَّا فَرغتْ من أمر دَيْنها بعد اختلافها إليه سنةً كاملةً؟! قال: «إنَّ بينها وبين غَريمها صَكًّا مكتوبًا أن يؤديَ ما علَيه من الدَّين أقساطًا، في كلِّ لَيْلةٍ قسطٌ، علىٰ أن تتناوله بيدها، وأنْ تكُونَ مواعيدُ الوفاء أخريات الليالي». قال: «ما سمعتُ في حياتي بأغربَ من هذا الدَّين، ولا أعجب من هذا الصَّكِّ؟ ومَنْ هو غريمها؟»، قال: «أنت يا سيدي»، فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه[1]، وقال: «إني أكادُ أجنُّ لغرابة ما أسمع، وأحْسَب أنك هَاذٍ فيما تقول، أو هازئٌ»، فدنا منه الخادم، وقال: «واللهِ يا سيدي، ما هَزأت في حياتي، ولا هذيت! ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوةٍ تطلبها، وكأسٍ تشربها، وملاعبَ تجرِّر فيها أذيالك، ومراقصَ تَهتِك فيها أموالك، تاركًا زوجتك في هذه الغرفة علىٰ هذا السرير تشكو الوحشة، وتبكي الوَحْدة، وتتقلَّب علىٰ أحرِّ من الجمر شوقًا إليك، وحزنًا عليك، فلا تعود

---

(١) **المشدوه**: المدهوش. «مختار الصحاح» مادة (شده).

إليها إلا إذا شاب غراب الليل، وطار نَسر الصباح؟! إنك سَلبْتها تلك الليالِيَ السالفة، فأصبحتَ غريمها فيها، فهي تستردُّها منك اليوم ليلةً ليلةً حتىٰ تأتِيَ عليها، ذلك هو دَيْنها، وهذا هو غريمها! ألا تذكر أنك كنتَ في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها، وتَملِكُها عليه، وهو واقف موقفَك هذا في حسرتك هذه يبكي ما تبكي، ويندب ما تندب؟! ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقَّه، ويأبىٰ إلا أن يأخذه عينًا بعينٍ، ونقدًا بنقدٍ، فهو يَفجعك في زوجتك كما كنت تَفجعه في زوجته، ويُقِضُّ[1] مَضْجَعك كما كنت تُقضُّ مضجَعه، وأنا أُعيذُكَ بعدلك وإنصافك أن تكون من لُوَاةِ الدين، أو تكون من الظالمين».

قال: «حسبك يا بلال، فقد بلغتَ مني، وإنَّ لي في حاضري ما يَشغلني عن ماضيَّ، فَادْعُ لي ولدي»، قال: «لم يعد يا سيدي من الوجه الَّذي بعثته فيه حتىٰ الآن». قال: «لا أذكر أني بعثته في وَجْهٍ ما، وأين ذهب؟». قال: «ذهَب إلىٰ الحانة التي يختلف إليها، ولن يرجع منها حتىٰ يرتوي، ولَنْ يرتوي حتىٰ يعجز عن الرجوع، إنَّني طالما وقفتُ بين يديك يا مولاي ضارعًا إليك أن تَحُولَ بينه وبين خلطاء السوء، وعُشَراء الشَّرِّ حتىٰ لا

(١) **يقض مضجعه**: جعله خشنًا. «لسان العرب» مادة (قضض) وهو كناية عن عدم الاطمئنان في النوم.

يفسدوه عليك، فكنت تُعْرض عنِّي إعراضَ مَنْ يرىٰ أنَّ تدليلَ الولد وترفيهَه وإرخاء العِنان له عنوانٌ من عناوين العظمة، ومظهرٌ من مظاهر الأُبَّهة والجلال، كُنْتُ أسألك أن تعلمه العلم، وأن تَهديه إلىٰ طريق المدرسة ليَضلَّ عن طريق الحانة، فكنت ترىٰ أنَّ الذي يحتاج إلىٰ العلم مَنْ يرتزق به، وأنَّ ولدَك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشكُ من عمل يديك، ولا تبكِ من جناية نفسك عليك، فأنتَ الذي أرسلته إلىٰ الحانة، وأنت الذي أبقيته فيها إلىٰ مثل هذه الساعة، وأنت الذي أبعدتَه عن فراشك أحوجَ ما كنت إليه».

وما وَصَل الخادم من حديثه إلىٰ هذا الحدِّ حتىٰ نَصل[1] الليل من خِضَابه، واشتعل المبيضُّ في مسوده، وإذا صَوْتُ الناعورة[2] يرنُّ في بستان القصر رنينَ الثَّكْلىٰ[3] فَقدتْ واحدها، فقال السيد: «هات يدك يا بلال، وخذ بيدي إلىٰ جوار النافذة لأروِّح عن نفسي بعض ما ألَمَّ بها، أو أودِّع إلىٰ جانبها نسمات الحياة»، ثم اعتمد علىٰ يَده حتىٰ وصل إلىٰ النافذة، فَجَلس علىٰ كرسيٍّ مستطيلٍ، وألقىٰ علىٰ البستان نظرةً طويلةً، فرأىٰ البستاني وزوجه جالسين إلىٰ الناعورة وقد بَرقت بوارق السعادة من

(١) **نصل**: زال وخرج. «مختار الصحاح» مادة (نصل).

(٢) **الناعورة**: دلو يستقىٰ بها يديرها تدفق الماء ولها صوت. «المعجم الوسيط» مادة (نعر).

(٣) **الثكلىٰ**: فقدان المرأة ولدها. «مختار الصحاح» مادة (ثكل).

خلال أثوابهما البالية، بريقَ الكواكب المنيرة من خلال السُّحب المتقطعة، رآهما متحابين معاطفين لا يتعاتبان، ولَا يَتشاحَّان[١]، ولا يشكوان هَمًّا، ولا يندبان حظًّا، رآهما قَويَّين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافيًا رائقًا، وكأنَّ كلًّا منهما يحاول أن يخرج من إهابه[٢] مَرحًا ونشاطًا، رآهما رَاضيَين بما قَسَم الله لهما من خُشُونة الملبَس، وجشوبة المطعم؛ فلا يَتَشهَّيان، ولا يتمنَّيان، ولا ينظران إلىٰ ذَلكَ القصر الشَّامخ المطل عليهما نظرات الهمِّ والحسرة، سَمعهما يتحدَّثان، فأَصْغَىٰ إليهما، فإذا البستاني يقول لزوجته: «والله، لو وُهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته، وخُرثيِّه[٣]، علىٰ أن تكون لي تلك الزوجةُ الخائنة الغادرة، لَفَضَّلْتُ العيش فوق صخرةٍ في منقطَع العمران علىٰ البقاء في مثل هذا المكان، أقاسي تلك الهُمُوم والأحزان»، فقالت: «لا أحسب أنَّ سيِّدنا ينجو من خطر هذا المرض؛ فقد مرَّ به علىٰ حاله تلك عامٌ كاملٌ، وهو يزداد كل يومٍ ضعفًا ونُحُولًا». قال: «قد علمتُ أن الطبيب قَدْ نَفضَ يدَه من الرجاء فيه، وأضمر اليأس منه، ولا عجبَ في ذلك، فإنَّه ما زال يسرف علىٰ نفسه، ويذهب بها

---

(١) **لا يتشاحان**: لا يتخاصمان ولا يتنافسان. «المعجم الوسيط» مادة (شحح).

(٢) **إهابه**: جلده. «مختار الصحاح» مادة (أهب).

(٣) **الخُرْثِيُّ**: أساس البيت. «المعجم الوسيط» مادة (خرث).

المذاهب كلَّها حتىٰ قتلها». قالت: «ما أشقاه! أكانت نفسُهُ عدوةً إليه، فَجَنىٰ عليها هذا الشقاءَ، وذلك البلاء؟!». قال: «ما كان عدوًّا لنفسه، ولا كانت نفسُهُ عدوةً إليه، ولكنه كان جاهلًا مغرورًا، غرَّه شبابه وماله، وعزُّه وجاهه؛ فظن أنه قد أخذ علىٰ الدهر عهدًا بالسلامة والبقاء، فانطلقَ في سبيلِهِ لا يلوي علىٰ شيءٍ ممَّا وراءه حتىٰ سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه». قالت: «أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟». قال: «لا أعلَم إلا أنه سيكون لولده». قالت: «ولكنِّي أعلم أنه سيكون لفلانٍ». قال: «إنَّ فلانًا ليس وريث السيد، بل صديقُهُ». قالت: «إنَّه ليس بصديق السَّيِّد، بل صديق السيدة، فهو خاطبُ زوجته قبل وفاته، وزوجُها بعد مماته!».

فما سمع السيد هذه الكلمات حتىٰ اضطرب اضطرابًا شديدًا، وسقط عن كرسيِّه وهو يقول: «أشهد أنِّي من الأشقياء»! وما زال في غشيته تلك حتىٰ صحا صحوة الموت، وفتح عينيه، فرأىٰ بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم:

رأىٰ ولده لاهيًا بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأىٰ زوجته تضاحك تِرْبًا من أترابها وتَغْمزها بطَرْفها أنْ قد حان حِينُهُ، ودنا أجلُهُ، ورأىٰ صديقه أو وليَّ عهده يأمر في القصر وينهىٰ، ويتصرَّف تصرُّف السيد المطاع، ورأىٰ نفسه يعالج سكرات الموت، ويُعدُّ عُدَّته للانتقال من

القَصر إلىٰ القبر، وهنا سمع كَأَنَّ هاتفًا يهتف به من السماء ويقول: «أيها الرجل، لو وفَّيت لزوجك، لوفَّت لك، ولو أدَّبت ولدك، لعَناه أمرك، ولو أحسنتَ اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمتَ نفسك ما خسرتَ حياتك»، فأغمض عينيه وهو يقول: «فلتكن مشيئة الله».

وَهَكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعًا بزوجه وولده، وصديقه ونفسه، وبستانه وقصره.

رُبَّ ركـــبٍ قـــد أنـــاخو حولنـــا
يشـــربون الخمـــرَ بالمـــاء الـــزُّلال
عَصَـــف الـــدهرُ بهـــم فانقرضـــوا
وكـــذاك الـــدهرُ حـــالًا بعـــد حـــالِ

أفسَدكَ قومُكَ

أيُّها المجرمُ الفاتكُ الَّذي يسلُب الخزائنَ نفائسَها، والأجسام أرواحَها، لست أحمل عليك من العَتْب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظرُ إليك بالعين التي نظرَ بها إليك القاضي الذي قسا في حكمِهِ عليك؛ لأني أعتقد أنَّ لك شركاء في جريمتك، فلا بدَّ لي من أن أنصفك وإنْ كنت لا أستَطيع أن أنفعَكَ.

شَريكُك في الجريمة أَبوك؛ لأنه لم يَتعهَّدْك بالتربية في صِغرِكَ، ولم يَحُلْ بينك وبين مخالطة المجرمين، بَلْ كثيرًا ما كان يُبخبخ[1] لك إذا رآك هجمتَ علىٰ تِربك وضربتَه، ويُصفق لك إذا رأىٰ أنك تمكنتَ من اختلاسِ درهمٍ من جيب أخيك، أو اختطاف لقمةٍ من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك، وتعهَّدها بالسُّقيا حتىٰ أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلَّق به اليوم، وهَا هُوَ ذا الآن يَذرِفُ عليك العبرات، ويُصعِّد الزفرات، ولو عرف أنها جريمتُهُ، وأنها غرسُ يمينه

---

(١) **بخبخ**: قال بخ بخ. «المعجم الوسيط» مادة (بخبخ).

لضَحك مسرورًا بغفلة الشرائع عنه، وَسَجد لله شكرًا علىٰ أنْ لَم يكن حبلُك في عنقه، وجامعتُك[١] في يده.

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنسانيُّ الفاسدُ الذي أغراك بها، ومهَّد لك السبيل إليها، فقد كان يُسميك شجاعًا إذا قتلتَ، وذكيًّا فطنًا إذا سرقتَ، وعالمًا إذا احتلتَ، وعاقلًا إذا خَدعت، وكان يَهابك هيبته للفاتحين، ويُجلُّك إجلاله للفاضلين، وكثيرًا ما كنتَ تحبُّ أنْ ترىٰ وجهك في مرآته، فتَراه وجهًا أبيضَ ناصعًا، فتتمنَّىٰ لو دام لك هذا الجمال، ولو أنَّه كان يُؤْثر نصحَك، ويَصدُقك الحديث عن نفسك لَمثَّل لك جريمتَك في نظرك بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وَددت بجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها، وحالت المنيَّة بينك وبينها.

شريكك في الجريمة حكومتُك؛ لأنَّها كانت تعلم أنَّ الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلةٍ كثيرة الحلقات، وكانت تراك تُمْسك بها حلقةً حلقةً، وتعلم ما سينتهي إليه أمرك، فلا تضربُ علىٰ يدك، ولا تعترض دون سبيلك، ولو أنها فعلت لما اجْتَرمْتَ، ولا وصلت إلىٰ ما إليه وصلْت.

كانت حكومتُك تستطيع أن تعلمك، وتهذب نفسك، وأن تقفِل بين

---

(١) **الجامعة**: الغُلُّ يجمع اليدين إلىٰ العنق. «المعجم الوسيط» مادة (جمع).

يديك أبواب الحانات، وأن تحولَ بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك، وتشريدهم في مجاهل الأرض ومخارمها[١]، وأن تُعديك[٢] علىٰ قتيلك قبل أن يبلغ حقدُكَ عليه مبلغه من نفسك، وأن تُحْسنَ تأديبك في الصغيرة قبل أن تصلَ إلىٰ الكبيرة، ولكنها أغفلت أَمْرَك، فَنامتْ عنك نومًا طويلًا حتىٰ إذا فعلتَ فعلتَك، استيقظتْ علىٰ صوت صراخ المقتول، وَشمَّرت عَنْ ساعدها لتمثِّلَ منظرًا من مناظر الشجاعة الكاذبة، فاستصرخت جندها، واستنصرت أسلحتها، وأعدَّت جذعها وجلادها، وكان كلُّ ما فَعَلتْ أنها أعدمتك حياتك.

هؤلاء شركاؤك في الجريمة، وأقسم لو كنتُ قاضيًا لأعطيتك من العقوبة علىٰ قدر سهمك في الجريمة، وجعلت تلك الجذوع قسمةً بينك وبين شركائك، ولكنني لا أستطيع أن أنفعك؛ فيا أيُّها القتيل المظلوم، رحمةُ الله عليك.

---

(١) **مخارم**: جمع مَخْرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل. «المعجم الوسيط» مادة (خرم).

(٢) **تُعديك علىٰ قتيلك**: تعينه وتنصره. «المعجم الوسيط» مادة (عدو).

الصدق والكذب

«يا صاحبَ النظرات:

«سَمعتُ بالصِّدق وما وَعَد الله به الصادقين من حسن المَثُوبة، وجزيل الأجر، وسمعتُ بالكذب، وما أعَدَّ الله للكاذبين من سوء العذاب، وأليم العقاب، وقرأت ما كتبه حُكَماء الأمم من عهد آدمَ إلىٰ اليوم، وإجماعهم أنَّ الصدق فضيلة الفضائل، والأصل الذي تتفرَّع عنه جميع الأخلاق الشريفة، والصفات الكريمة، وأنه ما تَمسَّك به متمسِّكٌ إلا كان النجاح في أعماله ألصقَ به من ظله، وأعلق به من نفسه، سَمعتُ هذا، وَقَرأتُ هذا، فلم يبقَ في نفسي ريبٌ[١] في أنَّ ما أنا مرزوءٌ به في حظِّي من الشقاءِ، وعيشي من الضنك، وحياتي من الهموم والأكدار، إنما جرَّه إليَّ شؤم الكذب، وأنَّ ما كنت أتخيَّله قبل اليوم من أن هناك مواقفَ يكون فيها الكذب أنفع من لصدق، وأسلمَ عاقبةً، إنَّما هو ضربٌ[٢] من ضروب الوهم الباطل، ونَزْغَةٌ[٣] من نزغات الشيطان؛ فعاهدت الله ونفسي ألا أكذبَ ما حييت،

---

(١) **ريب**: شك. «مختار الصحاح» مادة (ريب).

(٢) **ضرب**: صنف: «مختار الصحاح» مادة (ضرب).

(٣) **النزغة**: الطعنة والنخسة. «المعجم الوسيط» مادة (نزغ).

وأعددت لذلك القسم العظيم عُدَّته من شَجَاعة في النفس، وقوة في العزيمة، بعدما وجَّهت وجهي لله تعالىٰ، وسألته أن يُمدَّني بمعونته ونصره.

«وهأنذا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها. الموقف الأوَّل: جلست في حانوتي، فمَا وقف بي مساومٌ إلا صَدَقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة، والربح الذي أريده لنفسي فيها، والَّذي لا أستطيع أن أعدَّ نفسي رابحًا إذا تَجَاوزت عن بعضه، فيأبىٰ إلا الحطيطة[1]، فأباها عليه، فينصرف عني استثقالًا للثمن، واستعظامًا لمقداره، وما هو إلا الربح الذي اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصفقة إلا أنَّني كنت أكذب عليه في أصل الثمن، فيصغر في نظره الربحُ الذي أربحه منه، فلما صدَقته عنه، أعظمه وانصرف عني إلىٰ سواي، ولم أزل علىٰ هذه الحال حتىٰ أظلني الليل، ولم يَفتح الله عليَّ بقوت يومي، وما هي إلا أيام قلائل حتىٰ عُرِفْتُ في السوق بالطَّمع والمُغَالاة، فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارقٌ.

«الموقف الثاني: جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايخ الطرق، وقد حَفَّ به جماعةٌ من عَبَدته، وسَدنة هيكله، فسمعتُهُ يشرح لهم معنىٰ التوكُّل شرحًا غريبًا، يذهب فيه

---

(١) **الحطيطة**: ما يُحط من الثمن. «القاموس المحيط» مادة (حطط).

إلىٰ أنه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود علىٰ غاربه، والإعراض عن كل سعي يؤدي إلىٰ أيِّ غاية، ويعتمد في هذيانه هذا علىٰ آيات يُؤوِّلها كما يشاء، وأحاديثَ لا يستند في صحتها علىٰ مستنَد سوىٰ أنه سمعها من شيخه، أَوْ قرأها في كتابه، وأكثرُ ما كان يَدُورُ علىٰ لسانه حديثُ: «**لو توكَّلتم علىٰ الله حقَّ توكُّله، لَرَزقكم كما يَرْزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»(١)، فقلت له وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: «يا شيخُ؛ أردتَ أن تحتجَّ لنفسك، فاحتججتَ عليها! أتَعمِد إلىٰ حديثٍ يستدلُّ به رواتُهُ علىٰ وجوب السعي والعمل، فتستدل به علىٰ البطالة والكسل؟! ألم تر أنَّ الله ﷻ ما ضَمن للطير الرواح بطانًا إلا بعد أن أمرها بالغدوِّ، وهي التي ترويها القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي، وهو مَنْ لا تفنىٰ مطالبه، ولا تنتهي رغباته؟!

«أيُّها القوم؛ إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلىٰ الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذرًا يدفع عنكم هاتين الوصمتين، فسميتم ما أنتم فيه توكلًا، وما هو إلا العجزُ الفاضحُ، والإسفافُ الدنيء!» وهنا زفَر الشيخ زفرة الغيظ، ونادىٰ في

---

(١) **تغدو خماصًا وتروح بطانًا**: أي تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف. «لسان العرب» مادة (خمص).

قومه: أن أَخْرِجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي! فتألبوا عليَّ تألبهم علىٰ قَصعة الثريد، وأَوْسَعوني لَطْمًا وصَفْعًا، ثم رموا بي خارج الباب، فما بلغت منزلي حتىٰ هلكتُ أو كدتُ، فما مَررتُ بعد ذلك بطائفةٍ من العامة إلا رموني بالنظر الشَّزْر، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

«الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدي أني كنتُ أبغض زوجتي بغضًا يتصدع له القلب، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها، وأمنحها من لساني ما ليس له أثرٌ في قلبي؛ خداعًا لها، وإبقاءً علىٰ ما تحتويه يدي من صُبابة مال كانت لها، فَرَأيتُ أن ذلك أكذبُ الكذب وأقبحه؛ فآليتُ علىٰ نفسي ألا أسدِل بعد اليوم أمام عينيها حجابًا يَحُول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن سمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني، وأظلمَ ما بيني وبينها، فما هي إلا عَشيَّةٌ أو ضُحَاها حتىٰ انحلَّ ذلك الوثاق، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق.

«الموقف الرابع: حضرت مجتمعًا يضمُّ بين حاشيتيه جماعةً من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول، فيلجأون إلىٰ الحديث عن الناس، والمُفَاضلة بينهم، ويحاولون أن ينبشوا دفائنَ صدورهم،

ويتغلغلوا بين أطواء[١] سرائرهم، ويُغَالون في ذلك مغالاة الكيميائي في تحليله وتركيبه، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلًا عظيمًا من أصحاب الآراء السياسية، لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه، والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه، أو وقَف في المواقف المشهودة موقفه، أو لَاقَىٰ في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيَّام ما لاقاه، سمعتهم يسمونه خائنًا، فوالله لأَنْ تقع السماء علىٰ الأرض أحب إليَّ من أن يُتَّهَم البريء، أو يُجَازىٰ المحسن سوءًا علىٰ إحسانه. سمعت ما لم أملك نفسي معه، فقلت: «يا قوم، أتُطَالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفًا[٢]، ثم لا تُزَالون عبيد الأوهام، أسرىٰ الخيالات، سِراعًا إلىٰ كل داعٍ، سعاةً مع كل ساعٍ، تنظرون بغير رَويَّةٍ وتحكمون بغير علمٍ؟! إنكم بعملكم هذا تُزَهِّدون المحسن في إحسانه، وتلقون الرُّعب في قلب كل عاملٍ يعمل لأجْلِكُم، وتُثَبِّطون همَّة كل من يُحدِّثُ نفسه بخدمتكم وخدمة بلادكم، أليس مما يلقي في النفس اليأسَ من نجاحِكم وصلاح حالكم أن نراكم طُعْمة كل آكل، ولُعبة كل عابثٍ، يستهويكم الكاذب

(١) **أطواء**: جمع طيّ وهو الغل أو الحقد يطوىٰ في القلب. «المعجم الوسيط» مادة (طوىٰ).

(٢) يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف.

بالكلمات التي تستهوي بها المرضِعات أطفالَهن، ثم يدعوكم إلىٰ مناوأة الصادق، فتمنحون الأول ودَّكم وإخلاصكم، والثاني بغضكم وموجدتكم؟!» خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيرًا لهم، فأرَادوا شرًّا بي، فَمَا خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي.

«الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعرٌ يحمل في يده طومارًا كبيرًا، وكنت ذاهبًا إلىٰ موعدٍ لا بدَّ لي من الوفاء به، فعرض عليَّ أن يُسْمِعَني قصيدةً من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده، فاستعفيته بعد أن كاشفته بأمري فأبىٰ، فَانْتَحيتُ به ناحيةً من الطريق، فأنشأ يترنَّم بالقصيدة بيتًا بيتًا وأنا أشعر كأنما يجرعني السُّمَّ قطرة قطرة، حتىٰ تمنَّيت أن لو ضربني بها ضربةً واحدةً يكون فيها انقضاء أجلي؛ ليريحني من هذا العذاب المتقطع، والتمثيل الفظيع! وكلَّما أتىٰ علىٰ بيتٍ منها، أقبل عليَّ بوجهه، وأطال النظر في وجهي، وحدق في عيني ليعلم كيف كان وَقْعُ شعره من نفسي، فإذا رأىٰ تقطيب وجهي، ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس؛ فيستمر في شأنِهِ حتىٰ أنشد نحو خمسين بيتًا، ثمَّ وقف وقال: «هذَا هو الباب الأوَّل من أبواب القصيدة»! فقلت: «وكَمْ عدد أبوابها يرحمك الله؟»، قال: «عشرة، ليس فيها أصغر من أولها!».

قلت: «أتأذن لي أن أقول لك يا سيدي: إن شعرك قبيح، وأقبح منه طوله، وأقبح من هذا وذاك صوتك الأجشُّ الخشن، وأقبح من الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي، وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجبًا يسهل عليَّ فوات الغرض الذي أريده، والذي ما خرجت من منزلي إلا من أجله؟!»، فتَلقَّاني بضربةٍ بجُمع[1] يده في صدري، فتلقيته بمثلها، وما زالت أكفُّنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتىٰ كلَّت، فجرَّدت عصاي، وضربته في رأسه ضربةً ما أردت بها -يعلم الله- إلا أن أصيب مركز الشِّعر من مُخِّه، فأفسده عليه! فسقط مغشيًّا عليه، وسقطت القصيدة من يده، فأسرعت إليها ومزَّقتها، وأرحت نفسي منها، وأرحت الناسَ من مثل مصيبتي فيها، وكان الشُّرطيُّ قد وَصَل إلينا، فاحتملنا جميعًا إلىٰ المخفر، ثم إلىٰ السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا.

«فيا صاحبَ النظرات؛ أَفْتِني في أمري، وأَنِرْ ظلمة نفسي؛ فقد أشكل عليَّ الأمْرُ، وأصبحت أسوأَ الناس بالصِّدق ظنًّا، بعدما رأيت أنِّي ما وقفت موقفَه في حياتي إلا خمس مرات، فكَانت نتيجة ذلك إفلاسي، وخراب بيتي، واتهامي بالخيانة مرةً، والزندقة أخرىٰ، ذلك إلىٰ ما أقاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصُنُوف الأسقام».

---

(١) **بجُمع يده**: بِقَبْضَة يده. «القاموس المحيط» مادة (جمع).

أيُّها السجين:

كتبت إليَّ -مَسَح الله ما بك، وألهمك صواب الرأي في حاليك- تشكو من جناية الصدق عليك ما وقَف بك موقفَ الشَّكِّ في أَمْره، وكاد يَزلق بك إلىٰ الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل، لا فضيلةُ الفضائل، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلىٰ نفسك، وأن يبلغ بك الجَزعُ من نكبات العيش، وضربات الأيام مبلغًا يَذهب برشدك، ويطير بلُبِّك؛ فما أنت أول صادقٍ في الأرض، ولا أول مَنْ لقي في سبيل الصِّدق شرًّا، وكابد ضرًّا.

إنَّك لو فهمت معنىٰ الفضيلة حقَّ الفهم، وصبَرت علىٰ مرارتها حقَّ الصبر، لذقتَ من حلَاوتها ما تُقطَّعُ دونه أعناق الرجال.

لَيْسَت الفضيلةُ وسيلةً من وسائل العيش، أو كسبَ المال، وإنَّما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلىٰ أَرْقىٰ درجات الإِنسانية، وتبلغ بها غاية الكمال.

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفِّه بها عيشه، يحتقرها ويزدريها؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر، وآلة الصانع.

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزانًا يزن به أخلاقه، فإن اتَّسع عيشه، اطمأنَّ إليها، وإن ضاق أساء الظنَّ بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء، وبين الأرذلين كثيرًا من ذوي النعمة والثراء.

لَا يَستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن يَنزل من نفوس الناس منازل الحب والإِكرام، ولَنْ يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قومٍ يعرفون الفضيلة، ويُعَظِّمون شأنها، ولَنْ يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاءَ، والسواد الأعظم الذي يُمْسك بيده أسبابَ العيش، ويملك ينابيعه، سوادٌ أَبْلَه ساذِج يبغض الصادق؛ لأنه يصادره في ميوله وأهوائه، ويَنقم منه جهلَه وغباوته، ويحب الكاذب؛ لأنه لا يزال يزين له أمره حتىٰ يحبِّب إليه نفسَه، فلا بدَّ للصادق من صدرٍ يسع هموم العيش، وقلبٍ يحتمل بُغْض القلوب؛ ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها، كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غَايته من الفوز والانتصار.

الصِّدق جنة حُفَّت[1] بالمكاره، فإن كان للصادق في جنة الصدق أربٌ[2]، فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماءُ والقائمون بإصلاح المجتمع الإِنساني، ودعاةُ المطالب الدينية والسياسية.

كَمَا أن الجود يفقر، والإِقدام قتَّال، وَكَما أنَّ لكلِّ فَضيلَةٍ من الفضائل آفةً من الآفات ترفع درجتها، وتُبْعد منازلها إلا علىٰ الصابرين

(١) **حُفَّت**: استدارت حولها وأحدقت بها. «المعجم الوسيط» مادة (حفف).

(٢) **أَرب**: حاجة. «القاموس المحيط» مادة (أرب).

المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين -وهم الأكثرون- للصادقين، وهم الأقلون.

أتريد أيُّها الرجل أن تسمَّىٰ صادقًا، وأن تنال أشرف لقبٍ يستطيع أن يناله بشرٌ، وأن يوافيك المجد طائعًا مذعنًا(١) دون أن تبذلَ في سبيله شيئًا من مالك أو راحتك؟!

إنَّك إنْ أردتَ ذلك، أو قدَّرته في نفسك، تَظلِم الفضيلة ظلمًا بيِّنًا، وترخص قيمتها، وتلقي بها في مدارج الطرق، وتحت مواطئ النِّعال.

أيحزنك انصراف الأغبياء عن حانوتك، أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق(٢) والخيانة، وترىٰ أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلةَ الصدق، وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت في سبيل إحراز ما أحرزت، فما ندموا، ولا حزنوا؟!

أيُّها السجين الشريف:

هنيئًا لك السجن الذي تُكَابده، وهنيئًا لك البغض الذي تحمَّلته، وهنيئًا لك العيش الذي تعالج همومه! فواللهِ، لأنتَ أرفع في نظري من كثيرٍ من أولئك الذين يَعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماءَ.

لا تظلم الصدق، ولا تكن سيِّئَ الظَّنِّ به، وكُنْ أحرص الناس علىٰ ولائه

---

(١) **مذعنًا**: خاضعًا. «مختار الصحاح» مادة (ذعن).

(٢) **المروق**: الخروج من الدين. «المعجم الوسيط» مادة (مرق).

ومودته، وإياك أن يخدعك عنه خادع! واصبر قليلًا، يُثمرْ لك غرسه، ويمتدَّ عليك ظله، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم، وأربابُ الكنوز كنوزَهم، لَمَا استطاعوا إليه سبيلًا.

النَّظَّامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعةً واحدةً عن صدع[١] رؤوسنا، وجرح قلوبنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يومٍ من سماء الصُّحف حتىٰ صرنا كلما فتحنا صحيفةً، ورأينا في وسطها جدولًا أبيض مستطيلًا، تخيَّلناه حيةً رقطاءَ؛ ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمِّس[٢] لينجو بنفسه، ويسلَم بحياته!

مَنْ لي بالقلم العريض الذي يَكتب به كُتَّاب الصحف عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتجسيم، فأكتب به إلىٰ هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية:

أيُّها القوم؛ إن علماء الضَّاد[٣] الذين عَرَّفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفَّىٰ لَمْ يكونوا شعراء، ولا أدباء، ولا يَعْرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه، وإنما جَرَوا في ذلك التعريف

(١) **صدْع**: الصُّداع: وجع الرأس. «مختار الصحاح» مادة (صدع).

(٢) **المتلمِّس**: شاعر جاهلي.

(٣) **علماء الضاد**: يقصد علماء اللغة العربية.

مجرىٰ علماء العَروض[1] الذين لا مناصَ لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلَّق لهم غرضٌ منه بغير أوزانه وقوافيه، وعلله وزحافاته[2].

لا تظنوا أن الشِّعر كما تظنون، وإلا لاستطاع كلُّ قارئ -بل كل إنسان- أن يكون شاعرًا؛ لأنه لا يوجد في الناس من يُعجزه تصورُ النغمة الموسيقية، والتوقيع عليها من أخصر طريقٍ.

أيُّها القوم؛ ما الشعر إلا روحٌ يُودِعها الله فطرةَ الإِنسان من مبدإ نشأته، ولا تزال كامنة فيه كُمُون النار في الزَّند حتىٰ إذا شدا[3]، فاضت علىٰ أسلات[4] أقلامه كما تَفيض الكهرباء علىٰ أسلاكها، فمَنْ أحسَّ منكم بهذه الرُّوح في نفسه، فليعلم أنه شاعرٌ، أوْ لا فليكفِ نفسَه مَؤُونة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلىٰ معاناة ما يلائم طبعه، ويناسب فِطْرَته من أعمال الحياة، فوالله لَلمحراثُ في يد الفلاح، والقَدُّوم في يد النجَّار، والمِسْبر في يد الحداد أشرف وأنفع من القلم في يد النَّظَّام.

---

(١) **العروض**: عِلْم موازين الشعر. «المعجم الوسيط» مادة (عرض).

(٢) **العِلَّة والزِّحاف**: من مصطلحات علم العروض.

(٣) **شدا**: تغنىٰ بالشعر. «المعجم الوسيط» مادة (شدو).

(٤) **أسلات**: جمع أسلة وهو نبات له أغصان كثيرة دِقاق بلا ورق. «لسان العرب» مادة (أسل).

فإن غُمَّ[١] عليكم الأمر، وأعجزكم أن تعلموا مكان الروح الشعريِّ من نفوسكم، فاعرضوا أنفسكم علىٰ مَنْ يرشدكم إليه، ويدلكم عليه حتىٰ تكونوا علىٰ بَيِّنة من أمركم.

---

(١) غُمَّ: استبهم واستعجم. «المعجم الوسيط» مادة (غمم).

الحُرِّيَّة

استيقظت في فجر هذا اليوم علىٰ صوت هِرَّة تموء[١] بجانب فراشي، وتَتَمسَّح بي، وتلحُّ في ذلك إلحاحًا غريبًا، فرابني[٢] أمرها، وأهمَّني همُّها، وقُلْتُ: لعلها جائعة. فنهضت وأحضرت لها طعامًا، فعافته، وانصرفت عنه، فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلىٰ الماء، فلم تحفِل[٣] به، وأنشأتْ تنظر إليَّ نظراتٍ تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان، فأثَّر في نفسي منظَرُها تأثيرًا شديدًا حتىٰ تمنيت أن لو كنت سليمان، أفهم لغة الحيوان؛ لأعرف حاجتها، وأُفَرِّج كُرْبتها، وكان باب الغرفة مُقْفَلًا فرأيتُ أنها تطيل النظر إليه، وتَتلصَّق بي كلما رأتني أتجه إليه، فأدركت غرضها، وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها علىٰ الفضاء، ورأت وجه السماء حتىٰ استحالت[٤] حالتها من حزنٍ وهمٍّ إلىٰ غبطةٍ وسرورٍ، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلىٰ فراشي، وأسلمت

---

(١) **المُواء**: صوت القطِّ. «المعجم الوسيط» مادة (موأ).

(٢) **رابني**: أقلقني وأزعجني. «المعجم الوسيط» مادة (ريب).

(٣) **لم تحفل**: لم تبالِ – لم تهتم–. «القاموس المحيط» مادة (حفل).

(٤) **استحالت**: انقلبت وتحولت. «مختار الصحاح» مادة (حول).

رأسي إلىٰ يدي، وأنشأت أُفكِّر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري! هل تفهم الهرة معنىٰ الحرِّيَّة؛ فهي تحزن لفقدانها، وتفرح بلُقْياها؟! أجَلْ، إنها تفهم معنىٰ الحرية حقَّ الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرُّعها ورجاؤها وتَمسُّحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها.

وهُنَا ذكرت أن كثيرًا من أسرىٰ الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرةُ المحبوسة في الغرفة، والوحشُ المعتقل في القفص، والطير المقصَّص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم مَنْ لا يفكر في وجه الخلاص، أَوْ يلتمس السبيل إلىٰ النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم مَنْ يتمنَّىٰ البقاء في هذا السِّجن، ويأنس به، ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

من أصعب المَسَائل التي يَحار العقل البشريُّ في حلِّها، أن يكون الحيوان الأعجم أوسع مَيْدانًا في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نُطْقُهُ شؤمًا عليه وعلىٰ سعادته؟! وهل يجمُل به أن يتمنَّىٰ الخَرَس والبَلَه ليكون سعيدًا بحُرِّيَّته كما كان سعيدًا بها قبل أن يصبح ذكيًّا ناطقًا؟!

يحلِّق الطير في الجوِّ، ويَسبح السمك في البحر، ويَهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبَسيْن؛ مَحْبَس نفسه، ومَحْبَس حكومته من المهد إلىٰ اللَّحد.

صنع الإنسان القويُّ للإنسان الضعيفِ سلاسل وأغلالًا، وسماها تارةً ناموسًا، وأخرىٰ قانونًا ليظلمه باسم العدل، ويسلُب منه جوهرة حريته باسم الناموس[١] والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقًا حذرًا مروَّعَ القلب، مرتعد الفرائص[٢]، يقيم من نفسه علىٰ نفسه حرَّاسًا، تراقب حركات يديه، وخطوات رجليه، وفلتات لسانه، وخطرات وهمه وخياله؛ لينجوَ من عقاب المستبد، ويتخلصَ من تعذيبه، فويلٌ له ما أكثر جهلَه! وويحٌ له ما أشدَّ حُمقه! وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه، أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟!

لَيْسَت جناية المستبدِّ علىٰ أسيره أنه سلبه حرِّيَّته، بل جنايته الكبرىٰ عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفَقْد تلك الحرية، ولا يَذرِف دمعةً واحدةً عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه، وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود؛ لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه

---

(١) **الناموس**: القانون. «المعجم الوسيط» مادة (نمس).

(٢) **الفرائص**: الفريصة لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع. «المعجم الوسيط» مادة (فرص).

الصَّيَّاد في القفص، وكان ذلك خيرًا له من حياةٍ لا يرىٰ فيها شعاعًا من أشعَّة الحرِّيَّة، ولا تخلُص[١] إليه نسمةٌ من نسماتها.

كان في مبدإ خلقِهِ يمشي عُريانًا، أو يلبَس لباسًا واسعًا يشبه أن يَكُون ظُلَّةً تقيه لفحة الرَّمْضاء[٢]، أو هبة النَّكْباء[٣]، فَوَضَعوه في القِماط[٤] كما يضعون الطفل، وكفَّنوه كما يكفنون الموتىٰ، وقالوا له: «هكذا نظام الأزياء».

كان يأكل ويشرب كلَّ ما تشتهيه نفسه، وما يلتئم مع طبيعته، فَحَالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفًا من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكلَ أو يشربَ إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلمَ أو يكتبَ إلا كما يريد الرئيس الدينيُّ أو الحاكم السياسيُّ، وأن يقومَ أو يقعد، أو يمشيَ أو يقف، أو يتحركَ أو يسكنَ إلا كما تقضي به قوانين العادات وتقاليدها.

لَا سبيلَ إلىٰ السَّعادة في الحياة إلَّا إذا عاش الإنسان فيها حرًّا مطلقًا، لا يسيطر علىٰ جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطرٌ إلا أدبُ النفس.

---

(١) **تَخْلُص**: تصلُ. «مختار الصحاح» مادة (خلص).

(٢) **الرمضاء**: شدة الحرارة. «القاموس المحيط» مادة (رمض).

(٣) **النكباء**: الريح. «لسان العرب» مادة (نكب).

(٤) **القماط**: ما يشد به الصبي في المهد. «مختار الصحاح» مادة (قمط).

الحرِّيَّةُ شمسٌ يجب أن تُشْرق في كل نفسٍ، فمَنْ عاش محرومًا منها، عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيءٍ بحياة اللُّعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثًا جديدًا، أو طارئًا غريبًا، وإنَّما هي فطرته التي فطر عليها مُذْ كان وحشًا يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إنَّ الإنسان الذي يمدُّ يده لطلب الحرية ليس بمتسوِّل، ولا مُسْتَجدٍ، وإنما هو يطلب حقًّا من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها، فلا منَّةَ لمخلوقٍ عليه، ولا يدَ لأحد عنده.

عِبرةُ الهِجْرة

إنَّ في أخلاق النبيِّ ﷺ وسجاياه التي لا تشتمل علىٰ مثلها نفسٌ بشريةٌ ما يغنيه عن كل خارقةٍ تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يَبهرُ العرب من معجزات علمِهِ وحلمِهِ، وصبره واحتماله، وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه أكثر ممَّا كان يَبهرهم من معجزات تسبيح الحصىٰ، وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر؛ ذلك لأنه ما كان يَريبهم[1] في الأولىٰ ما كان يَريبهم في الأخرىٰ من الشبه بينها وبين عِرافة العرَّافين، وكَهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاتُهُ النفسية، وغرائزه وكمالاته، ما نهضت له الخوارق بكلِّ ما يريد، ولا تركت المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر المعروف، ذلك هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كان النبيُّ ﷺ شجاع القلب، فلم يَهبْ أن يدعوَ إلىٰ التوحيد قومًا مشركين، يعلم أنهم غِلاظٌ جُفاةٌ شرسون متحمسون، يغضبون لدينهم غضبَهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم كما يحبون أبناءهم.

---

(١) يريبهم: الريب الظن والشك والتهمة. «المعجم الوسيط» مادة (ريب).

كان علىٰ ثِقَةٍ من نجاح دعوته، فكان يقول لقريشٍ أشدَّ ما كانوا هزءًا به وسخرية: «**يا معشر قريش، والله لا يأتي عليكم غير قليلٍ حتىٰ تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون**».

كان حليمًا سَمْحَ الأخلاق، فلم يزعجه أنْ كان قومه يؤذونه ويزدرونه، ويُشعِّثون[١] منه، ويضَعون التراب علىٰ رأسه، ويُلْقون علىٰ ظهره أمعاء الشاة، وسَلىٰ الجَزور[٢]، وهُوَ في صلاته، بَلْ كان يقول: «**اللَّهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

كان واسعَ الأمل، كبير الهِمَّةِ، صُلب النفس، لبثَ في قومه ثلاث عشرة سنةً يدعو إلىٰ الله، فلا يلبي دعوته إلا الرَّجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلُص اليأس إلىٰ قلبه، فكان يقول: «**والله، لو وضعوا الشَّمس في يميني، والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر حتىٰ يُظهره الله، أو أهلِك فيه ما تركته**»[٣].

---

(١) **يشعثون منه**: يغضضون منه ويتنقصونه. «لسان العرب» مادة (شعث).

(٢) **سلىٰ الجزور**: السلىٰ: غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه. والجزور: ما يصلح أن يذبح من الإبل. «المعجم الوسيط» في مادتي (سلىٰ، جزر).

(٣) إسناده مرسل والقصة حسنة بطريقيها.

وما زال هذا شأنه حتىٰ علم أن مكَّة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلىٰ المدينة، فانتقل الإسلام بانتقاله من السُّكون إلىٰ الحركة، ومن طور الخفاء إلىٰ طور الظهور.

لذلك، كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإِسلام؛ لأنها أكبر مظهرٍ من مظاهره، وكانت عيدًا يحتفل به المسلمون في كل عامٍ؛ لأنها أجمل ذكرىٰ للثبات علىٰ الحق، والجهاد في سبيل الله.

لقَدْ لقي ﷺ في هجرته عناءً كبيرًا، وشدةً عظيمةً، فَإِنَّ قومه كانوا يكرهون مهاجرته، لا ضنًّا به، بل مخافةَ أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما كانوا يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحقين أعوانًا وأنصارًا. فَوَضعوا عليه العيون والجواسيس، فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكرًا بعدما ترك في فراشه ابن عمه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه؛ عبثًا بهم، وتضليلًا لهم عن اللَّحاق به، ومشىٰ هو وصاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه يتسلَّقان الصخور، ويتسرَّبان في الأغوار والكهوف، ويَلُوذان بأكناف الشعاب والهضاب حتَّىٰ انقطع عنهم الطلب، وتمَّ لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات علىٰ الحق.

إنَّ حياةَ النَّبيِّ ﷺ أعظمُ مِثَالٍ يجب أنْ يحتذيَهُ المسلمون للوصول إلىٰ التَّخلُّق بأشرف الأخلاق، والتحلِّي بأكرم الخصال، وأحسنُ مدرسةٍ يجب أن يتعلموا فيها كيفَ يكون الصِّدق في القول والإِخلاص في العمل، والثبات علىٰ الرأي وسيلة إلىٰ النجاح، وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سببًا في علوِّهِ علىٰ الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان، وحكماء الرومان، وعلماء الإِفْرنج؛ فلدينا في تاريخنا حياةٌ شريفةٌ مملوءةٌ بالجد والعمل، والصبر والثبات، والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي والإِنسانية الكاملة، وهي حياة نبينا ﷺ، وحَسْبُنا بها وكفىٰ.



الإنصاف

إذا كان لك صديقٌ تحبه وتواليه، ثم هجمتَ من أخلاقه علىٰ ما لم يحلُ في نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما اطَّرد عندك من أعماله؛ أو كان لك عدوٌّ تذِمُّ طباعه، وتَنقِم منه شؤونَه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خيرٍ، فتحدَّثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك علىٰ الهفوة التي ذممتها، وحمد عدوك علىٰ الخلة التي حمدتها، عدَّك الناس مُتَلَوِّنًا أو مُخادِعًا أو ذا وجهين تَمدح اليوم من تذم بالأمس، وتَذم في ساعةٍ مَنْ تمدح في أخرىٰ، وقالوا: إنك تظهر ما لا تضمر، وتُخْفي غير الذي تبدي، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوىٰ النفس وضلالها، ولسَمَّوا ما بدا لهم منك اعتدالًا لا نفاقًا، وإنصافًا لا خداعًا؛ لأنك لم تَغْلُ في حب صديقك غلوَّ مَنْ يعميه الهوىٰ عن رؤية عيوبه، ولم تتمسَّك من صداقته بالسبب الضعيف، فعُنيت بتعهُّد أخلاقه، وتفقُّد خلاله؛ لإصلاح ما فسد من الأولىٰ، واعوجَّ من الأخرىٰ.

إنَّ صديقَك الذي يَبسِم لك في حَاليْ رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يُغْتبط بمودته، أو يوثق بصداقته؛ لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تَتَراءىٰ فيها، فتكشفَ لَكَ عن نفسك،

وتَصدُقك عن زينك وشينك[١]، وحلوك ومرك، وَهُوَ إمَّا جاهلٌ متهور في ميوله وأهوائه، فلا يرىٰ غير ما تريد أن ترىٰ نفسُه لا ما يجب أن تراه، وإما منافقٌ مخادعٌ، قد علم أن هواكَ في الصمت عن عيوبك، وتجرير الذُّيول عليها فَجارَاك فيما تريد؛ ليبلغ منك ما يريد.

فها أنت ترىٰ أن النَّاس يعكسون القضايا، ويقلبون الحقائق، فيسمون الصادقَ كاذبًا، والكاذبَ صادقًا، ولكن الناس لا يعلمون.

---

(١) **شَينك**: الشَّيْنُ العيبُ والقُبحُ. «المعجم الوسيط» مادة (شين).





المدنية الغربية

سَأودِّع في هذه النظرة الخيال والشعر وَداع مَنْ يعلم أن الأمرَ أعظمُ شأنًا، وأجلُّ خطرًا من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف الَّتي هي بالهزل أشبهُ منها بالجدِّ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه، لا في مواطن جدِّه وعمله.

إنَّ في أيدينا -معشرَ الكتَّاب- من نفوس هذه الأُمَّة وديعةً يجب علينا تعهدها، والاحتفاظُ بها، والحدَب عليها حتىٰ نؤديَها إلىٰ أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا من قبلنا سالمةً غير مأروضةٍ ولا متآكلةٍ، فَإِنْ فعلنا فذاك، أوْ لا، فرَحْمةُ الله علىٰ الصدق والوفاء، وسلامٌ علىٰ الكتَّاب الأمناء!

الأمَّة المصريَّة أمَّة مسلمة شرقية؛ فيجب أن يبقىٰ لها دينها وشرقيَّتها ما جرىٰ نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها حتىٰ تُبَدَّلَ الأرض غيرَ الأرض والسموات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصريُّ إلىٰ الغرب تدني إليه أجله، وتُدنيه من مهوًىٰ سحيق يُقْبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلىٰ يوم يبعثون.

لا يستطيع المصريُّ، وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغِربال من دقيق الخبز، يمسك خُشاره، ويُفلت لُبانَه، أو الراووق[١] من الخمر يحتفظ بعُقاره، ويستهين برحيقه، فخَيرٌ له أن يتجنبها، وأن يفرَّ منها فِرارَ السليم من الأجرب.

يُرِيدُ المصريُّ أن يقلِّد الغربيَّ في نشاطه وخفَّته، فلا يَنشَط إلا في غدوته ورَوْحته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجدُّ، وأراد نفسه علىٰ أن يعمل عملًا من الأعمال المحتاجة إلىٰ قليلٍ من الصبر والجلد، دبَّ الملل إلىٰ نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء، والكرىٰ بين أهداب الجفون.

يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولىٰ التأنُّث في الحركات، والثانية الاختلافُ إلىٰ الحانات.

يريد أن يقلِّده في الوطنية، فلا يأخذ منها إلا نعيقَها ونعيبَها وضجيجها وصفيرَها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟ أسلم رِجْلَيه إلىٰ الرياح الأربع، واستنَّ في فراره استنان المهر الأرِن[٢]، فإذا سمع صفير الصافر، مات وَجِلًا، وإذا رأىٰ غيرَ شيءٍ، ظنه رجلًا.

---

(١) **الراووق**: المِصْفَاة. «المعجم الوسيط» مادة (روق).

(٢) **الأرن**: النشيط المرح. «المعجم الوسيط» مادة (أرن).

يريد أن يقلِّده في السِّياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقبَ الأرض الميتة فصلَ الربيع حتَّىٰ إذ حان حينه، طار إلىٰ مُدُن أوروبا طيران حمام الزاجل، لا يبصر شيئًا مما حوله، ولا يلوي علىٰ شيءٍ ممَّا وراءه حتىٰ يقع علىٰ مجامع اللهو، ومكامن الفجور، وملاعب القِمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأوَّل ما يقوده إلىٰ طريق السفينة التي تحمله في أوبته[1]، ولا من الثاني أكثر من الجَعالة[2] التي يَجْتَعَلُها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته حادثة عودته، موشَّاةً[3] بجُمل الإجلال والاحترام، مطرزة بوشائع[4] الإكرام والإعظام.

يريد أن يقلده في العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شِدقيه ترديدًا لا يلجأ فيه إلىٰ ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلِّده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع علىٰ أمعاء تلتهب فيها نارُ الجوع التهابًا حتىٰ إذا سمع

---

(١) **أوبته**: رجعته – عودته –. «لسان العرب» مادة (أوب).

(٢) **الجِعالة**: ما جُعل للإنسان من شيء علىٰ فعل. «مختار الصحاح» مادة (جعل).

(٣) **موشاة**: الوشي نقش الثوب ويكون من كل لون. «المعجم الوسيط» مادة (وشي).

(٤) **وشائع**: قبب من ألوان الخيوط. «المعجم الوسيط» مادة (وشع).

دعوةً إلىٰ اكتتابٍ في فاجعةٍ نزلت في القطب الشمالي، أو كارثةٍ ألمَّت بسدِّ يأجوجَ ومأجوجَ، سجل اسمه في فاتحة الكتاب، ورصد هبته في مستهلِّ جريدة الحساب.

يريد أن يقلِّده في تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه مَنْ علمها مقالةً تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في مَحفِل، ومن تربيتها التفنُّن في الأزياء، والمقدرة علىٰ سحر النفوس، واستلاب الألباب.

هذا شأنُهُ في الفضائل الغربية يأخذها صورةً مشوهةً، وقضيةً معكوسةً لا يعرف لها مغزًىٰ، ولا ينتحي بها مقصدًا، ولا يذهب فيها إلىٰ مذهبٍ، فيكون مثَلُه في ذلك كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأىٰ بالأقذار والأكدار، ويُجَارونهم في أداء صور العبادات وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاءَ، ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بِعُمَر في ترقيع الثياب وإنْ كانوا أحرص علىٰ الدنيا من صيارفة الإسرائيليين.

أمَّا شأنه في رذائلها، فإنه أقدر الناس علىٰ أخذها كما هي، فينتحر كما ينتحر الغربي، ويُلحد كما يلحد، ويُستهتَر في الفسوق استهتاره، ويترسَّم في الفجور آثاره.

إن في المصريين عيوبًا جمَّة في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلىٰ إصلاحها، فلندعُ إلىٰ ذلك باسم المدنية الشرقية، لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوناهم إلىٰ الحضارة، فلنضرب لهم مثلًا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا بباريس ورومة وسويسرة ونيويورك، وإن دعوناهم إلىٰ مَكرُمة، فلنتلُ عَلَيهم آيات الكتب المنزَّلة، وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات رُوسُّو وباكون ونيوتن وسبنسر، وإنْ دَعَوناهم إلىٰ حربٍ، ففي تاريخ خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وموسىٰ بن نصير[1]، وصلاح الدين[2]، ما يُغْنينا عن تاريخ نابليون، وولنجتون، وواشنطن، ونلسن، وبلوخر، وفي وقائع القادسيَّة وَعمُّورية وإفريقية والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين.

إن عارًا علىٰ التاريخ المصريِّ أن يعرف المسلمُ الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ

---

(١) **موسىٰ بن نصير**: (١٩هـ - ٩٧هـ) (٦٤٠م - ٧١٦م) قائد عسكري في عصر الدولة الأموية، أصبح واليًا علىٰ أفريقيا من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك.

(٢) **صلاح الدين الأيوبي**: (٥٣٢ - ٥٨٩هـ) (١١٣٨ - ١١٩٣م): قائد عسكري، أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام وتهامة واليمن، وانتصر علىٰ الصليبيين في موقعة حطين، واشتهر بتسامحه مع أعدائه حتىٰ حظي باحترام الجميع.

من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مَبادِئ ديكارت وأبحاث دَارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي[١] وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي[٢] والمعري[٣].

لَا مانعَ من أن يعرِّب لنا المعربون المفيد النافع من مُؤلَّفات علماء الغرب، والجيدَ الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم علىٰ أن ننظرَ إليه نظرة الباحث المنتقد لا الضعيفِ المستسلم، فلا نأخُذُ كلَّ قضيةٍ علميةٍ قَضيةً مُسلَّمةً، ولا نطرب لكل معنىٰ أدبي طربًا متدفِّعًا، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئًا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم علىٰ أن ننظر إليه نظرَ من يريد التبسُّط في العلم بشؤون العالم، والتوسُّع في التجربة والاختبار،

---

(١) **الغزالي:** (٤٥٠ – ٥٠٥هـ) (١٠٥٨م – ١١١١م) كان فقيهًا وأصوليًّا وفيلسوفًا، صار مقصد الطلاب الشرعي من جميع البلدان، ثم اعتزل الناس وتفرغ للعبادة وتربية نفسه. ومن كتبه: «إحياء علوم الدين».

(٢) **أبو الطيب المتنبي** (٣٠٣هـ - ٣٥٤هـ) (٩١٥م – ٩٦٥م): شاعر مشهور عاش أفضل أيام حياته وأكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، واشتهر بحدة الذكاء وظهرت موهبته الشعرية مبكرًا.

(٣) **المعري** (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ) (٩٧٣ – ١٠٥٧): شاعر وفيلسوف ولغوي وأديب عربي من عصر الدولة العباسية.

لا علىٰ أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا.

وبعد، فليعلم كُتَّابُ هذه الأمة وقادتها أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسُدُهم عليه كثيرًا، فلا يخدعوا أُمَّتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها، وشرقيتها، ولا يُزيِّنوا لها هذه المدنية الغربية تزيينًا يرزؤها في استقلالها النفسي بعدما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي.

يوم الحساب

سَاهرتُ الكوكبَ ليلة أمس حتىٰ ملَّني ومللته، وَضَاق كلٌّ منَّا بصاحبه ذرعًا، وقد وقَف الهمُّ بيني وبين الكرىٰ أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتىٰ أسلس قيادهُ، وسكن جماحه.

لَمْ تخالط جفنيَّ سِنة الكرىٰ حتىٰ خُيِّل إليَّ أنِّي قد انتقلت من العالم الأوَّل إلىٰ العالم الثاني، ورأيت كأني بُعثت بعد الموت، وكأنَّ أبناء آدمَ مجتمعون في صَعِيدٍ واحدٍ، يحاسَبون علىٰ أعمالهم، فألهِمتُ أنه موقف الحشر، وأنه يوم الحساب.

أنْشَأتُ أمشي مِشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهبًا، ولا مضطرَبًا، ولا أجد مَنْ يأخذ بيدي ويدلُّني علىٰ نفسي في هذا الموقف الذي يَنشد فيه كل ذي نفسٍ نفسَه، فلا يجد إليها سبيلًا، فَطفقتُ أتصفَّح وجوه الواقفين، وأقلب النظر في الغادين والرائحين علَّني أجد صديقًا أستأنس به في وحدتي، وأستعين بمرافقته علىٰ وَحْشتي، فلا أرىٰ إلا خَلقًا غريبًا، وَمنْظَرًا عجيبًا، ووجوهًا ما رَأيتُ لها في حياتي شبيهًا، ولا ضريبًا، ولولَا

أني أعلم أنَّ الحسابَ خاصٌّ بالإنسان، لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان!

هنالك، وقَدْ بلغ اليأس والهمُّ مبلغهما من نفسي، رأيتُ علىٰ البعد وجهًا يبتسم لي، ويدنو منِّي رويدًا رويدًا، فأرقلت(١) نحوه حتىٰ بَلغتُه، فإذا صديقي «فلان»، وإذا وجهه يتلألأ تلألُؤَ الكوكبِ في علياء السماء، فسألته ما فعل الله به، فقال: «حاسبني حسابًا يسيرًا، ثم غفر لي، وها أنذا ذاهبٌ إلىٰ ما أعدَّ الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم». فعجبت لشأنه، وقلت في نفسي: «لقد هان أمر الحساب علىٰ كل عاصٍ بعدما هان علىٰ هذا الذي كنت أعرفه في أولاهُ، لا يتقي مأثَمًا، ولا يهاب منكرًا، ولا يخرج من حانٍ إلا إلىٰ حانٍ، ولا يودِّع مجمعًا من مجامع الفسق إلا علىٰ موعدٍ من اللقاء»، فَنَظر إليَّ نظرة العاتب اللائم، وابتسم ابتسامةً عَلمتُ منها أنَّ الرجل قد ألَمَّ بما أضمرته في نفسي، فذكرتُ أَنْ قد كُشِفَ الغطاء في هذه الدَّار، وأنْ قَد رُفِعَ الحجابُ بين الناس، فلا سرَّ ولا جهر، ولا بطن ولا ظهر، ولا فرق بين حركات اللسان، وخطرات الجَنان، نظر إليَّ تلك النظرة، وقال: «لا تعجب لأمْرٍ في هذه الدَّار، فكلُّ ما فيها عجيبٌ، واعلم أنَّ الله حاسبني علىٰ كلِّ ما

---

(١) **أرقلت**: أسرعت. «المعجم الوسيط» مادة (رقل).

كنت أجترح[١] من الإثم في الدار الأولىٰ إلا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنةً ذهبت بجميع السيئات، ذلك أنه كان لي جارٌ من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبرِّ، نكبه دهره نكبةً ذهبت بماله، فأهمَّني أمره، وأزعجني أن أراه في مستقبل الأيام بائسًا مُعْدَمًا، يريق ماء وجهه علىٰ أعتاب الذين كان يُسدي[٢] إليهم نعمته، وعلمت أني إنْ عرضت عليه شيئًا من مالي، أخجلتُهُ، وصَغَّرتُ نفسه في عينه، فاحتلت علىٰ أن أدخل في بيته خادمًا كانت في بيتي، وجعلت لها جُعْلًا[٣] علىٰ أن تَدُسَّ في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانيرَ من حيث لا يشعر بمأتاها، ولا يقف علىٰ سرِّها، وما زَال هذا شأني وشأنه لا يعلم من أين يأتيه رزقه، ولا يشعر أحدٌ من الناس باستحالة حاله، وذَهاب ماله حتىٰ فرَّق الموت بيني وبينه. فمَا نفعني عملٌ من أعمالي ما نفعني هذا العمل، وما كان الإحسانُ وَحْده سببَ سعادتي، بل كان سببها أنه أصَاب الموضع، وخلَص من شائبة الرياء»، فهنَّأته بنعمة الله عليه، وشكوتُ إليه وحشتي من الوَحْدة، وخوفي من المحاسبة، فقال: «أمَّا الوحشة، فإنِّي لن أفارقك حتىٰ يأتي دورك، وأمَّا الخوف فلا حيلةَ لي، ولا لأحدٍ من الناس في

(١) **أجترح**: أكتسب. «المعجم الوسيط» مادة (جرح).

(٢) **يُسدي**: يعطي. المعجم الوسيط مادة (سدي).

(٣) **الجُعْل**: ما جُعل للإنسان من شيء علىٰ فعل. مختار الصحاح مادة (جعل).

نقض ما أبرم الله في شأنك»، فقلت: «أنتَ من السُّعداء، فهل تستطيع أن تشفع لي، أو تطلب لي شفاعةً من وليٍّ من الأولياء، أو نبيٍّ من الأنبياءِ؟». قال: «لا تطلب المحال، ولا تصدِّق كلَّ ما يقال، فقد كنا مخدوعين في الدار الأولىٰ بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها منا تجار الدين بثمنٍ غالٍ، ولا يتقون الله في غشِّنا وخداعنا، وما الشَّفاعة إلا مظهرٌ من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعضَ عباده المقربين، فلا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ولا يأذن بالشفاعة لأحدٍ إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له، أو في أعماق سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة علىٰ غيره من العصاة والمذنبين، والله ﷻ أجلُّ من العبث، وأرفع من المُحَاباة».

وما وَصَل من حديثه إلىٰ هذا الحد حتىٰ رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجلٍ يُسَاق إلىٰ النار، ورأينا في يد كلِّ واحدٍ منهم مِقْرعةً من الحديد يَقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: «أهلكتني يا أبا حنيفةَ!»، فسألت صاحبي: «ما ذنب الرجل؟»، فقال: «إنَّه كان في حياته يتَّخذ في أعماله ما يسمونه: «الحيل الشرعية»، فكان يَهب ماله لأحد أولاده علىٰ نية استرداده قبل أن يَحُول عليه الحول؛ ليتخلص من فريضة الزكاة، ويطلِّق زوجته ثلاثًا، ثم يأتي بمحلِّلٍ يحللها له، فيعود إلىٰ معاشرتها، وكان

يرابي باسم الرهن، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالًا، أبىٰ أن يُقْرضه إلا إذا وضع في يده رهنًا، فإذا وضَع يده علىٰ ضَيْعته، ألزمه أن يَستأجرها منه بمالٍ كثيرٍ، يراعي فيه النسبة التي يُرَاعيها المرابون بين الربح وأصل المال. وكان إذا حلف لا يدخل بيتًا، دخله من نافذته، أو لا يأكل رغيفًا أكله إلا لقمةً منه، فذنبه أنه كان يَعمِد إلىٰ الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعها إلىٰ الله قشورًا جوفاء؛ ليخدعه بها، ويغُشَّه فيها كما يفعل مع الأطفال والبُلْه، مستندًا علىٰ تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبو حنيفة أرفع قدرًا، وأهدىٰ بصيرةً من أن يتخذ الله هزءًا أو سخريةً، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين».

وَمَا انقطَع عنَّا صوت هذا الشقيِّ حتىٰ رأينا شقيًّا آخر ذا لحيةٍ طويلةٍ كَثَّةٍ قد أحاط به ملَكان، وشدَّا عنقه بسُبْحةٍ طويلةٍ ذات حبات كبيرة، وقد أخذ كلٌّ منهما بطرفٍ منها، وهو يهمهم بكلماتٍ مبهمةٍ، فيَقرعه أحدُهُما علىٰ رأسه، ويقول له: «أمكرٌ وأنتَ في الحديد؟!»، فدَنوتُ منه، وأنعمت النظر في وجهه، فعرفته، فتراجعت ذعرًا وخوفًا، وقلت: «أيكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولىٰ؟!»، فقال لي صاحبي: «إن هذا الذي كنت تحسَبه في أولاه من

الأقطاب كان أكبر تاجرٍ من تجار الدين، وما هذه اللحية والسُّبحة والهمهمة والدمدمة إلا حبائلُ[١] كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن النَّاس لا يعلمون».

ومَا زَال المُنْصرفون من موقف القضاء يمرُّون بنا، هَذَا إلىٰ جنَّته، وذاك إلىٰ ناره، وأنا أسأل عن شأن كلٍّ منهم واحدًا فواحدًا، فأرىٰ سعيدًا مَنْ كنت أحسبُهُ شقيًّا، وشقيًّا من كنت أحسبُه سعيدًا؛ فَسَجلتُ أن الله ﷻ يحاسب الناس علىٰ قلوبهم، لا علىٰ جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم، وأن لا سعادةَ إلا الصدق، ولا شقاء إلا الكذب. وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات يُلمُّ بها صاحبها إلمامًا، ثم يندم عليها، ورأيتُ أن أكْبَرَ ما يعاقِب الله عليه جنايةُ المرء علىٰ أخيه بسفك دمه، أو هتك عرضه، أو سلب ماله، وأن أضعف الوسائل إلىٰ الله ذلك الركوع والسجود، والقيام والقعود، فلو أن امرأً قضىٰ حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ثم ظلم طفلًا صغيرًا في لقمةٍ يختطفها من يده، لاستحالت حسناته إلىٰ سيئات، وما أغنىٰ عنه نسكهُ من الله شيئًا.

وبَيْنا أنا أُحَدِّث نفسي بهذا الحديث، وأُقلِّبُ النَّظر في وجوه تلك المواعظ والعِبَر، إذ قال لي صاحبي: «أتعرف هَذَين؟»، وأشَار إلىٰ رجلين

---

(١) **حبائل**: جمع حبالة وهي المصيدة. «المعجم الوسيط» مادة (حبل).

واقفين ناحيةً يتناجيان، أحدُهُما شيخٌ جليلٌ أبيض اللحية، وثانيهما كهلٌ نحيفٌ قد اختلط مبيضه بمسوده، فَمَا هي إلا النظرة الأولىٰ حتىٰ عرفت الرجلين العظيمين: رجل الإسلام «محمد عبده»(١) ورجل المرأة «قاسم أمين»(٢)، فقلت لصاحبي: «هل لك في أن ندنو منهما، ونسترقَ نجواهما من حيث لا يشعران؟»، ففعلنا، فسمعنا الأوَّل يقول للثاني: «ليتك يا قاسمُ أخذت برأيي، وأحللتَ نصحي لك محلًّا من نفسك! فقد كنتُ أنْهَاك أن تُفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عُدَّته من الأدب والدين، فجنىٰ كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها، وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء»، فَقَال له صاحبه: «إنِّي أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تَسفِر، وألا ترفَع برقعها قبل أن تَنسج لها برقعًا من الأدب والحياء». قال: «ولكن قد فاتك ما كنت تنبأتُ لك به من أنها جاهلة لا تفهم هذا التفصيل، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنتَ كمَنْ يعطي الجاهل سيفًا ليقتل به غيره فيقتل

---

(١) **محمد عبده** (١٢٦٦هـ - ١٣٢٣هـ) (١٨٤٩م - ١٩٠٥م): عالم وفقيه مصري، ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي والعربي، اشترك في ثورة عرابي ضد الإنجليز، تم تعيينه مفتيًا للديار المصرية عام (١٣١٧هـ - ١٨٩٩م).

(٢) **قاسم أمين**: قاض وأديب مصري، ولد عام (١٨٦٣م) في بيئة أرستقراطية اشتهر بأنه زعيم الحركة النسائية في مصر. ومن كتبه (تحرير المرأة - والمرأة الجديدة).

نفسه»! فقال له: «أتَأذنُ لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعتَ في مثل ما وقعت فيه من الخطإ، وإنك نصحتني بما لم تنتصح به، أنا أردتُ أن أنصح المرأة فأَفْسَدتُها كما تقول، وأنت أردت أن تحييَ الإسلام فقتلته، إنك فاجأت جَهَلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة، والأغراض الشريفة، فأرادوا غير ما أردت، وفهموا غير ما فهمت، فأصبحوا ملحدين بعد أن كانوا مخرِّفين، وأنت تعلم أن دينًا خرافيًّا خيرٌ من لا دين، أوَّلت لهم بعض آيات الكتاب، فاتَّخذوا التأويل قاعدةً حتىٰ أولوا الملَك والشيطان والجنة والنار، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها، وسفَّهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لُبَابها، فَتَركوها جملة واحدة. وقلت لهم: إن الولي إله باطل، والله إلهٌ حقٌّ، فأنكروا الألوهية حقَّها وباطلها». فتهلَّل وجه الشيخ، وقال له: «ما زلت يا قاسم في أخراكَ، مثلك في دنياك، لا تضطرب في حجة، ولا تنام عن ثأر. يا قاسم لا تحمل هَمًّا، ولا تَخْشَ شرًّا، وثق أن الله سيحاسبنا علىٰ نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا. إنَّا ما أردنا إلا الخيرَ لأمتنا، وما قَدَّرنا لها في مستقبلها إلا ما تحتمله عقولنا، فإنْ كذبتْ فِراستنا أو أخطأ تقديرنا، فذلك لأن المستقبل بيد الله».

وما وصلا من حديثهما إلىٰ هذا الحد حتىٰ تركا مكانهما وذهبا لشأنهما. فقلت لصاحبي: «هل لك أن تريني الميزان والصِّراط والجنة

والنار؟ فإني ما زلت في شوق إلىٰ رؤية تلك الأشياء، ورؤية مواقِعِها منذ رأيتها في «خريطة الآخرة» التي رسمها الشعرانيُّ[١] في بعض كتبه». قال: «أمَّا الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما الصراط فهو سبيلُ الإِنسان إلىٰ سعادته أو شقائه، وأما الجنة والنار فلا علمَ لي حتىٰ الساعة بهما».

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتًا صارخًا ما قَرع سمعي في حياتي مثلُه يناديني باسمي، فعلمت أن قد جاء دوري، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي، فاستيقظت فلم أرَ حسابًا ولا عقابًا، ولا موقفًا ولا محشرًا، فعلمتُ أنها خيالات وأوهام، أو أضغاث أحلام[٢]، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

---

(١) **الشعراني (٨٩٨هـ - ٩٧٣هـ)**: عالم صوفي مصري، وكانوا يسمونه: «القطب الرباني» وقد سلك طريق التصوف بعد تمكنه من العلوم الشرعية.

(٢) **أضغاث أحلام**: ما كان منها ملتبسًا مضطربًا يصعب تأويله. «المعجم الوسيط» مادة (ضغث).



الشَّعْرَةُ البيضاءُ

مررت صباح اليوم أمام المرآة فلمحت في رأسي شعرة بيضاء، تلمع في تلك اللَّمَّة السوداء، لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء في فَودي[١] فارتعتُ لمرآها كأنما خُيِّلَ إليَّ أنها سيف جَرَّدَه القضاء علىٰ رأسي، أو علمٌ أبيضُ يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل، أو يأسٌ قاتلٌ عرَض دون الأمل، أو جذوةُ نار عَلِقت بأهداب حياتي علوقَها بالحطب الجزْل، ولا بد مهما ترفقت في مِشيتها واتَّأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها، أو خيطٌ من خيوط الكفن الذي تَنْسِجه يد الدهر وتُعدُّه لباسًا لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.

أيتها الشعرة البيضاء؛ ما رأيت بياضًا أشبه بالسواد من بياضك، ولا نورًا أقربَ إلىٰ الظلمة من نورك. لقد أبغضتُ من أجلك كلَّ بياض حتىٰ بياض القمر، وكلَّ نور حتىٰ نور البصر، وأحببتُ فيك كلَّ سوادٍ حتىٰ سواد الغربان، وكلَّ ظلام حتىٰ ظلام الوجدان.

(١) فَوْدِي: جانب الرأس مما يلي الأذن. «المعجم الوسيط» مادة (فود).

أيتها الشعرة البيضاء؛ ليت شعري من أيِّ نافذةٍ خَلَصْتِ إلىٰ رأسي؟ وفي أيِّ مسلكٍ من مسالِكِ الدَّهر مشيتِ إلىٰ فَودي؟

كيف طاب لك المُقامُ في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها أنيسًا يسامرك، ولا جليسًا يساهرك؟ كيف لم يُرَعْ[١] قلبكِ لمنظر هذا الليل الفاحم؟ ولم يَعْشَ بصرُكِ في هذا الظلام القاتم؟

أيتها الشعرة البيضاء؛ لقد عييتُ بأمركِ، وَبعِلْتُ بحملكِ، وأصبحتُ لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنكِ، والفرار من وجهكِ.

لا ينفعني معكِ أن أنزعكِ من مكانكِ لأنكِ لا تلبثين أن تعودي إليه، ولا ينقذني منكِ أن أخضّبكِ بالسواد لأنكِ لا تلبثين أن تنصُلي[٢]؛ ولأني لا أحب أن أجمع علىٰ نفسي بين مصيبتين: مصيبة الشيب، ومصيبة الكذب!

أيتها الشعرة البيضاء؛ يخيَّلُ إليَّ، وأنا أنظر إليكِ أنكِ من ذوات الحيلة والدهاء والكيد والخبث، وأنكِ تهمسين في آذان أخواتِكِ السود اللواتي بجانبك، تحاولين إغراءهن بالتشبه بكِ والتردي بردائكِ، وكأني بكِ وقد أشعلتِ في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حربًا شعواءَ، وفتنة عمياءَ،

---

(١) **لم يَرُعْ**: لم يفزع. «المعجم الوسيط» مادة (روع).

(٢) **تنصلي**: نصل الشعر: زال عنه الخضاب. «مختار الصحاح» مادة (نصل).

يختلط فيها الرامح[١] بالنابل[٢] والدارع[٣] بالحاسِر[٤]، ويَهلِكُ فيها القاعد والقائم، والمظلوم والظالم.

إن كان هذا مصيرَكِ، فسيكون شأنكِ شأنَ ذلك السائح الأبيض الذي ينزل بأمة الزنج مُسْتكشفًا، فيصبح مستعمِرًا، ويدخل أرضها سلمًا، ويفارقها حربًا، فأسأل الله لرأسي العافية منكِ، ولأمة الزنج السلامة من صاحِبكِ، فكلاكما مشئوم الطلعة في مُقامِه وارتحاله، وكوكبُ النحس في وقوفه وتَسياره.

أيتها الشعرة البيضاء؛ ما أنت؟ وما وفودُكِ إليَّ؟ وما مكانُكِ مني؟ ومُقامك عندي؟ إن كنتِ ضيفًا فأين استئذان الضيف وتلطُّفه، وتجمُّله وتودُّده؟! وإنْ كنتِ نذيرًا فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه إلىٰ نذير. فلم يبقَ إلا أن تكوني أوقح الخلائق وجهًا؛ وأصلبها خدًّا، وأنكِ قد نزلتِ من السماجةِ والفضول منزلةً لا أرىٰ لكِ فيها شبيهًا، إلا تلك الحيةَ التي تلج كل جُحر من أجحار الهوامِّ والحشرات تَعُده جحرها، وتحسَبُه بيتها.

---

(١) **الرامح**: ذو رمح. «مختار الصحاح» مادة (رمح).

(٢) **النابل**: الحاذق بالنَّبْل. «القاموس المحيط» مادة (نبل).

(٣) **الدَّارع**: لابس الدرع. «المعجم الوسيط» مادة (درع).

(٤) **الحاسر**: من لا درع له. «القاموس المحيط» مادة (حسر).

أيبلغ بكِ الشأن - وأنتِ التي يضربون الأمثال بدقتها وخفائها ويبعثون وراءها الملاقط والمقاريض، فلا يكادون يعرفون السبيل إلىٰ مدارجها ومكامنها - أن تمْلَئي من الرعب قلبًا لا يَروعه السيف المجرد، ولا السهم المسدَّدُ؟!

لا، لا؛ ما ذُعرتُ ولا ارتعتُ، وما حزنتُ ولا بكيتُ، وإنما هي خطرةٌ من خطرات الأمل الكاذب، ولمحةٌ من لمحات البرق الخالب.

أيتها الشعرة البيضاء؛ هل لكِ أن تتجاوزي عما أسأتُ به إليكِ في إطالة عتبكِ، واستثقال ظلكِ؛ فلقد رجعتُ إلىٰ نفسي، فعلمتُ أنكِ أكرم الخلائق عندي، وأعظمها في عيني، هنيئًا لكِ رأسي مَصيفًا ومُرتَبَعًا[1]، وهنيئًا لكِ فَودي مَرادًا ومَسرحًا، فأنتِ رسولُ الموت الذي ما زلتُ أطلبه مُذ عرفته، فلا أجد له سبيلًا، ولا أعرف له رسولًا.

ما الذي يحمله في صدره لكِ من الحقد والموْجدة رجلٌ لم ينعَم بشبابه، فيحزَن علىٰ ذهابه، ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لمرارة الممات، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنًا رطبًا، فيأسَىٰ عليها عودًا يابسًا؟!

ما الذي ينقمه منكِ من الشؤون رجلٌ يعلم أنك وحي الأمل، الذي

(١) **المرتبع**: الموضع يُقام فيه زمن الربيع. «المعجم الوسيط» مادة (ربع).

يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءِ إلا لحظاتٌ قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان، كما تكدر أنفاسُ الحزن الحارة صفحة المرآة؟!

أليس كلُّ ما أعُده عليكِ من الذنوب أنكِ طليعة الموت، والموتُ هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، الحافل بالآلام والأسْقام، الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها علىٰ صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه ليمضغ عشيره، وغنيٍّ يضِنُّ علىٰ الفقير بفُتاتِ مائدته، وفقير يقترح علىٰ الدهر حتىٰ بُلْغَةِ[1] الموت فلا يظفر بأمنيته، وملكٍ لا يفرِّق بين رعيتِه وماشيته، ومملوكٍ لا يميز بين مُلك الملك وربوبيته، وقلوب تضطرمُ حقدًا علىٰ غير طائل، ونفوس تتفانىٰ قتلًا علىٰ لونٍ حائل، وظلٍّ زائل، وغرض باطل، وعقول تتهالك وجدًا علىٰ نار تُحرقها، وأنياب تمزقها، وعيون حائرة في رؤوس طائرة، تنظر ولا ترىٰ شيئًا مما حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها، إن كان هذا هو ذنبكِ عندي، فاستكثري من ذنوبِك فإني لكِ من الغافرين.

أيتها الشعرة البيضاء؛ مرحبًا بكِ اليوم ومرحبًا بأخواتِكِ غدًا، ومرحبًا بهذا القضاء الواقف وراءكِ أو الكامن في أطوائكِ، ومرحبًا بتلك

(١) **البُلْغَة**: ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها. «المعجم الوسيط» مادة (بلغ).

الغرفة التي أخلو فيها بربي وآنس فيها بنفسي، من حيث لا أسمع حتىٰ دويّ المدافع، ولا أرىٰ حتىٰ غبار الوقائع.

أهـــــلًا بوافــــدةٍ للشــــيب واحـــــدة

وإن تـــراءت بشــــكل غيـــر مــــودود

الصياد

حدَّث أحد الأصدقاء قال: «بينا أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل عليَّ رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة، فعرضها عليَّ فلم أساومه فيها، بل نقدته الثمن الذي أراده فأخذه شاكرًا متهللًا وقال: «هذه هي المرة الأولىٰ التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته، أحسن الله إليك، كما أحسنت إليَّ، وجعلك سعيدًا في نفسك، كما جعلك سعيدًا في مالك». فسررت بهذه الدعوة كثيرًا وطمعت أن تُفتح لها أبواب السماء. وعجبت أن يهتدي شيخ عامِّي إلىٰ معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأنِ السعادة المالية، فقلت له: «يا شيخ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟» فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال: «لو كانت السعادة سعادة المال، لكنت أنا أشقىٰ الناس لأنني أفقر الناس».

قلت: «هل تَعُدُّ نفسك سعيدًا؟» قال: «نعم؛ لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي، لا أحزن علىٰ فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أيِّ باب يخلُص الشقاء إلىٰ قلبي؟!» قلت: «أيها الرجل، أين يُذهب بك وما أرىٰ إلا أنك شيخ قد اختُلس عقلُه!

كيف تعدُّ نفسك سعيدًا وأنت حافٍ غير منتعل، وعارٍ إلا قليلًا من الأسمال[١] البالية والأطمار[٢] السحيقة؟» قال: «إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناءها، فأنا سعيد لأني لا أجد في رثاثة ملبسي، ولا في خشونة عيشي ما يولِّد لي ألمًا، أو يسببُ لي همًّا، وإنْ كانت السعادة عندكم أمرًا وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك».

قلت: «ألا يَحزُنك النظرُ إلىٰ الأغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخَدمهم وخولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يَحزُنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟» قال: «إنما يُصغِّر جميعَ هذه المناظر في نظري ويهوِّنها عندي أني لا أجد أن أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها، أكثر مما نلته بفُقدانها. هذه المطاعم التي تذكُرها إن كان الغرض منها الامتلاء، فأنا لا أذكرُ أني بتُّ ليلة في حياتي جائعًا، وإن كان الغرضُ منها قضاء شهوة النفس، فأنا لا آكلُ إلا إذا جعتُ، فأجدُ لكل ما يدخل جوفي لذةً لا أحسبُ أن في شهوات الطعام لذةً تفضُلُها. أما القصورُ فإنَّ لديَّ كوخًا صغيرًا لا أشعُرُ بأنه يضيق بي وبزوجتي وولدي؛ فأقرع السنَّ علىٰ أن لم يكن قصرًا كبيرًا، وإنْ كان لا بدَّ من إمتاع النظر

(١) **الأسمال**: جمع سَمْل وهو الخَلَقُ من الثياب. «مختار الصحاح» مادة (سمل).
(٢) **الأطمار**: جمع طِمْر وهو الثوب الخَلَق البالي. «المعجم الوسيط» مادة (طمر).

بالمناظر الجميلة، فحسبي أن أحمل شبكتي فوق كتفي كلَّ مطلَع فجر وأذهبَ بها إلىٰ شاطئ النهر، فأرىٰ منظر السماء والماء، والأشعةِ البيضاء، والمروج الخضراء، فما هي إلا لفتةُ الجيد حتىٰ يَطْلُعَ من ناحية الشرق قرص الشمس كَأنه تُرْس من ذهب، أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق ميلًا أو ميلين حتىٰ ينثرَ فوق سطح النهر حَلْيه المتكسِّر، أو درَّه المتحدر، فإذا تجلىٰ هذا المنظرُ في عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ملَكَ عليَّ شعوري ووجداني، فاستغرقْتُ فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة حتىٰ لا أحبُّ أن أعودَ إلىٰ نفسي إلىٰ يوم النشور(١). ولا زال هكذا غارقًا في لذتي حتىٰ أشعر بجذبة قوية في يدي فأنتبه، فإذا السمكُ في الشبكة يضطرب، وما اضطرابهُ إلا لأنهُ فارق الفضاء الذي كانَ يهيم فيه مطلقَ السراح، وبات في المحبَس الذي لا يجد فيه مَراحًا ولا مسرحًا، فلا أجد لهُ شبيهًا في حالتيه إلا الفقراءَ والأغنياء، يمشي الفقير كما يشتهي، ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء، ولا تنقَّل حيث يشاء. أما الغنيُّ فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليهِ من

---

(١) **يوم النشور**: هو يوم القيامة.

الأحداق نِطاق، ومن الأرْصاد أغلالٌ وأطواق، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلِّف فيها من حقيقته وخياله ناظرًا ومنظورًا، ثم يطيل التفكر هل يقع المنظور من الناظر موقعًا حسنًا؟ حتىٰ إذا استوثقَ من نفسه بذلك خرجَ إلىٰ الناس يمشي بينهم مِشيةً يَحرِص فيها علىٰ الشكل الذي استقرَّ رأيهُ عليه، فلا يُطلقُ لجسمهِ الحرية في الحركة والالتفاتِ حتىٰ لا يخرجَ بذلك من حكمها، ولا لفكره الحريةَ في النظر والاعتبار بمشاهد الكون ومناظره؛ مخافةَ أن يَغفُلَ عن إشارات السلام، ومظاهر الإكْرام.

فإذا أخذت من السمكِ كَفاف يومي عدتُ به وبعتهُ في الأسواق أو علىٰ أبواب المنازل، فإذا أدبرَ النهار عُدْت إلىٰ منزلي، فيعتنقني ولدي وتَبِشُّ[١] زوجتي في وجهي، فإذا قضيت بالسَّعي حق عيالي، وبالصلاة حقَّ ربي نمتُ في فراشي نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلىٰ ديباج وحرير، أو مهد وثير. فهل أستطيع أن أعدَّ نفسي شقيًّا، وأنا أرْوَحُ الناس بالًا، وإن كنت أقلَّهم مالًا؟

لا فرق بيني وبين الغنيِّ إلا أن الناس لا ينهضون إجلالًا لي إذا رأوْني، ولا يمدون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم، وأهونْ به من فرق لا

(١) تبشُّ: البشاشة طلاقة الوجه. «مختار الصحاح» مادة (بشش).

قيمةَ له عندي ولا أثر له في نفسي! وما يَعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا، أو طاروا في الهواء، أو غاصوا في أعماق الماء، ما دمتُ لا علاقةَ بيني وبينهم، وما دمتُ لا أنظر إليهم إلا بالعيْن التي ينظرُ بها الإنسان إلىٰ الصُّور المتحركة.

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة التي بيني وبين ربي، فأنا أعبده حقَّ عبادته وأخلصُ في توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه. ولا أكتُمك يا سيدي أني لا أستطيع الجمعَ بين توحيد الله والاعترافِ بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقينُ مكانَه من قلبي حتىٰ لو طلع عليَّ الملك المتوَّج في مواكبه ومراكبه، وبِطانته وجنده، لما خفقَ له قلبي خفقةَ الرهبة والخشية، ولا شغلَ من نفسي مكانًا أكثر مما يَشغَلهُ ملك التمثيل!

ولقد كان هذا اليقين أكبرَ سبب في عزائي وراحةِ نفسي من الهموم والأحزان، ما نزلتْ بي ضائقةٌ، ولا هبَّتْ عليَّ عاصفةٌ من عواصف هذا الكون إلا انتزعني من بين مخالبها وهوَّنها عليَّ حتىٰ لا أكاد أشعرُ بوقعها. وكيف أتألم لمصاب أعلم أنه مقدورٌ لا مفرَّ منه، وأنني مأجورٌ عليه علىٰ قدر احتمالي إياهُ وسكوني إليهِ؟!

«آمنتُ بالقضاءِ والقدر خيْرِهِ وشرِّهِ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه، فصغُرَت الدنيا في عينيَّ، وصغُرَ شأنها عندي حتىٰ ما أفرح بخيرها، ولا أحزن لشرِّها، ولا أعَوِّل علىٰ شأن من شئونها حتَّىٰ شأنِ الحياة فيها. وأقسمُ ما خرجتُ مرة إلىٰ شاطئ النهر حاملًا شبكتي فوقَ عاتقي إلا وقع الشكُّ في نفسي: هل أعود إلىٰ منزلي حاملًا أم محمولًا؟».

«ما العالَم إلا بحرٌ زاخر، وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه، وما ريب المنون[١] إلا صيادٌ يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتُمسك ما تمسك، وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليومَ لا ينجو منها غدًا، فكيف أغتبط بما لا أملك، أو أعتمد علىٰ غير معتمَد، إذًا أنا أضلُّ الناس عقلًا وأضعفهم إيمانًا».

قال المحدِّث: «فأكبرتُ الرجل في نفسي كلَّ الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه، وحسدته علىٰ قناعته واقتناعه بسعادة نفسه».

وقلت له: «يا شيخُ؛ إن الناس جميعًا يبكون علىٰ السعادة، ويفتشون عنها فلا يجدونها، فاستقرَّ رأيهم علىٰ أنَّ الشقاء لازمٌ من لوازم الحياة لا ينفكُّ عنها، فكيف تَعدُّ العالم سعيدًا، وما هو إلا في شقاء؟» قال: «لا يا سيدي، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاءَ إلىٰ

(١) **ريب المنون**: حوادث الدهر. «المعجم الوسيط» مادة (ريب).

نفسه، يشتدُّ طمعه في المال فيتعذَّرُ عليه مطمَعه فيطول بكاؤه وعناؤه. ويعتقدُ أن بلوغَ الآمال في هذه الحياة حقٌّ من حقوقه، فإذا أخطأ سهمُه والتوَىٰ عليه غرضه أنَّ[١] وشكىٰ شَكاةَ المظلوم من الظالم، ويبالغُ في حُسن ظنِّه بالأيَّام، فإذا غدرتْ به في محبوب لديه من مال أو ولد فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدِّر وقوعَه، فناله من الهمِّ والألم ما لم يكن ليناله لو خبَرَ الدهر وقتل الأيام علمًا وتجربة، وعرَف أن جميع ما في يد الإنسان عاريةٌ مستردةٌ، ووديعةٌ موقوتةٌ، وأن هذا الامتلاك الذي يزعمه الناس لأنفسهم خُدعةٌ من خُدع النفوس الضعيفة ووهْمٌ من أوهامها».

«إن أكثر ما يصيبُ الناس من الشِّقوة من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظرُه علىٰ محسود، والحقود يتألم كلما تَذكَّر أنه عاجزٌ عن الانتقام من عدوِّه، والطَّمَّاع يتألم كلما خابَ أملُه في مطمَع، والشارب يتألم كلما أفاق من سكره، والزاني يتألم كلما فاوضتْهُ في الإثم سريرته، والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه أو حاق[٢] به ظلمه، وكذلك شأنُ الكاذب والنمَّام والمغتاب، وكل من تشتمل نفسُه علىٰ رذيلة من الرذائل».

---

(١) **أنَّ المريض**: تأوَّه. «المعجم الوسيط» مادة (أنن).

(٢) **حاق به**: أحاط به ونزل. «مختار الصحاح» مادة (حيق).

«من أراد أن يطلب السعادة؛ فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة؛ وإلا فهو أشقىٰ العالمين وإن ملك ذخائر الأرض وخزائن السماء».

قال الصديق: «فما وصل الصياد من حديثه إلىٰ هذا الحدِّ حتىٰ نهض قائمًا وتناول عصاه، وقال: «أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهي أن يجعلك اللهُ سعيدًا في نفسك، كما جعلك سعيدًا في مالك، والسلام عليك ورحمة الله»».

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلِّفين من التلاميذ والراسبين، ولو رُبِّي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخرويةَ خسرانًا مبينًا أسفًا علىٰ أن لم ينلْ كل حظه من السعادة الدنيوية، ولو رُبِّي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوىٰ وجهه عنها لأنها لم تُقدَّم إليه في لفافة الشهادة المدرسية. ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان، ولقَّنه فيما يلقِّنه من قواعد الدين وأحكامه أن جنايةَ المرء علىٰ نفسه أكبرُ إثمًا عند الله وأعظم جرمًا من جنايته علىٰ غيره، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته، وهي الساعةُ التي يُنيب فيها العاصي إلىٰ ربه ويستغفر فيها المذنب من ذنبه، ولو أنه لقنهُ فيما يلقنهُ من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفةٌ من صفات الكمال لا سِلعةٌ من سِلَع التجارة، يجب أن يَحفِلَ به صاحبه من حيث ذاتهُ، لا من حيث كونه وسيلةً من وسائل العيش، لما جرىٰ علىٰ تلك القاعدة الفاسدة: «الشهادة بلا علم خيرٌ من العلم بلا شهادة»، ولو أنه رباه علىٰ الاستقلال الذاتي، وعلمهُ أن الشرفَ في هذه

الحياة علىٰ قدر ما يبذُلُ الإنسان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع، سواء أكان في قصر الملك، أم في دار الوزارة، وفي حانوت التجارة، أم في معمل الصناعة، لما أكبرَ مناصب الحكومة هذا الإكبار، ولا احتفلَ بها احتفالَ من لا يرىٰ للحياة معنىٰ بدونها، ولو أنَّه نفث في رُوعه روحَ الشجاعة النفسية، وعوَّده الصَّبر والجلَد في مواقف الشدَّة والبلاء، لما جزِعَ هذا الجزعَ الفاضح، ولا جُنَّ هذا الجنون الذي خَيَّلَ إليه أن عذاب النزع أهوَنُ من عذاب الهمِّ.

الوالد والأستاذ والمجتمع في مصر عَوْنٌ علىٰ الناشئ وآفة علىٰ عقله وأخلاقه وآدابه.

أما الوالد، فإنه يقول له وهو ذاهب به إلىٰ المدرسة: «ستكون غدًا يا بنيَّ حاكمًا كهذا الحاكم ووزيرًا كهذا الوزير». وكلما أراد أن يَحثَّه علىٰ الاجتهاد في طلب العلم ويخوِّفه عاقبة الخيبة في الامتحان، صوَّر له المستقبلَ المجرد من الوظيفة أقبحَ تصوير وأشنعه، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي، فيقول له: «إذا لم تنجح في الامتحان، فموتك أفضل من حياتك!».

وأما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلًا علىٰ وجوب احترام المنصب، وإجلاله وإنزاله المنزلةَ الأولىٰ بين أعمال المجتمع الإنساني،

إذ يراه بعينه يتجرَّعُ مرارةَ الذُّل ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديدًا، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف حرصًا علىٰ منصبِه وإرعاءً[1] عليه، فكأنما يلقي عليه درسًا عمليًّا موضوعُه: «إن من يخاطر بمنصِبه يخاطر بحياته، لأن المنصِب كل شيء في هذه الحياة!».

أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير، أكثرَ مما يحترم العالم الكبير، ويَطير إلىٰ تهنئته بإقبال المنصِب عليه، وتعزيته عن إدباره عنه، كأن الكوكبَ لا يدور إلا في دائرة المناصب نحوسًا وسعودًا، فإذا رأىٰ الناشئ ذلك أكبرَ الوظيفةَ أيَّما إكبار ولجَّ به الحرصُ عليه، واللصوقُ بها، وكان سروره وحزنه علىٰ قدر قربها منه أو بعدها عنه، فإذا وفِّق إليها لطمَ بأنفه قبة السماء، وداس بنعله رأس الجوزاء، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الأحمق: «فإما الثريا وإما الثرىٰ».

أيها الناشئُ؛ لقد جهل أبوك، وغشَّك أستاذك، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالًا منهم. واعلمْ أن شرف العلم أكبر من شرفِ المنصِب، وأن المنصِب ما كان شريفًا إلا لأنه حسنة من حسناتِ العلم وأثرٌ من آثاره، فإنْ فاتك حظك منه، فلا تَحفِل به؛ فهو أحقر من أن

(١) **إرعاءً عليه**: إبقاءً عليه. «القاموس المحيط» مادة (رعي).

تشتدَّ في أثره أو تَبذلَ حياتك حزنًا عليهِ. ولا تحسدْ أرباب المناصب علىٰ مناصبهم، فإنما هم يخدعونك بزخرفٍ من القول وظاهر من النعمة وبَهرج من الابتسام، ووراءَ ذلك - لو علمت - قلبٌ يقطر دمًا، وفؤاد يضطرم لوعة وأسًىٰ.

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفِل بعد ذلك بشيءٍ، فقد ربحت كل شيء.

الجمال

الجمال هو التناسبُ بين أجزاء الهيئاتِ المركبةِ، سواءٌ أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم في الخيالات.

ما كان الوجهُ الجميل جميلًا إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوتُ الجميل جميلًا إلا للتناسب بين نغماتِه، ولولا التناسبُ بين حباتِ العقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسقُ في أزهار الروض ما هام به الشعراء.

ليس للتناسب قاعدةٌ مطردةٌ يستطيع الكاتب أن يبنيها، فالتناسب في المرئيات غيرُه في المسموعات، وفي الرسوم غيره في الخطوط، وفي الشؤون العلمية غيره في القصائد الشعرية، علىٰ أنه لا حاجة إلىٰ بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها، فترتاح إليه وما لا يلائمها فتفِر منه.

إن كثيرًا من الناس يستحسنون الأنف الصغير في الوجه الكبير، والرأسَ الكبير في الجسم الصغير، ولا يفرقون بين البَرَص في الجسم الأسود، والخال في الخد الأبيض، ويَطربون لنقيق الضفادع كما يطربون

لخرير الماء، ويفضِّلون أنغام النواعير علىٰ أنغام العيدان، ويُعجَبون بشعر ابن الفارض، وابن معتوق، والبرعي أكثر مما يُعجَبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتريّ، ويضحكون لما يبكي ويبكون مما يضحك، ويرضوْن بما يُغضب ويغضبون مما يُرضي.

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوَّهةً غيرَ متناسبة ولا متلائمة؛ لأنهم لم يدركوا سرَّ الجمال فَيصدرَ عنهم، ولم تألفْهُ نفوسهم فيصيرَ غريزة من غرائزهم.

إن رأيتَ شاعرًا يبتدئُ قصائد التهنئة بالبكاء علىٰ الأطلال، ويودِع القصائد الرثائية بالنِّكات الهزلية، ويتغزل بممدوحِه، كما يتغزل بمعشوقِه، أو متكلمًا يقتضب الأحاديث اقتضابًا ويهزل في موضع الجدِّ ويجدُّ في موضع الهَزْل، أو صحفيًّا يضع العنوان الضخمَ للخبر التافه، ويكتب مقدمةً في السماء لموضوع في الأرض، أو حاكمًا يضع الندىٰ في موضع السيف والسيفَ في موضع الندىٰ، أو ماشيًا يتلوَّىٰ في طريقه من رصيف إلىٰ رصيف كأنما يرسُم خطًّا معرَّجًا، أو لابسًا في الشتاء غِلالةَ[١] الصيف وفي الصيف فروة الشتاء؛ فاعلم أن ذوقه مريض وأنه في حاجة إلىٰ معالجة ذوقه، كحاجة المجنون إلىٰ علاج عقله، والمريض إلىٰ علاج جسمه.

---

(١) **غِلالة**: ثوب يلبس تحت الثياب. «لسان العرب» مادة (غلل).

كما أنه ليس كلُّ مجنون يُرجىٰ شفاؤه، ولا كلُّ مريض يرجىٰ إبلالُه، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجىٰ صلاحه، فإنْ رأيت من تؤمِّل في صلاحه خيرًا، وتجد في نفسه استعدادًا لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تَحُفَّه بأنواع الجمال وتدأب علىٰ تنبيهه علىٰ متناسباته ومؤتلفاته، وإن استطعت أن تعلمه فنًّا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقىٰ، فافعل فإنها المقوِّمات للأذواق، والغارساتُ في النفوس ملكاتِ الجمال.

الكذب

كِذِبُ اللسان من فضول كذبِ القلب، فلا تأمن الكاذب علىٰ وُدٍّ، ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهربَ كله، وأخوَف ما أخاف عليك من خُلطائك وسُجرائك[١] الرجلُ الكاذب.

عَرَّفَ الحكماء الكذب بأنهُ مخالفةُ الكلام للواقع، ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلىٰ كذب الأقوال كذبَ الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول، والعبثِ بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجلُ فيقولَ إني ثقةٌ أمين لا أخون ولا أغدرُ فأقرِضْني مالًا أؤدِّه إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وأن يأتيَكَ بسُبحة يهمهم بها فتنطق سُبحته بما سكت عنه لسانه من دعوىٰ الأمانة والوفاء، فيخدعَك في الثانية كما خدعك في الأولىٰ.

---

(١) **السُّجَرَاءُ**: جمع سجير وهو الصديق الصفيُّ. «المعجم الوسيط» مادة (سجر).

لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعَك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذبُ الأقوال مرة واحدة؛ لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتىٰ يقيمَ علىٰ قضيته بينة كاذبة من أحواله وأطواره.

ليس الكذب شيئًا يستهانُ به، فهو رأسُ الشرور ورذيلة الرذائل، فكأنه أصلٌ والرذائلَ فروعٌ له، بل هو الرذائلُ نفسُها وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثَّل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه، والمتكبرُ كاذب لأنه يدَّعي لنفسه منزلةً غير منزلته، والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوىٰ الإيمان، ونقضَ ما عاهد الله عليه، والنَّمَّام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته، فيتحرىٰ الصدقَ في نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهرَه ينفعك وباطنَه يلذعك.

لقد هان علىٰ الناس أمرُ الكذب حتىٰ إنك لتجدُ الرجل الصادق فتعرضُ علىٰ الناس أمرَه وتُطرفهم بحديثه كأنك تَعرضُ عَجائبَ المخلوقات، وتتحدث بخوارق العادات!

فويل للرجل الصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة! وويلٌ له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الوُدَّ، ومستشار غير أمين، وجاهل يُفْشي السرَّ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدعي

الولاية كذبًا، وتاجر يغُشُّ في سلعته، ويحنَث في أيمانه، وصحفي يتَّجر بعقول الأحرار كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء، ويكذبُ علىٰ نفسه وعلىٰ الله وعلىٰ الناس في كل صباح ومساء!



غرفة الأحْزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثرَ مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضرُه، ولا أبالي بعد ذلك بشيءٍ من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره؛ لأني ما فكرت قطُّ أن أتلقىٰ عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق فقد علمتُ من ذلك ما حسبي به وكفىٰ.

قضيتُ في صحبته عهدًا طويلًا ما أنكرُ من أمره ولا ينكرُ من أمري شيئًا، حتىٰ سافرت من القاهرة سفرًا طويلًا فتراسلنا حينًا، ثم انقطعت عني كتبهُ، فرابني[1] من أمره ما رابني، ثم عدت فجعلت أكبر همي أن أراه، فطلبتهُ في جميع المواطن التي كنت أعرفه فيها فلم أجده، فذهبت إلىٰ منزله فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مذهبُه، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، ثم شعَرت كأن أولهما يغالب ثانيَهما حتىٰ غلبه، فعلمت أن قد فقدتُ الرجلَ وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلًا.

هنالك ذَرَفْتُ من الوجد دموعًا لا يذرفها إلا من قلَّ نصيبُه من

---

(١) رابني: أفزعني. «المعجم الوسيط» مادة (ريب).

الأصدقاء، وأقفر رَبْعُه[١] من الأوفياء، وأصبح غرضًا من أغراض الأيام لا تخطئه سهامها، ولا تُغبُّه آلامُها[٢].

بينا أنا عائد إلىٰ منزلي في ليلة من ليالي السَّرار[٣] إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهمِّ إلىٰ زُقاق موحش مهجور يتخيل الناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوىٰ الغيلان. فشعَرت كأن بحرًا أسود يتدفق بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر، وتقوم وتقعد، فما توسَّطت لُجَّته حتىٰ سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أَنَّةً تتردد في جوف الليل، فأصغيت إليها فتلَتْها أختُها، ثم أخواتها فأثَّر في نفسي مسمعها تأثيرًا شديدًا، وقلت: «يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين!» وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرىٰ محزونًا حتىٰ أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكي إذا عجزت. فتلمست الطريق إلىٰ ذلك المنزل حتىٰ بلغته فطرقت الباب طرقًا خفيفًا، فلم يُفتح لي، فطرقته أخرىٰ طرقًا شديدًا ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلَخ العاشرة من عمرها، فتأملتها علىٰ ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها، فإذا

---

(١) **رَبْعُه**: داره. «مختار الصحاح» مادة (ربع).

(٢) **تغبُّه آلامها**: جاءته حينًا بعد حينٍ. «المعجم الوسيط» مادة (غبب).

(٣) **السِّرار**: سِرار الشهر آخر ليلة فيه. «المعجم الوسيط» مادة (سرر).

هي في ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: «هل عندكم مريض؟» فزفَرتْ زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: «أدرك أبي أيها الرجل، فهو يعالج سكرات الموت». ثم مشت أمامي فتبعتها حتىٰ وصلت إلىٰ غرفة ذات باب قصير مسنّم، فدخلتها فخُيِّل إليَّ أني قد انتقلت من عالم الأحياءِ إلىٰ عالم الأمْوات، وأن الغرفة قبرٌ والمريضَ ميتٌ. فدنوت منه حتىٰ صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردَّد فيه النفس تردُّد الهواء في البرج الخشبيِّ، فوضعت يدي علىٰ جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي، ثم فتح شفتيه قليلًا قليلًا، وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقي». فشعَرتُ كأن قلبي يتمشىٰ في صدري جزعًا وقلقًا، وعلمتُ أني قد عثَرتُ بضالتي التي كنت أنشدها، وكنت أتمنىٰ ألا أعثرَ بها وهي في طريق الفناء، وعلىٰ باب القضاء، وألا يجدِّد لي مرآها حزنًا كان في قلبي كمينًا، وبين أضالعي دفينًا. فسألته ما باله وما هذه الحالة التي صار إليها. وكأنَّ أنسه بي أمدَّ مصباح حياته الضئيلَ بقليل من النور، فأشار إليَّ أنه يحبُّ النهوض فمددت يدي إليهِ فاعتمد عليها حتىٰ استوىٰ جالسًا وأنشأ يقص عليَّ هذه القصة: «منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتًا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثَّراء والنعمة، وكان قصرهُ يَضمُّ بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتُها علىٰ مثلها حُسنًا وبهاء، ورونقًا وجمالًا. فألمَّ بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع

معهُ صبرًا، فما زلت بها أعالجها فتمتنع، وأستنزلها فتتعذَّر وأتأتَّىٰ إلىٰ قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه، حتىٰ عثرتُ بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرتُ منه إليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادُها، فسلبتُها قلبها وشرفها في يوم واحد. وما هي إلا أيام قلائلُ حتىٰ عرفتُ أن جنينًا يضطرب في أحشائها فأسْقطَ في يدي، وطَفقْتُ أرتئي بين أن أفيَ لها بوعدها، أو أقطعَ حبل وُدِّها، فآثرتُ[١] أخراهما علىٰ أولاهما، وهجرتُ ذلك المنزل إلىٰ المنزل الذي كنتَ تزورني فيه أيها الصديقُ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئًا.

«مرَّت علىٰ تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب». ومدَّ يده تحت وسادته وأخرج كتابًا باليًا مصفرًّا فقرأت فيه ما يأتي:

«لو كان بي أن أكتبَ إليك لأجدِّد عهدًا دارسًا[٢] أو وُدًّا قديمًا ما كتبتُ سطرًا، ولا خططتُ حرفًا؛ لأني لا أعتقد أن عهدًا مثلَ عهدك الغادر، ووُدًّا مثل وُدك الكاذب، يستحق أن أحفِلَ به فأذكرَه، أو آسَفَ عليه فأطلبَ تجديده».

«إنك عرفتَ حين تركتني أن بين جنبيَّ نارًا تضطرم، وجنينًا

---

(١) **آثرت**: فضلت. «المعجم الوسيط» مادة (أثر).

(٢) **دارسًا**: ذهب أثره. «المعجم الوسيط» مادة (درس).

يضطرب، تلك للأسف علىٰ الماضي، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تُبَلْ بذلك وفررتَ مني حتىٰ لا تُحمِّلَ نفسكَ مؤونة النظر إلىٰ شقاء أنت صاحِبُه، ولا تكلف يَدك مسحَ دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصورَ أنك رجل شريف! لا بل لا أستطيعُ أن أتصور أنك إنسان؛ لأنك ما تركت خَلَّة[1] من الخلال المتفرقة في نفوس العجماواتِ[2] والوحوش الضارية إلا جمعتَها في نفسك، وظهرتَ بها جميعًا في مَظهر واحد».

«كذبتَ عليَّ في دعواك أنك تحبني ومتىٰ كنت تحبُّ إلا نفسك، وكل ما في الأمر أنك رأيتني السبيلَ إلىٰ إرضاء نفسك فمررتَ بي في طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقتَ لي بابًا، ولا رأيت لي وجهًا!».

«خنتني إذا عاهدتني علىٰ الزواج فأخلفتَ وعدك ذَهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمةُ ولا تلك السقطة إلا صورة نفسك، وصنعة يدك، ولولاك ما كنتُ مجرمة ولا ساقطة، فقد دفعتُك جَهْدي حتىٰ عييتُ بأمْرك، فسقطتُ بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدي الجبار الكبير».

---

(١) **الخَلَّة**: الخَصْلة. «المعجم الوسيط» مادة (خلل).

(٢) **العجماوات**: جمع العجماء وهي البهيمة. «المعجم الوسيط» مادة (عجم).

«سرقْتَ عفتي، فأصبحتُ ذليلة النفس حزينة القلب أستثقل الحياة وأسْتَبطئ الأجل، وأيُّ لذة في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجًا لرجل ولا أمًّا لولد! بل لا تستطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضةٌ رأسَها، مسبلة جفنها، واضعة خدها علىٰ كفها، ترتعد أوصالها، وتذوب أحشاؤها، خوفًا من عبث العابثين، وتهكُّم المتهكِّمين».

«سلبتني راحتي لأني أصبحتُ مضطرة بعد تلك الحادثة إلىٰ الفرار من ذلك القصر، الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي تاركةً ورائي تلك النعمة الواسعةَ وذلك العيش الرغَد، إلىٰ منزل حقير في حيٍّ مهجور لا يعرفه أحد ولا يطرق بابه طارق؛ لأقضي فيهِ الصُّبابة الباقية من أيام حياتي».

«قتلتَ أمي وأبي، فقد علمتُ أنهما ماتا، وما أحسَب موتهما إلا حزنًا لفقدي، ويأسًا من لقائي».

«قتلتني لأن ذلك العيش المرَّ الذي شربته من كأسك، وذلك الهمَّ الطويل الذي عالجته بسببك، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي فأصبحتُ في فراش الموت كالذُّبالة المحترقة، وأحسب أن الله قد صنع لي وأجاب دعائي وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء، إلىٰ دار الحياة والهناء».

«فأنت كاذب خادع، ولصٌّ قاتل، ولا أحسَب أن الله تاركُك بدون أن يأخذ لي بحقي منك».

«ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدِّد بك عهدًا، أو لأخطب إليك وُدًّا، فقد عَرفتَ مكانك من نفسي، علىٰ أنني أصبحتُ علىٰ باب القبر وفي موقف وَداع هذه الحياة خيرِها وشرِّها، سعادتها وشقائها، وإنما كتبتُ إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقىٰ لك منها رحمة الأبوَّة، فأقبل إليها وخذها إليك حتىٰ لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمَّها من قبلها».

فما أتممتُ قراءة الكتاب حتىٰ نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر من مقلتيه، فسألته: «ماذا تمَّ بعد ذلك؟» قال: «إني ما قرأت هذا الكتاب حتىٰ أحسست برعدة تتمشىٰ في أضالعي، وخيِّل لي أن صدري يحاول أن ينشقَّ عن قلبي حزنًا وجزعًا، فأسرعت إلىٰ منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في هذه الغرفة علىٰ هذا السرير جثة هامدة لا حَراك بها، ورأيت فتاتها إلىٰ جانبها تبكي بكاء مرًّا، فصُعِقتُ لهول ما رأيت، وتمثلتْ لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية، وأساودُ[1] ملتفة، هذا يُنشب أظافره وذاك يحدد أنيابه، فما أفقتُ حتىٰ

(١) **أساود:** جمع أسود وهو العظيم من الحيات وفيه سواد. «المعجم الوسيط» مادة (سود).

عاهدت الله ألا أبرحَ هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الأحزان» حتىٰ أعيشَ فيها عيشَها، ثم أموت موتها.

«وهأنذا أموت اليوم راضيًا مسرورًا، فقد حدَّثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشَّقاء».

وما وصل من حديثه إلىٰ هذا الحد حتىٰ انعقد لسانه واصفرَّ وجهه وسقط علىٰ فراشه، فأسلَم الروح وهو يقول: «ابنتي يا صديقي!» فلبثت بجانبه ساعةً قضيت فيها ما يجب علىٰ الصديق لصديقه، ثم كتبت إلىٰ أصدقائه ومعارفه، فحضروا تشييع جنازته وما رُئي مثلُ اليوم أكثر باكية وباكيًا.

ولما حثونا التُّرْب فوق ضريحه
جزِعنا ولكن أيّ ساعةِ مَجزع

ويعلم الله أني لأكتبُ قصته ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج، ولا أنسىٰ ما حييت نداءه لي وهو يودِّع نسمات الحياة، وقولَه: «ابنتي يا صديقي!».

فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقًا بضعفاء النفوس من النساءِ! إنكم لا تعلمون حين تخدعونهنَّ عن شرفهنَّ وعفتهنَّ أيَّ قلبٍ تَفجَعون، وأيَّ دم تسفكون!

الشَّرَف

لو فهم الناس معنىٰ الشرف لأصبحوا كلُّهم شرفاء.

ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرفَ الذي يتصوره أو يصوِّره له الناسُ، إلا أنه تارة يخطئ مكانَه وتارة يصيب.

يَقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عِرضه بإراقة هذه الكمِّيَّة من الدم، ولا يبالي أن يسمِّيَه القانون بعد ذلك مجرمًا، لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق علىٰ هذه التسمية، وهي في نظره أعدل من القانون حكمًا، وأصدق قولًا.

يَفسُق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفضَ عن نفسه بعمله هذا غُبار الخمول والبَلَه، الذي يظلل الأعفَّاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملًا لا يُقْدم عليه إلا كلُّ ذي حِذق وبراعة وشجاعة وإقدام.

يَسرق السارق ويزوِّر المزوِّر ويخون الخائن، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كلَّ الشرف في المال، وإن كان السبيل إليه دنيئًا وسافلًا، وأن للذهب رنينًا تَخْفِتُ(١) بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئًا فشيئًا ثم تنقطع حتىٰ لا يُسمع بجانبه صوتٌ سواه.

---

(١) **تخفت**: تسكن وتنخفض. «لسان العرب» مادة (خفت).

هكذا يتصوَّر الأدنياء أنهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف ويُخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورَهم إلا الذين أحاطوا بهم من سُجَرائِهم[١] وخلطائهم وذوي جامعتهم، أولئك الذين يحتقرون الموتور[٢] حتىٰ يَغسل الدمَ بالدم فيعظمونه، وينعَون علىٰ الرجل المستقيم العفيف بلاهَته وخموله حتىٰ يفجُر ويُستهتر فيبخبخون له ويقرِّظونه[٣]، ويكرمون صاحب الذهب ولو أن كل دينار من دنانيره محجَّم[٤] من الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلًا، وطيبَ القلب مُغفلًا، وطاهرَ السريرة بليدًا، والحليمَ عاجزًا.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاءِ تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق، حتىٰ تلبسَ في نظرهم ثوبًا غير ثوبها، وتتراءىٰ في لون غير لونها، فإنَّ بين الخاصة الذين نعتدُّ بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة، حتىٰ إنَّه ليكاد يفخر بالأولىٰ ويستحيي من الأخرىٰ.

---

(١) **سجراء**: جمع سَجير وهو الخليلُ الصَّفِيُّ. «لسان العرب» مادة (سجر).

(٢) **الموتور**: الطالب بالثأْر. «لسان العرب» مادة (وتر).

(٣) **يقرظونه**: يمدحونه ويثنون عليه. «المعجم الوسيط» مادة (قرظ).

(٤) **المِحجم**: الآلة التي يجمع فيها الدم. «لسان العرب» مادة (حجم).

لولا فسادُ التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب، لا يدافع فيها عن فضيلة ولا يؤيد بها حقًّا من الحقوق الشرعية، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفَّاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء، خَدَمَةِ الإنسانية وَحَمَلَةِ عرشِها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها، في سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسيِّ القضاء يفتل شاربيه، ويصعِّر خدَّيْه، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلىٰ المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذُّل، ولا ذنب لهُ إلا أنهُ جاع وضاقت بهِ مذاهب العيش فسرق درهمًا، ولا توهَّم وهو اللصُّ الكبير، أنه أشرفُ من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معًا في موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختارًا ليرفِّه عيشه، وبراءةِ الثاني لأنه سرق مضطرًّا لينقذ حياته من براثن الموت.

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ويقوِّم اعوجاجها فليهذبْ تصوراتهم، وليقوِّم أفهامهم، يُوافِه ما يريد من التهذيب والتقويم.

ليس من الرأي أن يشيرَ المعلمُ علىٰ المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزانًا يزن به أعماله، أو مرآة يرىٰ فيها حسناتِه وسيئاتِه، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقَم في فهمه، والاضطراب في تصوره، فلا عبرة بحكمه، ولا ثقة بوزنه وتقديره.

ليس من الرأي أن يرشد المعلمُ المتعلمَ إلىٰ أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري، فليس كل ما يعتبره الناس شرفًا هو في الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يَعدُّون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحلي بها صدره؟! وربما كانوا يعلمون أنهُ ابتاعها كما تبتاع المرأة من الصائغ حِليتها.

لا شرفَ إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه، أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف لأنه يجلو صدأ العقل الإنساني ويصقلُ مرآته، والمجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه شريف لأنه يحمي مواطنيه غائلةَ الأعداء، ويقيهم عادية الفناء، والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريفٌ لأنهُ يأخذ بأيدي الضعفاء، ويحيي أنفس البؤساء، والحاكم العادل شريف لأنه رسول العناية الإلهية إلىٰ المظلومين يمنعهم أن يبغيَ عليهم الظالمون، وصاحب الأخلاق الكريمة شريفٌ لأنه يؤثِّر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه، ويُلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضلَ درس في الأخلاق والآداب، والصانع والزارع والتاجر أشرافٌ متىٰ كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون علىٰ عواتقهم

هذا المجتمع البشري، وهم الذين يحتملون ما يحتملون من المؤونة والمشقة في سبيله؛ حذرًا عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف، وإلا فاسلكْ طريقهم جهدَك، فإن لم تبلغ غايته فأَخْذِ القليل خيرٌ من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلْتبكِ علىٰ عقلك البواكي.

الحبُّ والزَّواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصَّها أحد الكتاب، وموضوعُها أنَّ كاتبها غاب عن بيروت بضعةَ أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك، فزار صديقًا له من أثرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزينًا كئيبًا علىٰ غير ما يَعهد من حاله قبل ذلك. فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجًا من فتاة يحبها ويُجلُّها ويفدِّيها بنفسه وماله، فلم تحفظ صنيعَه ولم ترعَ عهده، وأنها فرَّت منه إلىٰ عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب. فاجتهد الكاتب أن يلقىٰ تلك الفتاة ليعرِف منها سرَّ فرارها من بيت زوجها، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فَعلتها بأنها لا تحبُّ زوجها؛ لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت إنها جرَت في ذلك علىٰ حكم الشرائع الطبيعيةِ، وإنْ خالفت الشرائع الدينية، لأن الأولىٰ عادلة والثانيةَ ظالمةٌ. وقالت: إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، لأن أساسه الحبُّ، وكل ما كان أساسه الحب فهو طاهر شريف، وإن كان في أعين الناس عيبًا وعارًا. وقالت: ما الخيانة ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تعاشرَ المرأةُ زوجًا تكرهه معاشرتَها من تحبه، فيفترشَها الأوَّل كما

يفترشها الثاني، لأنها لا تكون في حكم العقل ولا في نظر العدل زوجًا له ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته. وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضَها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تَعُدُّ المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأوَّل وتحبُّ الثاني!

هذا ملخص القصة علىٰ طولها، وأحسَبُها قصةً موضوعة علىٰ نحو ما يضع الكُتاب القصص الخياليةَ لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب؛ لأنَّ الكاتب أعذرَ تلك الفتاة فيما فعلت واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها(١) علىٰ زوجها وحكم لها عليه.

وسواء أكانت القصةُ حقيقية أم خيالية، فالحقَّ أقول: إنَّ الكاتب أخطأ في وضعها، وما كنت أحسبُ إلا أن مذهب الإباحية قد مضىٰ وانقضىٰ بانقضاء العصور المظلمةِ، حتىٰ قرأتُ هذه القصة منشورةً باللغة العربية بين الأمة العربية فنالني من الهمِّ والحزَن ما الله عالمٌ به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل المرأة الساقطة، وهي التي هفتْ في حياتها هفوة دفعها إليها دافعُ خداع أو سائق حاجة، ثم ثاب إليها رشدها وهُداها، فقلنا لا بأس بغيرتهم علىٰ ذنب جسَّمته العادة وألبسته ثوبًا أوسع

---

(١) **أعداها**: جعلها تعدو. «المعجم الوسيط» مادة (عدو).

من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاةً مذنبةً تحاول الرجوع إلىٰ ربها، والتوبةَ من ذنبها، ويأبىٰ المجتمع البشري إلا أن يَسدَّ دونها أبواب السماء المفتَّحةَ للقاتلين والمجرمين.

فأما وقد وصل الحدُّ إلىٰ تزيين الزنا للزانية، وتهوين إثمه عليها، وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد علىٰ زوجها والخروج من طاعته كلما دعاها إلىٰ ذلك داع من الهوىٰ، فهذا ما لا يطاقُ احتمالُه، ولا يستطاع قبوله!

إن فتاة الروايةِ لم تهفُ في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء، لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عَقدت عزمها علىٰ البقاء فيه ما دامت روحها باقيةً في جسدها، ولم يَسُقها إلىٰ ذلك سائق شهوة بشرية إن صحَّ أن تكون الشهوة البشرية عذرًا يدفع مثلها إلىٰ مثل ما صنعت، لأنها فرَّت من فراش زوجها، لا من وحشة خلوتها. ولا سائقُ جوع لأنها كانت أرقَّ النساء عيشًا، وأروحهنَّ بالًا، بل كانت علىٰ حالة من الرفاهية والنعمة والتقلبِ في أعطاف العيش البارد لم ترَ مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب، فقد أخطأ علماء اللغة جميعًا في وضع كلمة الفساد في معاجمهم، لأنها لا مُسمّىٰ لها في هذا العالم – عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاةَ المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجًا معذبًا ناقمًا منكوبًا، ولم تكن راضية تمام الرضىٰ عن نفسها ولا مغتبطة بعيشها فتبلغ في حالها مبلغ «ورده الهاني».

كل الأزواج ذلك الرجلُ إلا قليلًا، فإذا جاز لكل زوجة أن تفرَّ من زوجها إلىٰ عشيقها كلما وقع في نفسها الضجرُ من معاشرة الأول، وبرقَت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني، فويلٌ لجميع الرجال من جميع النساء، وعلىٰ النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألفُ سلام!

أيها الكاتب؛ ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصُدَّ كرَّ الغداة ومرَّ العشيِّ حتىٰ لا يبلغَ الأربعين من عمره، فتراه زوجته غير أهل لمعاشرتها إذا علمتْ أن في الناس من هو أصغر منه سِنًّا وأكثر رشاقة وأنضر شبابًا.

إن الضَّجر والسَّآمة من الشيء المتكرِّر المتردِّد طبيعةٌ من طبائع النوع الإنساني، فهو لا يصبر علىٰ ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير

واحد، وقد علم الله ﷻ ذلك منه وعلم أن نظام الأسرة لا يتمُّ إلا إذا بُني علىٰ رجل وامرأة تدوم عشرتهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمرَ الزوجين أن يعتبرا هذا الرِّباط رباطًا مقدسًا حتىٰ يحول بينهما وبين رجوعهما إلىٰ طبيعتهما، وذَهابِهما في أمر الزوجية مذهَبهما في المطاعم والمشارب، من حيث الميلُ لكل جديد، والشغفُ بكل غريب.

هذا هو سرُّ الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدَلًا من الزواج فقد خالف إرادة الله، وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية.

أيُّ امرأةٍ متزوجة بأجمل الرجال لا تحدِّث نفسها بالرغبة في استبداله بأجملَ منه، وأيُّ رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنىٰ أن يكون في منزله أجملُ منها لولا هذا الرباطُ المقدس، رباطُ الزوجية، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأمانيِّ وتلك الهواجس، وهو الذي يعيد إلىٰ النفوس النزَّاعة سكونها وقرارها.

لا بأسَ أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعَه،

ولكن لا علىٰ معنىٰ أن يكون الحب الشهويُّ هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته، ويموت بموته، فالقلوب متقلبة والأهواء نزَّاعة، بل بمعنىٰ أن يكون كل منهما لصاحبه صديقًا، أكثرَ منه عشيقًا، فالصداقة ينمو بالمودة غرسُها، ويمتدُّ ظلها، أما الحب فظلٌّ يتنقَّل، وحال تتحول.

الإِسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الناس الذين يَعجبون كثيرًا مما كتبه اللورد كرومر عن الإِسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يَدين بدين غير الإِسلام ويضِنُّ به فوق ضنه بنفسه وماله أن يعتقد الوحدانية، ويصدِّق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحجَّ البيت ما استطاع إليه سبيلًا!

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته أن الإسلام دين موضوع، ابتدعه رجل عربيٌّ بدويٌّ أميٌّ ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأىٰ مدنية الرومان، ولا تلقىٰ شيئًا من علوم الشرائع والعمران.

هذا مَبلغ معتقده فيه، فكيف يرىٰ نفسه بين يديه أصغرَ من أن يناقشه ويناظره ويخطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟! وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبيًّا مرسلًا موحىٰ إليه من عند الله تعالىٰ بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟! أما ما نقرؤه أحيانًا لبعض علماء الغرب المسيحيين من وصف الدين الإسلامي بصفات جميلة أو مدح آرائه

وأحكامه، فهي مكتوبة بأقلام أقوام مؤرخين أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعبث التعصُّب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحيةُ في أقلامهم، ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحدًا منهم، فإنَّ من قرأ كتابه «مصر الحديثة» تخيل أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قَلنسوته ومسوحه وعلَّق صليبه في زُنَّاره.

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يندهش أو يذهب به العَجب كلَّ مذهب؛ إذا رأىٰ في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشِّرين الإنجيليين وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن علىٰ الإسلام وعقائده وشرائعه؟!

بلغ التعصُّبُ الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن[(١)] في القرآن، بعد اعترافهم بأنه كتابٌ عربي نطق به - علىٰ حسب معتقدهم - رجلٌ هو في نظرهم أفصح العرب. وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال، وإنما الإعرابُ ما نطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به، فلو أنهم اصطلحوا علىٰ نصب الفاعل ورفع المفعول مثلًا؛ لكان رفعُ الأول ونصب الثاني لحنًا. ولكنَّ جَهلةَ المبشرين لم يدركوا شيئًا من هذه المسلمات، واستدلُّوا علىٰ وجود

---

(١) **اللَّحن**: الخطأ في الإعراب. «المعجم الوسيط» مادة (لحن).

اللحن في القرآن بقواعد النحو التي ما دوَّنها علماؤه إلا بعد أن نظروا في كلام العرب، وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبرُ ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حُجَّة علىٰ النحاة وليست النحاة حجةً علىٰ القرآن، فإذا وُجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة؛ حكمنا بأنهم مقصِّرون في التتبُّع والاستقراء، علىٰ أنهم ما قصَّروا في شيء من ذلك وما تركوا كثيرًا ولا قليلًا ولا نادرًا ولا شاذًّا إلا دوَّنوه في كتبهم. فما في القرآن لحن، ولا النحاة مقصرون، ولكنَّ المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصُّب الديني الأعمىٰ أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكةِ، فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبِّه بهم هذا الطعن علىٰ الإسلام في نظاماته وأحكامه.

إنَّا لا ننازع اللورد كرومر، ولا أمثاله من الطاعنين علىٰ الإسلام في معتقدهم، ولكنا نحبُّ منهم ألا ينازعونا في معتقدنا وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم.

يقول اللورد كرومر: «إن الدينَ الإسلاميَّ دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإنسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعي». ويقول: «إن ما يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي». ويستدل علىٰ الإسلام بالمسلمين، وعلىٰ المسيحية بالمسيحيين.

في أيِّ عصر أيها الفيلسوفُ التاريخي كانت الديانة المسيحية مَبعثَ العلم والعرفان، ومطلعَ أشعة المدنية والعمران؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رَحىٰ الحروب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليك تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارةً أخرىٰ بصورة وحشية فظيعة، اسودَّ لها لباس الإنسانية وبكت الأرض منها والسماء؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه؟ فما كان يترك له الحرية حتىٰ في الحكم علىٰ نفسه بكفر أو إيمان وبهيمية أو إنسانية، فيكاد يتخيل في نفسه أن له ذنَبًا متحركًا وخيشومًا طويلًا، وأنه يمشي علىٰ أربع إذا قال له الكاهن: أنت كلب. أو قال له: إنك لست بإنسان! أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سَم الخياط(١) أقربُ من دخول الغنيِّ في ملكوت السموات؟ أم في العصر الذي كان يحرِّم فيه الكاهن الأعظم علىٰ المسيحي أن ينظر في كتابٍ غير الكتاب المقدس، وأن يتلقىٰ علمًا في مدرسة غير مدرسة الكنيسة، أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمةُ ذات الذَّنَب فذُعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلىٰ البابا عرائض الشكوىٰ فطردها من الجو فولت الأدبار؟ أم في العصر الذي أهدىٰ فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقةَ إلىٰ الملك شارلمان، فلما رآها الشعبُ المسيحي

---

(١) **سَمِّ الخياط**: ثُقب الإبرة. «المعجم الوسيط» مادة (سمم).

وسمع صوتها فرَّ من وجهها ظنًّا منه أنها تشتمل علىٰ الجن والشياطين؟ أم في العصر الذي أُلِّفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم، فحكمت في وقت قصير علىٰ ثلاثمائة وأربعين ألفًا بالقتل حرقًا أو صلبًا؟ أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحيُّ فتاة حسناء بعدما جرّد لحمها عن عظمها؛ لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟!

هذا الذي نعلمه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية، ولا نعلم أكانت تلك المسيحيةُ التي كان هذا شأنَها وهذا مبلغَ سعة صدرها صحيحةً في نظرك أم باطلة؟ وإنما نريد أن نستدلَّ بالمسيحيين علىٰ المسيحية وإن لم نقف علىٰ حقيقتها، كما فعلت أنت في استدلالكَ بالمسلمين علىٰ الإسلام، وإن لم تعرف حقيقته وجوهره، علىٰ أن استدلالَنا صحيح واستدلالك باطلٌ، فإن المدنيةَ الحديثة ما دخلت أوربا إلا بعد أن زَحزحت المسيحيةَ منها لتحل محلَّها، كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منها الهواء لأنه لا يتسع لهما، ولا يجمع بينهما، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليومَ في أكواخ بعض العامة في أوربا فما بقي إلا بعد أن عفَت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه، لا باعتبار أنه دين مقدس يجب إجلاله وإعظامُه، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها

وبقوتها علىٰ كسر شِرَّة[١] النفوس الجاهلة، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيثُ يُستدلُّ به عليها أو باعتبار أنه أثرٌ من آثارها، ونتيجةٌ من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقةٌ ما افترقت عنه نحو تسعة عشر قرنًا، كانت فيه أوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعتها مسيحيتها، ولا أغنىٰ عنها «كهنوتُها» ولا «إكليروسها».

أما المدنية الإسلاميةُ فإنها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مَطلع واحد في وقت واحد، ثم سارت إلىٰ جانبه كتِفًا لكتف، ما يُنكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئًا؛ فالمتعبِّد في مسجده، والفقيهُ في درسه، والمُعَرِّب في مكتبته، والرياضي في مدرسته، والكيمائي في معمله، والقاضي في محكمته، والخطيب في مَحفِله، والفلكي أمام أسطُرلابه، والكاتب بين محابره وأوراقه، إخوة متصافون، وأصدقاء متحابون، لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يكفِّر بعضهم بعضًا، ولا يَبغي أحد منهم علىٰ أحد.

أيها الفيلسوف التاريخي؛ إن كان لا بدَّ من الاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر فالمدنيةُ الغربية اليوم أثرٌ من آثار الإسلام بالأمس، والانحطاطُ

---

(١) الشِّرَّة: الحدَّة. «المعجم الوسيط» مادة (شرر).

الإسلامي اليومَ ضربةٌ من ضربات المسيحية الأولىٰ. وإليك البيانَ:

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه، ودنياه وآخرته، وما يفيده منفردًا، وما ينفعه مجتمعًا.

هذَّب عقيدته بعد ما أفسدها الشِّرك بالله، والإسفافُ إلىٰ عبادة التماثيل والأوثان، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان، أرشده إلىٰ الإيمان بربوبية إله واحد لا يشرك به شيئًا، ثم أرشده إلىٰ تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف علىٰ حقائق الكون وطبائعه، وليزداد إيمانًا بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعًا نفسيًّا قلبيًّا فلا يكونَ آلة صماء في يد الأهواء[١]، تفعل به ما تشاء. ثم أرشده إلىٰ مواقفَ تذكِّره بربه، وتنبههُ من غفلته، وتُطِرُّ الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلًا، وهي مواقف العبادات، ثم أطلق لهُ الحريةَ في القول والعمل ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والإضرار بالناس، وعَرَّفهُ قيمة نفسه بعد ما كان يجهلها، وعلَّمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها، ووضيعها ورفيعها، وضعيفها وقويها، وأن الملِك والسُّوقة[٢] والشريف الهاشميّ، والعبد الزنجيَّ، أمامَ الله والحقّ سواء، وأن الأمرَ

(١) **الأهواء**: الميول. «المعجم الوسيط» مادة (هوي).

(٢) **السُّوقة**: الرعية التي يسوسها الملوك. لسان العرب مادة (سوق).

والنهي والتحليلَ والتحريم والنفعَ والضُّرَّ والثوابَ والعقاب والرحمة والغفران، بيد الله وحده لا ينازعه فيها منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين. ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلىٰ محاسنها، وحال بينه وبين رذائلها، حتىٰ علمه آداب الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والكلام والسلام. ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يَبرُّ الابنُ أباه، ويرحمُ الوالد ولده، ويَعطف الأخ علىٰ أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزَّكاة التي لو جُمعت ووضعت في مصارفها لما كان في الدنيا بائسٌ ولا فقير، وندبه[1] إلىٰ الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الأغنياء علىٰ الفقراء، ثم شرع له شرائعَ للمعاملة الدنيوية، ووضع له قوانينَ البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث؛ ليعرفَ كلُّ إنسان حقه فلا يَغبن[2] أحد أحدًا، ثم قرَّر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه علىٰ بعضه بشتم أو سبٍّ أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج علىٰ أمير أو سلطان. ثم نظر في شؤونه السياسيةِ فقرَّر الخلافةَ وشروطها،

---

(١) **ندبه:** دعاه له. «مختار الصحاح» مادة (ندب).

(٢) **يغبن:** يخدع. «مختار الصحاح» مادة (غبن).

والقضاءَ وصفاتِه، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين، البعيدين عنهم، والنازحين إليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواضع المسالمة لهم.

وجملة القول: إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في مَيْدان هذه الحياة خطوةً من مهده إلىٰ لحده إلا مدَّ يده إليه، وأنار له مواقع أقدامه وأرشده إلىٰ سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقةُ في سماء بلاد العرب، فملأت الكون نورًا وإشراقًا واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ومنكِرٍ وجودها، ولكنهم كانوا جميعًا سواء في الانتفاع بنورها، والاستنارة بضيائها، علىٰ تفاوتٍ في تلك الاستنارة، وتنوُّع في ذلك الانتفاع.

طلعت هذه الشمس المشرقةُ، فتمشَّت أشعتها البيضاءُ إلىٰ أوربا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم، واستيقظوا من سُباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة، ما لفَتَ نظرهم إلىٰ المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي اليقظ النابه، فقالوا: «أيمكن أن يعيش الإنسان علىٰ ظهر هذه المسكونةِ حُرًّا لا يستعبده ملِك ولا يسترقُّهُ كاهن؟!».

«أيمكن أن يبيت الإنسان ليلةً واحدة في حياته هادئًا في مضجعه مطمئنًّا في رقدته، لا يروِّعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد؟! أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر إلىٰ نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟! أيمكن أن يطلع فجر المدنية الإسلامية علىٰ هذا المجتمع الغربي، فيمحوَ ظلمته التي طال عهدنا بها حتىٰ غشيت أبصارنا، فما يكاد يرىٰ بعضنا بعضًا؟!».

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكياء هي الخطوة الأولىٰ، التي مشتها أوربا في طريق المدنية والعمران، بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفرادُ من مخالطة المسلمين في أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم، ثم أخذوا يعلِّمونها الناسَ سرًّا، ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئًا فشيئًا، ويَلقَون في سبيل نشرها عناء شديدًا. واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قرونًا عديدة حتىٰ انتهىٰ أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هي القضاء الأخيرَ علىٰ الوحشية السالفة، والهمجية القديمة.

أيها الفيلسوف التاريخي؛ إنك لا بدَّ تعلم ذلك حقَّ العلم؛ لأنه أقل ما يجب علىٰ المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا

وسعت غيرها فأحرِ[1] بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرتَ فضلَ صاحبِ الفضل عليك حتىٰ أنكرت عليه فضله علىٰ نفسه.

لا حاجة بي إلىٰ أن أشرح لك المدنيةَ الإسلاميةَ، أو أسرُدَ لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران، أو أعدِّدَ لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب، أو أصفَ لك مدنَها الزاهرة، وأمصارها الزاخرة، وسعادتها وهناءها، وعزتها وسطوتها، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخًا كما تقول.

غير أني لا أنكر عليك ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضَّعف والفتور، وما أصاب جامعتَهم من الوهن والانحلال، ولكن ليس السببُ في ذلك الإسلامَ كما تتوهم، بل المسيحيةُ التي سرت عدواها إليهم علىٰ أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبِسوا لباسَ الإسلام وتزيَّوا بزيه ودخلوا بلاده، وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدوهم بشيءٍ من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتىٰ أفسدوا عليهم

---

(١) **أَحْرِ بها**: الأفضل والأجدر بها. «المعجم الوسيط» مادة (حري).

مذاهبهم وعقائدَهم، وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوَّته، فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان.

كل ما نراه اليوم بين المسلمين من الخَلط في عقيدة القضاء والقدر وعقيدةِ التوكل، وتشييد الأضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامي علىٰ أعتابها، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها، وإسنادِ النفع والضرر إلىٰ رؤساءِ الدين وأمثال ذلك، أثرٌ من آثار المسيحية الأولىٰ وليس من الإسلام في شيءٍ.

أيها الفيلسوف التاريخي؛ لا تقل إننا متعصبون تعصُّبًا دينيًّا، فإنك قد أسأت إلينا وإلىٰ ديننا، فلم نرَ بُدًّا من الذَّبِّ عنا وعنه بما نعلم أنه حقٌّ وصواب. علىٰ أنه لا عار علينا فيما نقول، وهل التعصب الديني إلا اتحادُ المسلمين يدًا واحدة علىٰ الذودِ عن أنفسهم، والدفاع عن جامعتهم، وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتىٰ يكون الدين كلُّه لله؟

إن كـــان رفضًـــا حــــبُّ آل محمــــد
فليشـــــهد الـــثَّقلان[1] أني رافضــــي

---

(١) **الثقلان:** الإنس والجن. «لسان العرب» مادة (ثقل).

أهَناءٌ أم عَزاء؟

فارقَ مصر علىٰ أثر الدستور العثماني كثيرٌ من فُضلاء السوريين بعد ما عمَروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم، وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب، ولقنوا المصريين تلك الدروسَ العالية في الصَّحافة والتأليف والترجمة، وبعد ما كانوا فينا سفراءَ خيرٍ بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية، يأخذون من كمال الأولىٰ ليُتمِّموا ما نقص من الأخرىٰ، وبعد ما علَّموا المصريَّ كيفَ ينشط للعمل وكيف يَجِدُّ في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلَّد في معركة الحياة.

قضوا بيننا تلك البرهةَ[1] من الزمان يُحسنون إلينا فنسيءُ إليهم ويَعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء، وأخرىٰ ثُقلاء، كأنما كنا نحسَبُ أنهم قوم من شُذَّاذ[2] الآفاق أو نُفاياتِ الأمم، جاءوا إلينا يُصادروننا في أرزاقنا، ويتطفلون علىٰ موائدنا، ولو أنصفناهم لعرَفناهم وعرَفنا أن أكثرهم من بيوتاتِ المجد والشرف، وإنما ضاقتْ بهم حكومة الاستبداد ذَرعًا، وكذلك شأنُ كل حكومة مستبدةٍ مع أحرار النفوس وأباةِ الضَّيم[3]، فأحرجتْ صدورَهم، وضيقتْ

---

(١) **البُرْهة**: مدة طويلة من الزمن. «مختار الصحاح» مادة (بره).

(٢) قوم **شُذَّاذ**: لم يكونوا في منازلهم ولا حيهم. «لسان العرب» مادة (شذذ).

(٣) **الضَّيْم**: الظلم. «مختار الصحاح» مادة (ضيم).

عليهم مذاهبَهم، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفًا يَنعاهم، ومجدًا يَبكي عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفًا كرامًا، وأساتذة كبارًا، فما أحسنَّا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمَتهم.

وبعد... فقد مضىٰ ذلك الزمن بخيره أو شَرِّه، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفَقَت أفئدتنا مخافةَ أن يلحقَ باقيهم بماضيهم، فلا نعلمُ أنشكر للدُّستور أن فرَّج عنهم كربتهم، وأمَّنهم علىٰ أنفسهم، وردهم إلىٰ أوطانهم؟ أم ننقِمُ منه أن كان سببًا في حرماننا منهم بعد أنْسنا بهم، واغتباطنا بحسن عشرتهم، وجميل مودتهم؟! ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم عزاء؟!

فيأيها القوم المودِّعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذِكرانا لكم
ربَّ ذكرَىٰ قَرَّبت من نَزحا
واذكروا صبًّا إذا غنَّىٰ بكم
شربَ الدمع وعافَ القدحا

الزوجتان

حدَّث أحد الأصدقاء قال: «سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيبِ القصَّاصين».

«أويْت إلىٰ مضجَعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكةِ الجلباب، غُدافيةِ الإهاب(١)، فما استقبلتُ أول طليعة من طلائع النوم حتىٰ قُرع باب غرفتي، فتسمَّعتُ فإذا الخادم تقول: «إن امرأة سيئة الحال بَذَّة(٢) الثياب في زيِّ المتسولات تُلحُّ في طلب مقابلتك، وتقول: إن لها عندك شأنًا». فقلت في نفسي: «لا شأن لي مع امرأة وربما كانت ذاتَ حاجة، وكانت حاجتها إليَّ أكثرَ من حاجتي إلىٰ النوم، علىٰ أن النوم لا يفوتني، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء». فارتديت ردائي ونزلت فإذا فتاةٌ في مُلاءة(٣) بالية وبرقع خَلَق(٤) يَنُمُّ بجمالها كما ينُمُّ السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذا هي تُرعَد وتضطرب وتقول بصوت شجيٍّ: «أما في الناس أخو همة ومُروءة يُعين علىٰ الدَّهر الغادر، ويطفئ هذه الجُذوةَ التي تتأجَّج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة؟!»

---

(١) **غدافية الإهاب**: تعبير يدل علىٰ شدة سواد تلك الليلة وظلمتها.

(٢) **بَذَّة الثياب**: رثة الثياب والهيئة. «لسان العرب» مادة (بذذ).

(٣) **المُلاءة**: الملحفة. «المعجم الوسيط» مادة (ملأ).

(٤) **خَلِق**: بالٍ. «المعجم الوسيط» مادة (خلق).

فقلت: «من أنتِ يرحمك الله؟» قالت: «أنا فلانة زوج فلان». فدهشت وغَصصْتُ بريقي حتىٰ ما أجد بِلَّةً أحرِّك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت، وقلت: «يا للعجب! زوجةُ فلان علَىٰ عِظمه وعِظمها، وجلاله وجلالها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه الملابس؟!» فسألتُها: «ما شأنكِ يا سيدتي ومِمَّ تبكين؟» قالت: «لا تحدِّث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنونُ مذاهبَها، فوالله ما جئت إليك تحت حجاب الليل إلا وأنت أوثقُ الناس عندي، وأرفعهم في عيني، ولولا شدةٌ أقلقت مضجَعي وفرقتْ ما بين جفنيَّ والكرىٰ[1] ما خضت سواد الليل في مثل هذه الساعة، ولا حملت في سبيلي إليك ما حملت». قلت: «عهدي بسيدتي رخيةَ البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عَذْب الأخلاق كريم السجايا، لا يؤْثِر[2] هوىٰ نفسه علىٰ هواك ولا يَعدِل بك أحدًا». قالت: «إنك تَقُصُّ عليَّ حديث الأمس وقد مضىٰ بهِ الفلك الدائر، والكوكب السَّيَّار، فاسمع مني حديث اليوم»:

«إنك لا بدَّ تعلم تاريخ زواجي منه منذ ثلاثة أعوام وأن أبي لم يبتغ به بدلًا عن كثرة الخاطبين إليه من عِلية[3] القوم وجِلَّتهم، وأنا لا ألومه علىٰ ذلك – رحمة الله عليه – فما أراد بي شرًّا ولا اعتَمدَ أن يسيء

---

(١) **الكرىٰ**: النعاس. «مختار الصحاح» مادة (كري).

(٢) **يؤثر**: يختار ويفضل. «المعجم الوسيط» مادة (أثر).

(٣) **عِليَّة القوم**: أشرافهم. «لسان العرب» مادة (علو).

الاختيار لي، ولكنه كان رجلًا أبيض السريرة طاهرَ القلب فخدعه الخادعون عني، ومن ذا الذي لا يُخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرُّتب العالية؟! وكيفما كان الأمر، فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبَطتُ به واغتبط بي بُرهة من الزمان، حسِبْتها دائمة لا انقطاع لها حتىٰ يفرِّق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمعُ في نفسي جميع ما يَمُتُّ به النساء إلىٰ الرجال، فما خنته، ولا ضقت ذرعًا بأمره، ولا قطَّبت في وجهه مرة، ولا أتلفت له مالًا، ولا نقضت له عهدًا، فجازاني سوءًا بالإحسان، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، وخان وُدِّي، ونقض عهدي، لا لذنب أتيته، أو وصمة يَصمني بها، وكل ما في الأمر أنه رجل ملول. ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك إن قلب الرجل متقلِّب متلون يُسرع إلىٰ البغض كما يسرع إلىٰ الحب، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثقُ منه عقدًا، وأمتن وُدًّا، وأوفىٰ عهدًا، ولو وفىٰ الزوجُ لزوجته وفاءَها له ما استطاع أن يفرِّق بين قلبيهما إلا رَيبُ المنون». قلت: «أنا لا أغضب لشيءٍ إلا للإنسانية أن يُنقض عهدُها، ويُخفر ذمامها، ثم ماذا تم بعد ذلك؟» قالت: «مات أبي كما تعلم وخلف لي مالًا أمكنتُ منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمْر(١)، فكنت أغضي علىٰ هفواته رحمة به وشفقة عليه واستبقاءً لوُدِّه، حتىٰ إذا

(١) **القَمر**: لعب القِمار. «مختار الصحاح» مادة (قمر).

صَفِرت يدي وأقفر ربعي[١] أحسست منه مللًا كان يدعوه إلىٰ سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي، وكان كثيرًا ما يتهكَّم بي ويقول: «إني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمُني ولا أفهمُها». وآونة كان يعرِّض بي قائلًا: «إن الرجل السعيد هو الذي يُرزَق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات، وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية» بل يتجاوز التعريضَ إلىٰ التصريح، فيقول كلما دخل عليَّ متأفِّفًا متذمِّرًا: «ليت لي زوجة كفلانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقيع علىٰ البيان»[٢]. فكنت أشكُّ في سلامة عقله وأقول في نفسي: كيف يُفضل الزوجة المتبذِّلة المستهترة علىٰ الحييَّة المحتشمة! ووالله ما تمنيت مرةً أن أكون علىٰ الصفة التي يحبها ويرضاها ما كنت أبذُل في رضاه من ذات اليدِ وذات النفس. وبعدُ فما زال الملل يدِبُّ في نفسه دبيب الصهباء[٣] في الأعضاء، حتىٰ تحوَّل إلىٰ بغضاءَ شديدة، فما كان يلحظني إلا شزْرًا[٤] ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، فكنت أحتمل كلَّ هذا بقلب صبور، وجَنان وَقور. ثم عرض له بعد ذلك أن نُقل إلىٰ منصِب أرقىٰ من

---

(١) **أقفر ربعي**: كناية عن ذهاب مالها.

(٢) **البيان**: آلة موسيقية لها أصابع بيض وسود ينقر عليها بالأنامل. «المعجم الوسيط» مادة (بين).

(٣) **الصهباء**: الخمر. «القاموس المحيط» مادة (صهب).

(٤) **شذرًا**: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة. «المعجم الوسيط» مادة (شذر).

منصِبه في بلد آخر، علىٰ ما تعلم، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنسَ لي غيرُ طفلتي فلبثت أترقَّب كتابًا منه يدعوني فيه إلىٰ اللَّحاق به فما أرسل كتابًا ولا رسولًا ولا نفقة. فاستكتبتُ إليه الكتابَ بعد الكتاب فما أسلسل قيادُه، ولا طاوع عنادُه، فسافرت إليه مخاطِرةً بنفسي غيرَ مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه وشأني معه، فما نزلتُ من القطار حتىٰ قيَّض الله لي من وقَفني علىٰ حقيقة أمره، وأعلمني أنه تزوَّج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات، وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحسن الرَّقص والغناء والتوقيع علىٰ «البيان»؛ فداخلني من الهمِّ ما الله به عليم، وجزعت ولكنْ أيَّ ساعة مَجْزع! ولا أظن إلا أن العدلَ الإلهي سيحاسبه علىٰ كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتُها في هذا السبيل حسابًا غيرَ يسير.

«وكأنه شعرَ بمكاني فجاء إليَّ يتهددني ويتوعدني، فتوسلت إليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها بين يديَّ، وذكَّرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها، وذهبت إلىٰ استعطافه كلَّ مذهب، فكنت كأنني أخاطب رَكودًا صمَّاء(١)، أو أستنزل أبودًا عصماء(٢)، ثم طردني وأمر منْ حملَني إلىٰ المحطة، فعدت من حيث أتيت.

---

(١) **الرَّكود**: من الرُّكود وهو الثبات والسكون، والصخرة الصماء: الصُّلبة المصمتة.

(٢) **أبدت البهيمة**: توحشت، والعصماء من الظباء التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود.

«فما وصلت إلىٰ المنزل حتىٰ خلعتُ ملابسي، ولبست هذه الثياب، وجئتك متنكرة في ذِمام الليلِ، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميمَ، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الوُدِّ والاتِّصال، عسىٰ أن ترىٰ لي رأيًا في التفريق بيني وبينه، علَّني أجد في فضاء الحرية منفذًا كسَم الخياط أرتشف منه ما أتبلَّغُ به أنا وطفلتي حتىٰ يبلغ الكتاب أجله».

«فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني، ووعدتُها بالنظر في أمرها بعد أن خفَّضت كثيرًا من أحزانها ولواعجها(١)، فعادت إلىٰ منزلها، وعدت إلىٰ مضجَعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفني همَّان: همُّ تلك البائسة التي لم أرَ في تاريخ شقاء النساء قلبًا أشقىٰ من قلبها، ولا نجمًا أنحس من نجمها، وهمُّ ذلك الصديق الذي ربحته سنين طوالًا وخسرته في ساعة واحدة، فقد كنت أغبط نفسي عليه، فأصبحت أعزيها عنه، وكنت أحسبه إنسانًا، فإذا هو ذئب عَمَلَّس(٢) تَستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسام».

هذا ما قصَّه عليَّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تمَّ من أمره مع تلك الفتاة المسكينة، ولا ما تم من أمرها مع زوجها، حتىٰ

(١) **لواعجها**: همها وقلقها. «المعجم الوسيط» مادة (لعج).

(٢) **العملس**: السريع.

جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام علىٰ تلك القصة الغريبة، وهذا نصه:

«سيدي»:

«يهمني كثيرًا أن أرىٰ بين كتب التهنئة التي ترد إليَّ كتابًا منك لأسرَّ بمشاركتك إياي في سروري وهنائي».

«إنك لا بدَّ تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في تلك الفتاة البائسة، التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلىٰ أخرىٰ غيرها، بعد ما جرَّدها مما كانت تملك يدُها، وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليَّ، وربما كنتَ لا تعلم بما تم من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دَفعت زوجها إلىٰ موقف القضاء فضاقَ بأمرها ذرعًا فطلقها. وكنت أفكر في ذلك التاريخ في الزواج – كما تعلم – من زوج صالحة، أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجدَ زوجة أشرف نفسًا، ولا أكرم جوهرًا، ولا أذكىٰ قلبًا منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء، وأنقذت الإنسانية المعذبة من شِقوتها وبلائها، وأبشِّرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقامًا شديدًا. فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذًا عظيمًا، فحولتها إلىٰ فتاة غربية في

جميع شؤونها وأطوارها، والرجل شرقيٌّ بفطرته، أما غربيَّتُه فهي متكلفة متعمَّلة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه؛ فهو لا يزال رجلًا غيورًا شريفًا، ولا يزال يقاسي اليوم من تلك المرأة الخرقاء، أضعافَ ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام».

في سبيل الإحسان

الإِحسانُ شيء جميل، وأجمل منه أن يَحُلَّ محله، ويصيب موضعه.

الإِحسان في مصرَ كثيرٌ، ووصوله إلىٰ مستحقيه وصاحبِ الحاجة إليه قليلٌ، فلو أضاف المحسن إلىٰ إحسانه إصابةَ الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاةَ بائس ولا أنَّة محزون.

ليس الإِحسان هو العطاء كما يظنُّ عامة الناس، فالعطاء قد يكون نفاقًا ورياء، وقد يكون أحبولة[1] يَنصبها المعطي لاصطياد النفوس وامتلاك الأعناق، وقد يكون رأسَ مال يتَّجر فيه صاحبه ليبذُل قليلًا ويربح كثيرًا.

إنما الإِحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشَّقاء، فلو أن جميع ما يبذُله الناس من المال ويسمونه إحسانًا صادرٌ عن تلك العاطفة الشريفة؛ لما تجاوز محله ولا فارق موضعه.

فوضىٰ الإِحسان:

الإِحسان في مصر فوضىٰ لا نظام له، يناله من لا يستحقُّه ويُحرَم منه

(١) **أحبولة**: مصيدة. «المعجم الوسيط» مادة (حبل).

مستحقه، فلا بؤسًا يرفع، ولا فقرًا يدفع، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء:

ولـــــو أن الســـــحاب همـــىٰ بعقـــل

لمـــا أروَىٰ مـــع النخـــل القتـــادا[١]

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحًا من أضرحة المقبورين، فيضعَ في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب، ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشًا وأنعم بالًا، أو يهدي ما يسميه نذرًا من نَعم وشاءٍ إلىٰ دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكُّه بها ذلك الدودُ الذي يأكل لحمه، والسوسُ الذي ينخر عظمه، وما أهدىٰ شاته ولا بقرته لو يعلم إلا إلىٰ «ديوان الأوقاف» وكان خيرًا له أن يُهديَها إلىٰ جاره الفقير الذي يبيت ليله طاويًا[٢] يتشهَّىٰ ظِلفًا[٣] يمسك رمقه، أو عرقوبًا[٤] يطفئ لوعته.

---

(١) **القتاد**: شجر صلب له شوك لا فائدة منه. (المنفلوطي).

(٢) **طاويًا**: جائعًا. «مختار الصحاح» مادة (طوي).

(٣) **ظِلْف البقرة**: ظُفرها.

(٤) **العرقوب من الدابة**: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها. «المعجم الوسيط» مادة (عرقب).

وأعظم ما يتقرَّب به محسنٌ إلىٰ الله، ويَحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيهما، أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد، حافل بالمعابد، وفي البلد كثيرٌ من البائسين وذوي الحاجات، يَنشدون مواطن الصِّلات، لا أماكنَ الصلوات، أو يبني بنيةً ضخْمة فخمة مرفوعة القباب، فسيحة الرحاب، مموهة الجوانب والأركان، مذهبة السقوف والجدران، يسميها سبيلًا. ولا يهولنَّك[١] هذا الاسمُ الضخم، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل علىٰ حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر إلا بضع خطوات، علىٰ أن الماء كالهواء، ملء الأرض والسماء. أو يقفُ الرقاعَ الواسعة من الأرض لتنفق غلتُها علىٰ أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات، وترديد الصلوات، وقراءة الأحزاب والأوراد، وهو يَحسَبُ أنه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع هذا الإحسان عنهم، علَّهم يتعلمون صناعة أو مِهنة يرتزقون منها رزقًا شريفًا. فإنْ كان يظن أنه يعمل في ذلك عملًا يقرِّبه إلىٰ الله، فليعلم أن الله تعالىٰ أجلُّ من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سُلَّمًا إلىٰ طعام يطعمونه، أو درهم يتناولونه. أوْ يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق، ولو أنصفوهم

---

(١) **لا يهولنك**: لا يفزعنك. «المعجم الوسيط» مادة (هول).

لسموهم قطاع الطرق، ولا فرق بين الفريقين إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعِصيّ، وأولئك يتسلحون بالسُّبح والمساويك[١]، ثم يسقطون علىٰ المنازل سقوط الجراد علىٰ المزارع فلا يتركون صادحًا[٢] ولا باغمًا[٣]، ولا خفًّا ولا حافرًا[٤]، ولا شيئًا مما تنبت الأرض من بقلها[٥] وقثائها[٦] وفومها[٧] وعدسها وبصلها إلا أتوْا عليه.

أسوأ الإحسان:

لم أر مالًا أضيعَ، ولا عملًا أخيب، ولا إحسانًا أسوأ من الإحسان إلىٰ هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض، ويَقلبونها ظهرًا علىٰ عقب، ويجثُمون في مفارق الطرق وزوايا الدُّروب وعلىٰ أبواب الأضرحة والمزارات يُصِمون الأسماع بصريخهم، ويُقذون النَّواظر بمناظرهم

(١) **المساويك**: جمع مسواك وهو عود يُتخذ من شجر الأراك ونحوه يستاك به. «المعجم الوسيط» مادة (سوك).

(٢) **الصادح**: صدح الرجل والطائر أي رفع صوته بالغناء. «القاموس المحيط» مادة (صدح) وأراد كل رجل أو طائر.

(٣) **الباغم**: البُغام صوت الظَّبْية. «المعجم الوسيط». مادة (بغم).

(٤) **لا خُفًّا ولا حافرًا**: الخُفُّ للبعير كالحافر للفرس. «المعجم الوسيط» مادة (خَفَّ) ويقصد بذلك جميع أنواع الدواب.

(٥) **البقل**: نبات عشبي يتغذىٰ به الإنسان. «المعجم الوسيط» مادة (بقل).

(٦) **القثاء**: نبات قريب من الخيار. «المعجم الوسيط» مادة (قثأ).

(٧) **الفُوم**: الثوم، والحبُّ مما يخبر. «المعجم الوسيط» مادة (فوم).

المستبشعة، ويزاحمون بمناكبهم الفارسَ والراجل والجالس والقائم، فلو أن نجمًا هوىٰ إلىٰ الأرض لهوَوا علىٰ أثره، أو طائرًا طار إلىٰ الجو لكانوا قوادمه(١) وخوافيه(٢).

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفةً حقيقيَّة لتعرف هل يستحقُّ عطفك وحنانك عليه، وهل ما تُسديه إليه من المعروف تُسديه إلىٰ صاحب حاجة، فاعلم أنه في الأعمِّ الأغلب من أحواله رجلٌ لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما، ولا مسكن عنده يحتاج إلىٰ مؤن ومَرافقَ، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس، حتىٰ لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه. وهو لو شاء أن يتزوَّج أو يتخذ له مأوىٰ يأوىٰ إليه لفعل، ولوَجد في حرفته متسعًا لذلك، ولكنهُ الحِرصُ قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ليَجمع مالًا لا فائدة له من جمعه، ولا نية له في إصلاح شأن نفسه به إذا اجتمع عنده منه ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتىٰ يُدفنَ معه، أو لينظِمَه في مرقَّعته حتىٰ يرثه الغاسل من بعده. ولقد يبلغ به الحرصُ الدنيء والشَّرَه السافل أن يحمل في سبيل المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل مثله في سبيل الله؛

---

(١) **القوادم**: الريشات في مُقدَّم الجناح. «القاموس المحيط» مادة (قدم).

(٢) **الخوافي**: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت. «القاموس المحيط» مادة (خفي).

فيتعمدَ قطع يده أو ساقه أوْ إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطف القلوب عليه، وكثيرًا ما يحسد صاحبه إذا رآه أفظع منه شكلًا أو أكثر تشويهًا.

كما يحكىٰ أن شحَّاذًا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرىٰ من الخشب، تَقابل مع آخر كفيفِ البصر، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذىٰ للأعين وأوقعُ في النفس وأجلب للرحمة، فقال الأول للثاني: «لقد وهبك الله نعمة العمىٰ، ومنحك بسلب ناظريك أفضلَ حِبالة لاصطياد القلوب، واستفراغ الجيوب». فقال له صاحبهُ: «وأين يبلغ العمىٰ من هذه الرِّجل الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهبًا!».

إنَّ أكبر جريمة يُجرمها الإنسان إلىٰ الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله علىٰ الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة، فيغري كل من شعرَ في نفسه بالميل إلىٰ البطالة وإيثار الراحة، بالسعي علىٰ آثارهم، والاحتراف بحرفتهم، فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضوًا كاملًا، لو لم يقطعه لكان عضوًا عاملًا، وكأنه هدم بعمله هذا جميع تلك المساعي الشريفة، التي بذلها الأنبياءُ والحكماء قرونًا عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني، وتهذيبِ أخلاقه وتخليصه من آفات الجمود والخمول، فهل رأيتَ معروفًا أقبحَ من هذا المعروف وإحسانًا أسوأ من هذا الإحسان؟!

تنظيم الإحسان:

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما

يستهانُ به، فلو قال قائل: إنها تبلغ في مصر وحدَها كل عام مليونًا من الذهب، لما أخطأ التقدير.

سألت رجلًا من وجوه الريف المعروفين بالبرِّ والإحسان، عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل فأطلعني علىٰ جريدة حسابه، فرأيتها هكذا:

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق.
٦٠	ليالي في مولد البيومي والعفيفي.
٧٢	مرتَّبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله.
٣٠	هبات كبيرة للطائفين في البلاد الذين يستَجدون باسم المجد القديم والشرف الداثر.
١٨	صَدقات للمتسولين علىٰ تقدير خمسة قروش يوميًّا تقريبًا.
١٠	توضع في صناديق الأضرحة.
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس تفرق في المواسم الدينية.
—	
٢٤٠	

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد، وفي مصر مئاتٌ مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه، فلا غرابة في أن يقدِّر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه علىٰ غير شيء سوىٰ إغراء الكسلان بكسله، وحمل العامل علىٰ ترك عمله، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الإنسان محله، وأصاب منه موضعه، وأنفق في سبيل الخيرات النافعة ووجوه البرِّ الحقيقية لارتقىٰ بالأمة المصرية إلىٰ ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلىٰ ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة.

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحًا نافعًا، وأدعو الكاتبين الذين لا غرض لهم من وراء الكتابات السياسية، ولا غاية لهم من الاشتغال بإثارة الخواطر وتهييجها، وإغراء بعض الناس ببعض أن يساعدوني بأقلامهم علىٰ تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد:

أقترح أن يقوم جماعة من سَراة الأمة ووجوهها، وأصحاب الرأي والبصيرة فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمىٰ «مجتمع الإحسان»، ويكون له في كل مدينة من مدائن الريف فرعٌ تابع له.

أما أعماله التي أحبُّ أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة:

١- استخدام فريق من مهرة الكتاب وفُصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة، بكل واسطة من وسائط النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير، معنىٰ الإِحسان، وما هو الغرض منه، وما هي أفضل وجوهه، وأيّ أنواعه أجمع لخيرَي الدنيا والآخرة.

٢- بذل الجهد في حمل الناس علىٰ اعتبار مجتمع الإِحسان هذا بيتَ مال لهم، أوْ وكالة عامة عنهم تتولىٰ جمع الصدقات منهم، وتوزيعَها علىٰ مستحقيها، وحسبُها أن تأخذ من كل فرد في كل عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام، فلا يكون بعد ذلك مأخوذًا بشيءٍ من الإِحسان أمام ربه وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع.

٣- إنفاق ما يجتمع من المال علىٰ تربية اليتامىٰ الذين لا كاسب لهم، والقيام بأَوَد العاجزين والعاجزات عن الكسب، وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكَّر لهم بعد العزِّ والنعمة، وصيانة ماء وجوههم أن تراق علىٰ تراب الأعتاب، والإِنفاق علىٰ تعليم من يتوسَّم فيهم الذكاء والفطنة ويرجىٰ أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء، إلىٰ أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان بدونها، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقادًا لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولىٰ في سبيل هذا العمل الجليل، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإحسان، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان.

أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جوانب نفسي، فربما خالفت الناس أو بعض الناس في أشياءَ يعلمون منها غير ما أعلم. ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحقَّ أولىٰ بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلًا أجلُّه عن أن أنزل به إلىٰ أن يكون سَيِّقَةً[1] للعقول، وريشةً في مَهابِّ الأغراض والأهواء.

فهل يجمُل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول، أو صاعقةٍ من الغضب لأني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يكون له من الحقِّ في حملي علىٰ مذهبه أكثر مما يكون لي من الحق في حمله علىٰ مذهبي؟!

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبَه بالحُجَّة والبرهان، ولا بأس أن ينقُض أدلة خصمه ويُزيِّفها بما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرَّع بكل ما يعرف من الوسائل إلىٰ نشر الحقيقة التي يعتقدها، إلا وسيلةً واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئًا، وهي وسيلة الشتم والسباب.

---

(١) **السَّيِّقة**: ما يساق من الدواب. «المعجم الوسيط» مادة (سوق).

إن لإخلاص المتكلم تأثيرًا عظيمًا في قوة حجته وحلول كلامه المحلَّ الأعظم من القلوب والأفهام، والشاتم يُعلم الناس جميعًا أنه غير مخلص فيما يقول، فعبثًا يحاول أن يحمل الناس علىٰ رأيه أو يقنعَهُم بصدقه وإن كان أصدقَ الصادقين.

أتدري لمَ يَسبُّ الإنسانُ مناظره؟ لأنه جاهل وعاجز معًا. أمَّا جهلهُ فلأنه يذهبُ في واد غير وادي مُناظره، وهو يظنُّ أنه في واديه، ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلىٰ النظر في شؤون المُناظر وأطواره كأن كل مبحث عنده مبحثٌ «فسيولوجي». وأما عجزه فلأنه لو عرف إلىٰ مناظره سبيلًا غيرَ هذا السبيل لسلكه، وكفىٰ نفسه مؤونة ازدراءِ[1] الناس إياه وحماها من الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين، مُحقًّا كان أم مبطلًا.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرضُ من المناظرة شيئًا غيرَ خدمة الحقيقة وتأييدِها، وأحسَبُ أن لو سلك الكُتَّاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا علىٰ مسائلَ كثيرةٍ هم لا يزالون مختلفين فيها، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمةُ حقٍّ لا ريب فيها، ولكنه يبغضه فيبغضُ الحق من

(١) **الازدراء**: الاحتقار. «مختار الصحاح» مادة (زري).

أجله، فينهض للرد عليه بحجج واهيةٍ وأساليب ضعيفةٍ وإنْ كان هو قويًّا في ذاته، لأن القلم لا يقوىٰ إلا إذا استمدَّ من القلب، فإذا عَيَّ بالحجج والبراهين لجأ إلىٰ المراوغةِ والمهاترة، فيقول لمناظره مثلًا: إنك رجل جاهل لا يُعتدُّ بآرائك، أو إنك رجل مضطرب الرأي لا ثبات لك لأنك تقول اليومَ غير ما قلت بالأمس. وهنالك يقول له الناس: «رويدًا لا تخلط في كلامك، ولا تراوغ في مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله، فإنه يقول شيئًا، فإن كان صحيحًا فسلِّم به، أو باطلًا فبيِّن لنا أوجه بطلانه. وهبْه قولًا لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب القائل وثباته، فربما كان بالأمس علىٰ رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرءُ يخطئ مرة ويصيب». فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعًا فرَّ إلىٰ أدنىٰ الوسائل وأضعفها، فسبَّ مناظره وشتمه وذهب في التمثيل بهِ كل مذهب، فيسجل علىٰ نفسهِ الفرار من تلك الحرب والانخذال في ذلك الميدان.

علىٰ أن أكثر الناس متفقون علىٰ ما يظنون أنهم مختلفون فيهِ، فإن لكل شيءٍ جهتين، جهة مدح وجهة ذم، فإمَّا أن تتساويا أو تكبرَ إحداهما الأخرىٰ، فإن كان الأول فلا معنىٰ للاختلاف؛ وإن كان الثاني وجب علىٰ المختلِفَيْن أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كلُّ منهما من سلسلة الخلاف في طرفها.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلافٌ في مسائل كثيرةٍ حتىٰ يشتدَّ النزاع، وحتىٰ لا يلين أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه، فحضر حوارَهما أحد الحكماء في ليلة وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلىٰ مصافِّ الملائكة، ويهبط بها الوزير إلىٰ منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما علىٰ مذهبه أدلته. فلما علا صوتهما واشتدَّ لجاجُهما خرج ذلك الحكيمُ وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوح علىٰ أحد وجهيه صورةُ فتاة حسناء، وعلىٰ الآخر صورة عجوز شوهاءَ، فقطع عليهما حديثهما، وقال لهما: «أحبُّ أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها». ثم عرض علىٰ الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها، ورجع إلىٰ مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما فعل، وعرض عليه صورةَ العجوز الشمطاء[(١)]، فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًّا قبيحًا، فهاج غيظُ الملك علىٰ الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذُمُّ الصورةَ التي رآها هو. فلما عادا إلىٰ مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد تعرض لهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه؛ فسكن ثائرهما وضحكا

(١) **عجوز شمطاء**: اختلط سواد شعرها ببياضٍ. «المعجم الوسيط» مادة (شمط).

كثيرًا، ثم قال لهما: «هذا هو الذي أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلًا؛ لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه؛ لو أن كلًّا منكما ينظر إلىٰ المسائل المختلف فيها من جهتيها». فشكرا له همته وأثنيا علىٰ فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعًا كثيرًا حتىٰ ما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلًا.

الإحسان في الزواج

ورد إليَّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع:

«حضرة السيد الفاضل

ضمَّني وجماعةً من الأصدقاء مجلسٌ جرىٰ فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا[١]، فأخذته الرأفةُ بها فتزوجها. وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، وطالت مدةُ الجدَل بيننا ساعات ولم يستطع أحد الفريقين أن يُقنع الآخر برأيه، فاتفق رأينا جميعًا علىٰ أن نكتب إليك بذلك علَّك تلقي علىٰ هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

ف. س»

أيها السائل الكريم:

إن كان باعثُ الرجل علىٰ الزواج بهذه البغيّ شهوةً يريد قضاءها من امرأة يعشقها، ولا يرىٰ له سبيلًا إلىٰ طول استمتاعه بها والاستئثار بحظِّه منها إلا هذا السبيل، كما هو شأن أكثر الذين يتزوجون من البغايا، فقد أخطأ خطأ

---

(١) **البغايا:** البَغِيُّ الفاجرة تتكسب بفجورها. «المعجم الوسيط» مادة (بغي).

جمًّا لأن من كان هذا شأنَه لا يَعنيه إلا ذاتُ نفسه، ولا يَشغَله من شؤون تلك المرأة إلا الشأنُ الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذاته. وآيةُ ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاح قلبها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها، ولا يداخلها مداخلةَ المؤدِّب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفِر منها وتشمئزُّ لها، بل لا يكفيها مَؤونة العيش، ولا يرفِّهها ولا يقلِّبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعرَ بأن في قلبه بقيةً من الوجد والشغف بها. فإذا أقفرَ[١] قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يَهيج له وجدًا[٢]، ورجوعَها إلىٰ عيشها السالِف لا يثير منه غيرة، فارقها فراقًا هادئًا مُطمئنًّا لا يمازجه حزن علىٰ فسادها، ولا يخالطه أسف علىٰ سقوطها، وهنالك تعود تلك المرأة إلىٰ عُشِّها الذي طارت منه، وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموْجدة علىٰ معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به.

فالرجل الذي يتزوج من البغيِّ قضاءً لشهوتِه وإيثارًا للذته، لا ينفعها ولا يحسن إليها، لأنه لا يهذب نفسها، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار علىٰ عشرتها، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها، فيبغِّض إليها الصَّلاح ويحبب إليها الفساد، وعندي أنه في عمله هذا فاسق

---

(١) أقفر: خلا. «القاموس المحيط» مادة (قفر).

(٢) وجْدًا: حزنًا وحُبًّا شديدًا. «لسان العرب» مادة (وجد).

لا متزوجٌ، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلةٌ من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سَمَّىٰ الأجر مهرًا ولا المتعةَ عقدًا.

فإن كان حقًّا ما تقول من أن باعثه إلىٰ ذلك الرحمةُ والرأفة والحنان والشفقة، فقد أحسن كل الإحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملًا هو أفضل عند الله ذخرًا، وأعظم أجرًا، من هذا العمل الصالح.

العِرض أثمن من الحياة، فإن كان من يمنح الحياة فاقدَها شريفًا، فأشرفُ منه من يردُّ العرض الضَّالَّ إلىٰ صاحبه المفجوع فيه.

ليت الرجالَ يتفقون جميعًا علىٰ أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرُها وعُدمها أو فقدُ عائلها إلىٰ البِغاء، بل ليتهم يتفقون علىٰ الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن.

لِمَ لا يكون بابًا من أبواب الإحسان أن يتفقدَ المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء؛ فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم، وإن لم يكنَّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب؟ لأنه إحسان، والإحسانُ لا يجمُل إلا إذا أصاب موضعه من الشِّدَّة ومكانه من الشقاء.

لو عرف المحسنون معنىٰ الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال علىٰ بناء التَّكايا والزَّوايا، وتوزيعه علىٰ المتسولين والمتكففين ووقفه علىٰ

القارئين والذاكرين، لا يدَّخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلىٰ النساء، بالعصمة من البِغاء.

البِغاء للبغيِّ شقاء ما جناه عليها إلا الرجل، فجدير به أنْ يغرم ما أتلفَ ويصلح ما أفسد.

يَهجُم الرجل علىٰ المرأة ويُعدُّ لمهاجمتها ما شاء الله أن يعدَّه من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتىٰ إذا خدعها عن نفسها، وغلبها علىٰ أمرها، وسلبها أثمنَ ما تملك يدُها، نفض يده منها وفارقها فراقًا لا لقاء بينهما من بعده.

هنالك تجلس في كِسر بيتها جلسة الكئيب الحزين مسبلةً دمعَها علىٰ خدِّها، مسندة رأسها بكفها، تَفلي أناملها التراب، لا تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش عن طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها، لأن الرجل يسميها ساقطة، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه، لأن الرجل أهمل شأنها، فلم يعلِّمها من العلم ما تستعين به علىٰ ضائقة العيش، وتطلبه من طريق التسوُّل فلا تجده، لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حرامًا، علىٰ أن يمنحها الدرهم حلالًا، فلا تجد لها بدًّا من أن تطلبه من طريق البغاء.

فها أنت ذا ترىٰ أن شقاء المرأة الساقطة روايةٌ من الروايات المحزنة، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها، ويظهر في كل فصل من فصولها، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك السِّتار المسبَل، فإنا لا نزال نعتقد أن الرجل غريمُ المرأة، وأن حقًّا عليه أن يؤدي دينه ويَغرم أرشَ[1] جنايته.

إنْ أبىٰ الرجل أن يتزوج المرأة بغيًّا فليحُل بينها وبين البغاء، ولا سبيل له إلىٰ ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابًا من أبواب الإحسان، أي أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه، وأحقُّ النساء بالإحسان أولئك اللواتي لم يرزقهن الله الجمال والمال، والحسب والنسب، فإن أبىٰ إلا أن يتزوج المرأة السعيدة، فليعلم أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها، وساقها بنفسه إلىٰ قرارة الشقاء ورماها بيده في هوَّة الفسق والبغاء.

---

(١) **الأرش**: دية الجراحة. «المعجم الوسيط» مادة (أرش).

لا همجيَّةَ في الإسلام

أيها المسلمون:

إن كنتم تعتقدون أنَّ الله ﷻ لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحًا بالسيوف، وقصفًا بالرماح، وحرقًا بالنيران، فقد أسأتم بربكم ظنًّا، وأنكرتم عليه حكمتَه في أفعاله، وتدبيرَه في شؤونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يَبني البناء ليهدمه، ويزرع الزرْع ليحرقه، ويخيط الثوب ليمزقه، وينظم العقد ليبدده.

لم يزل الله ﷻ مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه، ويمدُّه برحمته وإحسانه، ويُرسل إليه في ذلك السجن المظلم الهواءَ من منافذه، والغذاء من مجاريه، ويذود[١] عنه آفات الحياة وغوائلها[٢] نطفةً فعلقة فمضغة فجنينًا فبشرًا سويًّا.

إن إلهًا شأنه مع عبده وهذه رحمته به وإحسانه إليه محالٌ عليه أن يأمر بسلبه الروحَ التي وهبه إياها، أو يرضىٰ بسفك دمه الذي أمده به ليجري في شرايينه وعروقه، لا بين تِلال الرمال، وفوق شعاف الجبال.

(١) **يذود عنه**: يدفع عنه. «المعجم الوسيط» مادة (زود).

(٢) **الغوائل**: المهالك. «لسان العرب» مادة (غول).

في أيِّ كتاب من كتب الله، وفي أيِّ سنَّة من سُنَن أنبيائه ورسله قرأتم جواز أن يعمِد الرجل إلىٰ الرجل الآمن في سربه، القابع في كسر بيته، فينزع نفسه من بين جنبيه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يَدين بدينه، ولا يتقلد مذهبه.

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه لأقفرت البلاد من ساكنيها، وأصبح ظهر الأرض أعرىٰ من سراة أديم.

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سُنة من سُنَن الكون التي لا يمكن تحويلُها ولا تبديلها، حتىٰ لو لم يبقَ علىٰ ظهر الأرض إلا رجل واحد لجرَّد من نفسه رجلًا آخَرَ يخاصمه وينازعه، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة.

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة التي تنتج من التَّحاكِّ بين جسمين مختلفين، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة للقضاء علىٰ هذا العالم وسلبه روحَه ونظامَه.

أيها المسلمون؛ ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين مُرادًا به التشفي والانتقامُ منهم، أو القضاء عليهم، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها مُعترض أو يَحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل، أي أنَّ القتال كان ذوْدًا ودفاعًا، لا تشفِّيًا وانتقامًا.

وآيةُ ذلك أن السَّرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب إليه، حتىٰ يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تُزعِجَ الرهبان في أديرتهم، والقسيسين في صوامعهم، وأن لا تحاربَ إلا من يقاومها، ولا تقاتلَ إلا من يقفُ في سبيلها، ولقد كان أحرىٰ[1] أن تُسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتُسلبَ أرواحهم؛ لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم والقضاء عليهم.

لو أنكم قضيتم علىٰ كل من يتديَّنُ بدين غير دينكم حتىٰ أصبحت رقعة الأرض خالصةً لكم لانقسمتم علىٰ أنفسكم مذاهبَ وشيعًا، وتقاتلتم علىٰ مذاهبكم تقاتُلَ أرباب الأديان علىٰ أديانهم، وهكذا حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض مذهب ولا متمذهب.

أيها المسلمون؛ ما جاء الإسلام إلا ليقضيَ علىٰ مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام.

ما جاء الإسلام إلا ليستلَّ من القلوب أضغانَها وأحقادها، ثم يَملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة ليعيشَ الناس في سعادة وهناء، وما هذه القطراتُ من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة البَضع العضوي الذي يَتذرعُ به الطبيب إلىٰ شفاء المريض.

---

(١) **أحرىٰ**: أجدر. «مختار الصحاح». مادة (حري).

عذرْتكم، لو أن هؤلاء الذين تُريقون دماءهم في بلادكم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم، أو ذاهبين في معاشرتكم والكونِ معكم مذاهبَ سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، أمَّا والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعفُ من أن يمدُّوا إليكم يد سوء أو يبتدروكم ببادرةِ شرٍّ؛ فلا عذر لكم.

عذرْتكم بعضَ العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يَبلغوا سنَّ الحُلم، والنساءَ الضعيفات اللواتي لا يُحسنَّ في هذه الحياة أخذًا ولا ردًّا، والشيوخَ الزاحفين إلىٰ القبور قبل أن تزحَفوا إليهم وتتعجلوا قضاء الله فيهم.

أمَّا وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب، فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون.

مِنْ أيِّ صخرة من الصخور أو هضْبةٍ من هَضَباتِ الجبال نَحتُّم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم، والتي لا تروعها أنَّات الثَّكالىٰ، ولا تحرِّكها رَنَّاتُ الأيامىٰ؟!

من أيِّ نوع من أنواع الأحجار صيغتْ هذه العيون التي تستطيعون أن تَرَوا بها منظر الطفل الصغير، والنارُ تأكل أطرافهُ وتتمشَّىٰ في أحشائِه

وبين جوانحه، فتصرخ أمه، وأمُّه عاجزة عن معونته لأن النار لم تترك لها يدًا تحرِّكها، ولا قدمًا تمشي عليها؟!

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظَّفر والانتصار لأني أعتقد أن قتل الضعفاء جبنٌ وعجزٌ ولؤم ودناءة، وأنَّ سفكَ الدماء بغير ذنب ولا جريرةٍ وحشيةٌ وهمجية أحرىٰ أن يُعزَّىٰ صاحبها فيها، لا أن يُهنَّأَ بها.

أيها المسلمون؛ اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءَت لكُم شراستكم ووحشيتكم، ولكن حذارِ أن تذكروا اسم الله علىٰ هذه الذبائح البشرية، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجلُّ من أن يأمرَ بقتل الأبرياء، أو يرضَىٰ باستضعاف الضُّعفاء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

البخيل

سألني سائل: «ماذا يستفيد الإنسان من بخله حتىٰ علىٰ نفسه؟ وأيُّ غرض يرمي إليه من ذلك؟» فأجبتهُ بهذا الجواب:

البخلُ إحدىٰ الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفوًا بدون رويَّة ولا اختيار، فكما لا يُسألُ المسرف عن سبب إسرافه، والغاضبُ عن غايته من غضبه، والحاسد عن غرضه من حسده، كذلك لا يُسألُ البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه، فكثيرًا ما تَعرض لأرْباب هذه الملكاتِ عوارضُ تنزع بهم إلىٰ الرغبة عن التخلي عنها حينًا، فلا يجدون إلىٰ ذلك سبيلًا، لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلةً لا تُزعجها الرغبات، ولا تُزعزعها الإرادات. وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلىٰ بذل شيءٍ من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض علىٰ شيءٍ مما فيه، أحسَّ كأن تيارًا كهربائيًّا قد سَرىٰ من نفسه إلىٰ يده، فتشنَّجت[1] أعصابها وأعيَت أنامِلها علىٰ الالتواء والانثناء، فأخرَجها صُفرًا كما أدخلها، بودِّه أن لا يفعلَ لولا أن للغريزة قوةً فوق

(١) التَّشَنُّج: تقبُّض عضلي عنيف غير إرادي. «المعجم الوسيط» مادة (شنج).

قوة الإرادة، وسلطانًا تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازعٌ[١] من القانون يَزعها؛ فإنه يكسر شِرَّتها[٢] أحيانًا، وإن لم ينتزعها انتزاعًا.

ويُحكىٰ أن شحيحًا تحركت في قلبه يومًا الشفقة علىٰ ابنتِهِ الجائعةِ العارية، فأراد نفسَه علىٰ أن يبذل لها شيئًا من ماله فتأبَّت[٣] عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يَسدُّ خَلَّتها من حيث لا يُعلمهُ بذلك، ولا يدعه ينتبه لشيءٍ منه علمًا بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص البخلاء وأطوارهمْ وأخلاقهم وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع:

الأول – الوراثة: وهي إن كانت سببًا ضعيفًا لما يَعرض للأخلاق الموروثة أحيانًا من التغير والانقلاب، بمعاشرة المتصفين بأضدادها

---

(١) **وازع**: زاجر. «القاموس المحيط» مادة (وزع).

(٢) **شرتها**: حدثتها. «المعجم الوسيط» مادة (شرر).

(٣) **فتأبت عليه**: كرهته ولم ترضه. «المعجم الوسيط» مادة (أبي).

والتأثر بمخالطتهم إلا أنها كثيرًا ما تنمو وتتجسم، إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسدُّ سبيلها ويقف في طريق نمائها.

الثاني – التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحَّاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية علىٰ نفسه، أخذ إخذهم في الحرص، وتخلَّق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسانٍ أو استهجان، كأنما هي عدْوَىٰ الأمراض التي تسري إلىٰ الإنسان من حيث لا يدري بها، ولا يشعر بسريانها. ويُحكىٰ أن رجلًا دخل منزلًا يُعرف أهله بالشحِّ والحرص، فرأىٰ طفلًا صغيرًا في يده ليمونة صغيرة، فسأله إياها، فأجابه الطفل: «إن يدك لا تسعها!».

الثالث – سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذتْ عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذَها؛ رسخ في قلبه الإيمان بأن لله ﷻ عينًا ساهرة علىٰ عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يُغفِل شأنهم وَيكلهم إلىٰ أنفسهم، ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلَجُّ به الحرص علىٰ الجمع، ولا يزعجهُ الخوف من البذل، وعلىٰ العكس منه ضعيفُ الإيمان ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسِّم الحظوظ والجدود، فهو لسوء ظنه به لا يزال الخوف من الفقر نُصبَ عينيه حتىٰ يصيرَ البخل ملكة راسخة فيه.

الرابع – النَّكبات: كثيرًا ما تحلُّ بالإنسان نكبات تصْهَرُ قلبه وتُزعج غريزته عن مستقرها، ومن ذلك النكباتُ التي يكون مرجعها قلةَ المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرىٰ أنه لولا ضيقُ ذات يده لما وقع فيها، فلا يكون له فكر بعد ذلك إلا في التوقي من الوقوع في أمثالها، فكلما تمثلتْ له نكبتُه لجَّ به الحرص وأغرق[١] في المنع حتىٰ يصير ذلك غريزة فيه وخلقًا له. ومن ذلك جديدُ النعمة الذي ذاق مرارة الفقر برهة من الزمان وتجسمت[٢] آلامه في نظره، فإنه مهما حسنت حاله وأقبلت عليه الدنيا بوجهها وفاضت خزائنه بالذهب، لا تذهب من فمه تلك المرارة ولا تضيع من ذاكرته آلامُها، فلا يزال يملكُ قلبَه وَسواسٌ مقلِق يخيِّل إليه ما لا يُتخيَّل ويريه ما لا يرىٰ، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل، فهاله منظره وذهب الخوف الشديد برشده وطار بطائر عقْله، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس – اللؤم: فإنَّ النفس إذا خبثت طينتُها ولؤُم طبعها؛ كان من أخص صفاتها الحقدُ علىٰ الوجود بأجمعه وبغضُ الخير للناس قاطبةً، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألمًا علىٰ ألم، وحسرة فوق حسرة،

---

(١) **أغرق**: جاوز الحد وبالغ. «المعجم الوسيط» مادة (غرق).

(٢) **تجسَّمت**: عظمت. «مختار الصحاح» مادة (جسم).

وهو لو استطاع أن يكفَّ عنهم سارية[١] السماء ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل؟!

السادس – سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عاليَ الهمة طموحًا إلىٰ المعالي مُحبًّا للذِّكر الحسن والثناء الجميل؛ سهل عليه أن يبذلَ في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه. وحبُّ المجدِ أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصَيَّر نفوس الشجعان نهبًا مقسَّمًا بين شفرات السيوف وأسنة الرماح؛ طلبًا لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود، فمن لساقطِ الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلىٰ بذل المال علىٰ مكانته من قلبه وامتزاج حبه به! أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته؟ أم خوفُ المذمة وهو لا يتألم منها ولا يتذوق مرارتها؟ أم سعادةُ الحياة وسعادة الممات، وهو لا يفهم للسعادة معنىٰ غيرَ ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع علىٰ لسان الحُطيئة من المكارم بلقمة يمضغها، وحلَّة يلبسها؟!

السابع – فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيرًا من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه، لا لفائدة يرجونها أو خير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال، وذو المال في نظرهم أحقُّ الناس

---

(١) **سارية السماء**: المطرة بالليل. «المعجم الوسيط» مادة (سري).

بالمحبة والإخلاص والإجلال والإعظام، وإنْ لم يحصلوا منه علىٰ طائل[١]. فلو أنهم عبدوا الله ﷻ بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقرَّبين. فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين، وليس بينه وبينهم إلا الحرصُ الذي لا يتكلفه ولا يتعمَّل له، والذي هو أشهىٰ الأشياء وأكثرها ملاءمة لفطرته، ليزداد شرفًا وعزًّا كلما ازداد بالحرص ثراء ووفرًا؟ ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: «يا بَنيَّ، لأن يعلمَ الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظمُ له في أعينهم من أن يقسمها فيهم!» وقال رجل لآخر: «يا بخيلُ!» فقال له: «لا أحرمني الله بركة هذا الاسم، فإني لا أكون بخيلًا إلا إذا كنتُ غنيًّا، فسمِّ لي المال ولقِّبني بما تشاء!».

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل، فإنْ أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله حتىٰ علىٰ نفسه، وفرضنا البخيل مختارًا فيما يفعل غير مساق إلىٰ هذا المورد الوبيل[٢] بسائق الغريزة الفاسدة، كان منال النجم أقربَ من تطبيق حالِهِ علىٰ قاعدة من قواعد العقل، لأن الله تعالىٰ خلق الإنسان وركَّب فيه

(١) **طائل**: نفع وفائدة. «المعجم الوسيط» مادة (طول).

(٢) **الوبيل**: الشديد. «مختار الصحاح» مادة (وبل).

رغبات وشهوات مختلفة، بعضها نفسيّ والآخر جسديّ. فهو لا يزال يتطلبها ما لم يَعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشَّملة[١] والمضغة[٢]، والجُرعة[٣] والظُّلة[٤]، ويحمل في كل لحظة أشدَّ الآلام من مقاومة نزوات نفسه إلىٰ ميولها ورغباتها. لا يمكن أن يُحمل حاله علىٰ محمِل العجز لأنه قادر، ولا علىٰ الزهد لأنه ما زهِد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع، ولا علىٰ الخوف من الفقر لأن عنده من المال ما يُفني الأعمار، فهيهاتَ أن يُفنيَه عمر واحد! ولا علىٰ الرغبة في سعادةِ الذريَّة لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيدَ علىٰ رغبته في أن يراه شريكًا له في سعادته، فأما أن يَشقىٰ هو في حياته، ليَسعدَ ولده بعد مماته، فمما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم. فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلىٰ علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنىٰ الجنون حتىٰ لا يكون مقصورًا علىٰ المعربدين والهاذين، بل يكون شاملًا للعابثين، الذين لا يدرون ما يأخذون وما يتركون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم واختيارهم آلامًا نفسية هي أشدُّ مما يجلبه المجانين علىٰ أنفسهم

(١) **الشملة**: كساء من صوف أو شعر يُتغطَّىٰ به ويُتلفَّف به. «المعجم الوسيط» مادة (شمل).

(٢) **المُضغة**: قطعة لحم. «مختار الصحاح» مادة (مضغ).

(٣) **الجُرعة**: حُسوة من الماء ملءُ الفم. «المعجم الوسيط» مادة (جرع).

(٤) **الظُّلة**: ما أظلك من شجر وغيره، أو: المِظَلَّة. «المعجم الوسيط» مادة (ظلل).

بمناطحة الجدران، ومطاردة الصِّبيان، كما نتوسل إلىٰ علماء الشرائع أن يضعوا قانونًا لاستخراج المال من خزائن المقترين، كما وضعوا قانونًا لحفظ المال في صَناديق المبذرين، فإنَّ تبذير المال يضرُّ قومًا وينفع أقوامًا، أما حبسُه فيضرُّ صاحبه ويضرُّ معه الناس أجمعين.



البعوض

جلست ليلة أمس إلىٰ مكتبتي، وعلَّقت قلمي بين أصابعي وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه، وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي؛ أنني لا أميل إلىٰ الكتابة في بياض النهار ولا أحبُّ أن أخطَّ حرفًا علىٰ ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه.

ولا يَظن المتفلسفون في اكتناه الحقائق والمولَعون بالصناعة اللفظية، والأنواع البديعية، أنني أريد بذلك مراعاةَ النظير بين سواد المِداد[1] وسواد الظلام، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلقَ أشعته إلىٰ سماء الخيال، فكلُّ ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو أدرىٰ بدخيلة نفسي مني، وكل ما في المسألة أن هذه عادتي، وتلك حكايتي، وكفىٰ.

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتىٰ شَعرت بطنين البعوض في أذني، ثم أحسستُ بلذعاتِه في يدي فَتفرَّق من ذهني ما كان مجتمعًا، وتجمَّع من همي ما كان مفترقًا، ولم أرَ بُدًّا من إلقاء القلم وإعداد العُدَّة لمقاومة هذا الزائر الثقيل.

---

(١) **المِداد**: سائل يكتب به. «المعجم الوسيط» مادة (مدد).

طاردته بالمِذَبَّة[١] فما أجدىٰ ذلك نفعًا؛ لأنه علىٰ الطيران أقوىٰ من يميني علىٰ المطاردة، وفتحتُ النوافذ لأخرجَ ما كان داخلًا، فدخل ما كان خارجًا، وحاولتُ قتله فوجدته متفرقًا، ولو كان مجتمعًا في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة، ولم أرَ في حياتي أمة ينفعها تفرقُها ويؤذيها تجمعُها غيرَ أمة البعوض! فما أضعفَ هذا الإنسانَ! وما أضلَّ عقلَه في اغتراره بقوَّته، واعتدادِه بنفسه، واعتقاده أن في يدِه زمامَ الكائنات يُصرِّفها كيف يشاء، ويسيِّرها كما يهوىٰ، وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ويأتي لهُ بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يُرسل أشعة عقله ويبتعثَ عزيمته، ويقتدح فكرته!

يزعم ذلك وهو يعلمُ أنه أضعف من أن يحتال لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسمًا وعقلًا، وأدناها قيمة وشأنًا، بيدَ أنهُ[٢] يعلم ذلك بلسانه وفي فَلَتات وهمه، ولو علِمهُ علمًا يتغلغل في نفسه، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غُلَوائه، وخفَّض من كبريائه، وعلم علمَ اليقين أن الإنسان العاقل والحيوان الملهم والنبات النامي والجماد سواءٌ بين يدي القوة الإلهية الكبرىٰ التي لا ينفع معها حول ولا قوة.

---

(١) **المِذبة**: ما يدفع به الذباب. «المعجم الوسيط» مادة (ذبب).

(٢) **بيد أنه**: غير أنه. «المعجم الوسيط» مادة (بيد).

علمتُ أني عَييتُ[١] بأمر هذا الحيوان فلذْتُ[٢] بجانب الصبر، والصبرُ كما يعلم إخواننا الصابرون حجَّةُ العاجز، وحيلة الضعيف وأيسرُ ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت في نفسي: «لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليهِ قصتي، وشرحت له عذري، وسألتهُ أن يَمنحني ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حلٍّ من جسمي ودمي يَنزل منهما حيث يشاء، ويمتص منهما ما يشاء، ولكنه ويا للأسف! لا يسمع شَكاتي ولا يرحم ضَراعتي ولا يفهم معنىٰ الرحمة ولا يعرف قيمة المروءَة لأنه ليس بإِنسان».

أحسَبُ أن لذعاتِ البعوض قد أخذت مأخذَها من عقلي وفهمي، وأني قد بدأتُ أهذي هذيانَ[٣] المحموم! فمن أينَ لي أنْ لو كان البعوض إنسانًا كان يسمع شَكاتي، ويكشف ظُلامتي، أو يفهم معنىٰ الرحمة، ويعرف قيمة المروءة؟! ومتىٰ كان الإنسان أحسن حالًا من البعوض وأرحم منه قلبًا وأشرف غاية فأتمنىٰ أن لو كان مكانَه؟! بل من أين لي أن

(١) **عييت**: عجزت. «القاموس المحيط» مادة (عيي).

(٢) **فلُذت**: لجأت. «المعجم الوسيط» مادة (لوذ).

(٣) **الهذيان**: اضطراب عقلي مؤقت يتميز باختلاط أحوال الوعي. «المعجم الوسيط» مادة (هذي).

هذا الذي أحسَبه بعوضًا ليس بإنسان تقمَّص البعوضَ وتمثل لي في جسمه الصغير وجَناحه الرقيق؟! وأيُّ غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوضُ سواءً في حبِّ الشر والميل إلىٰ الأذىٰ؟! وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية والصفات المقوِّمة للماهية.

أيُّ قيمة لما يمتصه البعوض مجتمعًا من جسم الإنسان في جانب ما يمتصهُ القاتل منفردًا من جسم المقتول؟!

إن البعوض في امتصاصه الدَّمَ من الجسم أقلُّ من القاتل ضررًا وأشرفُ غاية وأجمل مقصدًا، لأنه إن آذىٰ الجسم فقد أبقىٰ علىٰ الحياة، ولأنه يطلب عيشَه وهذا طريقُه الطبيعي لا يعرف سواه، ولا يستطيع أن يدبِّر لنفسه غيره، ولو استطاع لعافت نفسهُ أن يكون كالإنسان يتطوع للشرِّ، ويتعبَّد بالضُّرِّ.

إني وجدت بين الإنسان والبعوض شبهًا قريبًا في صفات كثيرة أنا ذاكرٌ لك طرفًا منها وتاركٌ لفطنتك الباقي:

البعوض يمتصُّ من الدم فوق ما يستطيع احتماله، فلا يزال يشرب حتىٰ يمتلئ فينفجر، فهو يطلب الحياة من طريق الموت، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك، وهو أشبه شيء بشارب الخمر

يتناول الكأس الأولىٰ منها لأنه يرىٰ فيها وجه سروره وصورةَ سعادتهِ، فتُطمعُه الأولىٰ في الثانية، والثانيةُ في الثالثة، ثم لا يزال يُلحُّ بالشراب علىٰ نفسه حتىٰ يُتلفَها ويُودي بها من حيث يظن أنه يُنعشها ويَجلب إليها سرورها وهناءها.

البعوض سيِّئ التصرف في طلب العيش؛ لأنه لا يسقط علىٰ الجسم إلا بعد أن يَدُلَّ علىٰ نفسه بطنينه وضوضائه، فيأخذ الجالس منه حِذْره ويدفعهُ عن مطلبه أو يقتله قبل البلوغ إليه. فمثَلُه في ذلك مثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم، غير أنهم لا يكتمونها، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم، ولا يبتغون الوسيلة إليها بين الصُّراخ والضجيج، ولا يمسكون بالحلْقة الأولىٰ من سلسلتها حتىٰ يملأوا الخافقين[1] بذكرها، ويُشهدوا المَلأ الأعلىٰ والأدنىٰ عليها، وهناك يُدرك عدوُّهم مقاصدَهم فيُعدُّ لها عُدَّتها ويتلمَّسُ وجه الحيلة في إفسادها عليهم، هادئًا ساكنًا من حيث لا يشعرون.

البعوض خفيف في وطأته، ثقيلٌ في لذعته، فهو كذلك الصاحبِ الذي يسرُّك منظَرُه، ويسوؤك مَخبرُهُ، يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال، عذوبة وصفاء، والسحر الحلال، جمالًا وبهاء، وبين جنبيه في مكان

---

(١) **الخَافِقَيْن**: أُفُق المشرق والمغرب. «المعجم الوسيط» مادة (خفق).

القلب صخرةٌ لا تنفُذها أشعة الحب، ولا يتسرب إليها ماء الوفاء. يقول لك إني أحبك ليَغلبك علىٰ قلبك، ويملك عليك نفسَك، فإن تَمَّ له ما أراد سلبَك مالَك إن كنت من ذوي المال، أو استخدم جاهك إن كنتَ من ذوي الجاه، فإن لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير في طريق يُسقط مروءتك ويَثلِم شرفك، فإنْ فاتَه ما يَشفي به داء بِطنته، لا يفوته ما يطفئُ به نار حقده وحسده.

لا يزال البعوض مُلحًّا في مهاجمتي، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد أكثرَ مما كتبت، والسلام.



الجزع

«يا صاحب النظرات:

لي صديق سقط في امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثَّر فيه ذلك السقوط تأثيرًا كبيرًا، فهو لا ينفكُّ باكيًا متألمًا حتىٰ أصبحنا نخاف عليه الجنون، وكلما عزَّيناه عن مصابه يقول: «كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي؟!» فهل لك أيها السيدُ أن تعالج نفسه بنظرة من نَظَراتك التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟».

«حقوقيٌّ»

ليست المسألةُ مسألةَ صديقك وحدَه بل مسألة الساقطين أجمعين، فإنَّ المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوهًا قد نسج الحزن عليها غَبرة سوداءَ، وجفونًا تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرّجراج، حتىٰ ليخيّل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم، أو فاجعةً من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتُها فأثكلتهم ذخائرَ نفوسهم، وجواهر عقولهم، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سدًّا لا تنفذه المعاول، ولا تنال من أيده[1] الزلازل.

---

(١) أيده: قوته. «المعجم الوسيط» مادة (يدي).

خفِّض عليك قليلًا أيُّها الطالب، فالأمر أهونُ مما تَظُن وأصغرُ مما تقدِّر، واعلم – وما أحسبك إلا عالمًا – أنك لم تسقط من قِمَّة جبل شامخ إلىٰ سفح متحجِّر، فتبكيَ علىٰ شَظِيَّة من شظايا رأسك، أو دم مسفوح تدفق من بين لَحييك.

إنك قد سعيت إلىٰ غرض فإنْ كنت هيأتَ له أسبابه، وأعددت لهُ عدَّته، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله، فقد أعذرتَ إلىٰ الله وإلىٰ الناس وإلىٰ نفسك، فحريٌّ بك أن لا تحزنَ علىٰ مُصاب لم يكن أثرًا من آثار يديك، ولا جنايةً من جنايات نفسك عليك. وإن كنت قصَّرت في تلمُّس أسبابه، ومشيت في سبيلِهِ مشية الظالع[١] المتقاعس[٢]، فما حزنك علىٰ فوات غرض كان جديرًا بك أن تترقَّبَ فواتَهُ قبل وقت فواته! وما بكاؤك علىٰ مصاب كان خيرًا لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه!

ما لك تبكي بكاءَ الواثق بمواتاة الأيَّام ومطاوعة الأقدار! فهل تستطيع أن تُبرز لنا صورة العهد الذي أخذتَه علىٰ الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي، وعلىٰ الفلك أن لا يدور إلا بسعدك، ولا يجريَ إلا بجَدِّك، وعلىٰ القلم أن لا يكتب في لوْحه إلا ما دللته عليه، وأوحيت به إليه؟!

---

(١) **الظالع**: عرج وغمز في مشيه. «لسان العرب» مادة (ظلع).

(٢) **المتقاعس**: المتأخِّر. «المعجم الوسيط» مادة (قعس).

لا تجعل لليأس سبيلًا إلىٰ نفسك، فلعل الأمل يعوض عليك في غدك ما خسِرتَ في أمسك، وامْض لشأنك ولا تلتفت إلىٰ ما وراءك، فإن تمَّ لك في عامك المقبل من طَلِبتك ما أردت فذاك، أو لا فما فقدت إذا فقدت إلا ورقةً كان كلُّ ما تستفيده منها أن تشتريَ بها قيدًا لرجلك، وغُلًّا[١] لعنقك، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلِّين بأنفسهم، يسومُك من الذل والخَسْف ما لا يحتمله الأَسَراءُ في سجون الآسرين.

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتدادَ، وإكبارك إياها هذا الإكبار، دليل علىٰ أنك كنت تريد أن تجعلها منتهىٰ أملك وغاية همَّتك، وأنك لا ترىٰ بعدها مزيدًا من الكمال لمستزيد. فإنْ صدقَتْ فِراستي[٢] فيك، فاعلم أن الله قد خار[٣] لك في هذا المصير وساق إليك من الخير ما لا تَعرف السبيل إليه، إنه ما خيَّب رجاءك في هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالًا معلومًا، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق إلا لتسعىٰ وراء الشهادة المكتوبة في صفحات القلوب.

---

(١) **غُلًّا**: طوق من حديد أو جلد. «المعجم الوسيط» مادة (غلل).

(٢) **الفِراسة**: المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها. «المعجم الوسيط» مادة (فرس).

(٣) **خار لك في الأمر**: جعل لك فيه خيرًا. «المعجم الوسيط» مادة (خور).

إن كنت تبكي علىٰ الشرف فبابُ الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيه ولا حاجب لها عليه، وما هو إلا أن تجدَّ في التزيُّد من العلم والمعرفة واستكمالِ ما يَنقصك من الفضائل النفسية، فإذا أنت شريفٌ في نفسك وفي نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب، ولا حيَّا الله شرفًا يحيا بورقة ويموت بأخرىٰ، ولا مجدًا تأتي به قعدةٌ وتذهب به قَوْمة. وإن كنت تبكي علىٰ العيش ففي أيِّ كتاب من كتب الله المُنزَّلة قرأت أن أرزاقه وقفٌ علىٰ الحاكمين، وحبائسُ علىٰ المستخدَمين، وأنَّه لا ينفق درهمًا واحدًا من خزائنه إلا إذا جاءته «حولة» بتوقيع أمير، أو إشارة وزير؟!

أيُّها الطالب؛ قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إنَّ الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه، وإنَّ الذي صوَّر لي أعضائي لم يحُلْ بيني وبين الذِّهاب بها إلىٰ ما خُلقت له، وإنَّ الذي خلقني سوف يهديني فهو الرزاق ذو القوة المتين.

الاتِّحاد

أَلَمَّتْ بي كُربة من تلك الكُرَب التي لا تزال تختلف إليَّ كما تختلف إلىٰ المحموم نوباتهُ حينًا بعد حين.

كربة ما كفاها أنها حبست قلمي عن الكتابة، وفكري عن الحركة حتىٰ حالت بيني وبين مطالعة الصُّحف، والإشراف علىٰ الأمة من نوافذها برهة من الزمان، ثم أدركتني رحمة الله فاستفقتُ فإذا صخَبٌ ولجَب، وضجيج وضوضاء، وأصوات ملءُ الفضاء، وكِظَّة الأرض والسماء، فما هو إلا سؤال السائل وإجابةُ المجيب حتىٰ عرفتُ كل شيءٍ.

عرفت أن الأمة المصرية في موقف من أحرج مواقفها، ومسلك من أضلِّ مسالكها، وأنها بين ماضِغَي الأسد وفوق رَوْق الظبي، وأن حوادث الدهر وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلَها، والتفَّت حولها التفاف الحية بالعنق، وأحاطت بها إحاطةَ الجامعة باليد والقيدِ بالرجل، فمثلها كمثل رجل أحاطت النار ببيته من كل جانب وعلقت بسقوفه وجدرانه، ونوافذه وأبوابه، فما هو بناج إن أراد نجاءً، ولا بباق إن أراد بقاء، بل مثلها كمثل آخرَ ضلَّ به سبيله، واشتبهت عليه مسالكه، في ليلة داجية مدلهمَّة(١) قد غابت كواكبها،

---

(١) **مُدْلَهِمَّة**: مظلمة. «مختار الصحاح» مادة (دلهم).

واستسرَّت[١] نجومها، فوقف وقفة الحائر المضطرب يسمع العواء والزئير، والفحيح والصَّفير، فلا يعلم أيقدم فيزداد ضلالًا؟ أم يُحجم فلا يجد مجالًا؟ أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد؟

عرفت أن الأمة المصرية أصبحت لا تدري ما تريد، ولا ما يراد بها، ولا تجد من يرد إليها رشدها، ولا يمدُّ يده إليها، ليأخذَ بيدها في هذا الظلام الحالك، والليل المدلهمَّ.

كثر رؤساؤها، وتعددت قادتها، وتنوعت مذاهبهم، واختلفت طرقهم، واستحكمت حلقات البأس بينهم، فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الأمة علىٰ شيءٍ إلا علىٰ وضع حبل متين في عنقها، قد أخذ كل منهم بطرف من طرفيه يجذبه إليه جذبة المستقتِل المستميت حتىٰ بَحَّ صوتها، وضاق صدرها، وتعلقت أنفاسها، وجحظت مقلتاها، وجفَّ ريقها، وتحجَّر لسانها، وهم ينظرون إليها نظرة المداعب اللاعب، ولا أحسب أنهم تاركوها حتىٰ يفرقوا بين الرأس والجسد فراقًا لا لقاء بينهما من بعده.

لو بُعث أرسطو واضع علم المنطق من قبره، وأراد أن يضع لهذه الأمة حدًّا تامًّا جامعًا مانعًا؛ لما استطاع إلا أن يضع لها هذا الحد: «الأمَّة

(١) **استسرَّت**: استترت وخفيت. «المعجم الوسيط» مادة (سرر).

المصرية التي تصدِّق كل ما يقال». ولقد عرَفَ منها كلٌّ أولئك اللاعبين بها والعابثين بميولها وأهوائها هذا الخُلُقَ وتلك الطبيعةَ، وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد، فنَفذوا من تلك الآذان اللينة إلىٰ تلك القلوب الطيبة، فما بلغوها حتىٰ أخذوا يلعبون بها لعب الصبي بكُرته، ويتلقفونها واحدًا بعد واحد، فهي لا ترتفع حتىٰ تتناولها الصوالجةُ، ولا تستقرُّ حتىٰ تدفعها الأقدام. كلٌّ يزعم أنه صديقها، وكل يزعم أنه يدلها علىٰ عدوها، والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء، وخصومها أكثر من الخصماء، وأن السماء بصواعقها ورجومها، والأرض بزلازلها وبراكينها، أعجز من أن تبلغ منها ما بلغوه، أو تجني عليها ما جنوه! فيأيُّها الرؤساء والزعماء؛ أيَّ خير تطلبون لهذه الأمة بعد أن فرَّقتموها شيعًا، وصيرتموها أحزابًا، وقطعتم أوصالها ووشائجها، وألقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل وولده، والرجل وأخيه، والجار وجاره، والصديق وصديقه، حتىٰ ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضىٰ لسبيله، وحتىٰ تناكرت الوجوه، واستوحشت النفوس، وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب، لا ترىٰ فيها إلا نابًا يقرع نابًا، وعينًا تنظر شزْرًا، وصدرًا يغلي حقدًا، وقلبًا يخفق خوفًا وحذرًا.

كل غرض تزعمون أنكم تسعون إليه لإبلاغ هذه الأمة أمنيتها من السعادة والهناء، لا قيمة له بعد ما أضعتم عليها غرضَها من الاتحاد

والائتلاف، بل لا سبيل لها إلىٰ بلوغ غرض من أغراضها إلا إذا كان الاتحاد قائدها إليه، ودليلَها عليه.

ليس هذا التنافرُ بين أفراد الأمة والتفرُّق بين جماعاتها حالةً من الحالات الطبيعية التي لا بد منها، ولا مناصَ عنها، أو حادثةً من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس، وتسكن إليها القلوب، وتطرِف عليها العيون إجلالًا للسماء، ورضاء للقضاء، وإنَّما هي صنعة أيديكم، وجناية أقلامكم، ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها، وخليتم بينها وبين فطرتها، ما كان يخطِر لها ببال أن تتعادىٰ وأن تتباغض، ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدِّثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب.

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الأمة المصرية عن أن يفرق بين أوصالهم، وأن يحُلَّ جامعتها، وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله في أمثالها من الجوامع الأخرىٰ، فكان حريًّا أن يعجز الاختلاف السياسي، عما عجز عنه الاختلاف الديني والجنسي، لولا أنكم كبَّرتم ما صغُر من هذا الاختلاف وعظَّمتم منه ما حقر، وألححتم عليه إلحاحًا شديدًا حتىٰ حولتموه إلىٰ فتنة شنعاء، وغارة شعواء[١].

---

(١) **الشَّعواء**: المنتشرة المتفرقة الفاشلة. «المعجم الوسيط» مادة (شعو).

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الأمَّة ولا شفقة عليها، فإنَّ قلوبًا مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسىٰ من أن ينفذ فيها سيف الضارب، أو قلمُ الكاتب، وإنما أريد أن أحدث الأمَّة المصرية بكلمة، لا أريد منها أن تأخذها مني عفوًا ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها، وعرضِها علىٰ عقلها، فذلك ما لا أحبه لها، بل ذلك ما أنقِمهُ منها.

أيها المصريون؛ إني لأكتبُ إليكم كلمتي هذه وليس علىٰ وجه الأرض، ولا تحت أديم السماء أمةٌ أحبُّ إليَّ منكم، وحسبكم من ذلك الحب أني أسمع بالكارثة تحلُّ بكم، والنازلة تنال منكم، فيَشغَلُني عن أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي، وتجود عينيَّ في سبيلكم بما لا تجود بأكثر منه في أحرج مواقفها، وأصعب مَواطنها.

بهذا القلم الذي يستمدُّ مِداده من هذا القلب المخلص إليكم، أدعوكم إلىٰ الاتحاد والائتلاف وأن تتبايعوا بين يدي الله والوطن علىٰ الحبِّ والوُدِّ والصفاء والإخلاص، وأن لا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذًا ينفذون منه إلىٰ قلوبكم، فإن طاف بكم طائفٌ من شياطينهم فأعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم، واحذروا أن تكونوا سَيِّقة لرئيس أو لُعبة في يد زعيم، وليكن كل منكم زعيم نفسه، ومسترشد قلبه، فنفوسكم أرحم بكم، وقلوبكم أصدق في نصيحتكم، فإن فعلتم ذلك نجوتم من ذل

الانقياد، وسلكتم سبيل الرشاد، وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترىٰ رأيًا واحدًا وتُحسُّ إحساسًا واحدًا.

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهمٌ من الأوهام الكاذبة، وخيال من الخيالات الباطلة، ولو رجعتم إلىٰ أنفسكم، وأصغيتم إلىٰ أصوات قلوبكم، لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه علىٰ حب الوطن وإرادة الخير له.

سدَّد الله طريقكم، وأنار لكم سبيلكم، وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرِّج كُربتكم، ويكشف غُمتكم، والسلام.

النُّبوغ

من العجز أن يزدريَ المرء نفسه فلا يقيم لها وزنًا، وأن ينظر إلىٰ مَنْ هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلىٰ الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا، خيرٌ ممن يخطئ في تقديرها متدلِّيًا، فإنَّ الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبىٰ لها من أحواله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيرًا في علمه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهمته، صغيرًا في ميوله وأهوائه، صغيرًا في جميع شؤونه وأعماله، فإنْ عظمت نفسه عظم في جانبها كل ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولدَه وكان نجيبًا: «أيّ غاية تطلب في حياتك يا بُنيَّ؟ وأيّ رجل من عظماء الرجال تحبُّ أن تكونه؟» فأجابه: «أحبُّ أن أكون مثلك». فقال: «ويحك يا بُنيَّ لقد صغُرت نفسك، وسقَطتْ همتك، فلتبكِ علىٰ عقلك البواكي! لقد قدَّرتُ لنفسي يا بنيَّ في مبدإ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب، فما زلت أجدُّ وأكدح حتىٰ بلغت المنزلةَ التي تراها، وبيني وبين عليٍّ ما تَعلم من الشَّأو[1] البعيد

(١) **الشأو**: الغاية والأمد. «القاموس المحيط» مادة (شأو).

والمدىٰ المستحيل، فهل يسرُّك – وقد طلبتَ منزلتي – أن يكون ما بينك وبيني من المدىٰ مثلَ ما بيني وبين عليٍّ؟».

كثيرًا ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصِغر النفس، وبين الكبر وعلوِّ الهمة، فيحسبون المتذللَ المتملق الدنيء متواضعًا، ويسمُّون الرجل إذا ترفَّع بنفسه عن الدنايا وعَرفَ حقيقةَ منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً، وما التواضعُ إلا الأدب، ولا الكِبرُ إلا سوءُ الأدب، فالرجل الذي يلقاك متبسِّمًا متهللًا، ويُقبِل عليك بوجههِ ويُصغي إليك إذا حدثْتَه، ويَزورك مهنئًا ومعزِّيًا، ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمُها، لأنه وجد التواضع أليقَ بعظَمة نفسه فتواضع، والأدبَ أرفعَ لشأنه فتأدب.

فتًىٰ عذب الروح لا من غَضاضة
ولكنَّ كِبرًا أن يقالَ به كِبْر

فإن بلغ الذُّلُّ بالرجل ذي الفضل أن ينكُس رأسه للكبراء ويترامىٰ علىٰ أيديهم وأقدامهم لثمًا وتقبيلًا، ويتبذَّل بمخالطة السُّوقة والغوغاء[١] بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ليكون متواضعًا، ويُبصبصُ[٢] برأسه بصبصةَ

(١) **الغوغاء**: السَّفَلة من الناس لكثرة لغطهم وصياحهم. «المعجم الوسيط» مادة (غوغ).

(٢) **يبصبص**: يحرِّك. «لسان العرب» مادة (بصص).

الكلب بذنبه ليكون متأدبًا، ويجلس في مدارج الطرق جلسةَ البائس المتسول، ويمشي مِشيةَ الخائف المُبلَس، فاعلم أنه صغيرُ النفس ساقط الهمة لا متواضعٌ ولا متأدب.

إنَّ علوَّ الهمة إذا لم يُخالطه كبر يُزري به ويدعو صاحبَه إلىٰ التنطُّع[١] وسوء العشرةِ؛ كان أحسن ذريعة يتذرَّع بها الإنسانُ إلىٰ النبوغ في هذه الحياة، وليس في الناس من هو أحوجُ إلىٰ عُلوِّ الهمة من طالب العلم، ولأن حاجة الأمَّة إلىٰ نبوغه أكثرُ من حاجتها إلىٰ نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنةٌ من حسناته، وأثرٌ من آثاره، بل هو البحرُ الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغُدران.

فيا طالبَ العلم كن عاليَ الهمة، ولا يكن نظرُك في تاريخ عظماء الرجال نظرًا يَبعث في قلبك الرَّهبة والهيبة، فتتضاءلَ وتتصاغرَ كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجن! وحذار أن يملك اليأسُ عليك قوَّتكَ وشجاعتك، فتستسلمَ استسلامَ العاجز الضعيف وتقولَ: من لي بِسُلَّم أصعدُ عليه إلىٰ السماء حتىٰ أصل إلىٰ قبة الفلك فأجالسَ فيها عظماء الرجال.

---

(١) **تنطع**: غالىٰ وتكلَّف فيه. «المعجم الوسيط» مادة (نطع).

يا طالب العلم؛ أنت لا تحتاج – في بلوغك الغايةَ التي بلغها النابغون من قبلك – إلىٰ خَلق غير خلقك، وجوٍّ غير جوِّك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك، ولكنك في حجة إلىٰ نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسعَ من رُقعة الأرض وأرحبَ من صدر الحليم، ولا يقعدنَّ بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسَّماجة، فنعم الخُلقُ هي إن كانت السبيلَ إلىٰ بلوغ الغاية، فامْض علىٰ وجهكَ ودعْهم في غيهم(١) يعمهون.

جَناحان عظيمان يطير بهما المتعلِّم إلىٰ سماء المجد والشرف، علوُّ الهمة، والفهم في العلم، أما علو الهمة فقد عرفته، وأما الفهم في العلم فإليك الكلمة الآتية:

العلمُ علمان؛ علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ في الكتاب صفحة، فإنْ أشكل عليك شيء مما تسمع فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نَطق الحافظُ بتفسير كلماته.

---

(١) غَيِّهم: ضلالهم. «لسان العرب» مادة (غوي).

الحافظ يَحفظ ما يسمع لأنه قويُّ الذاكرة، وقوةُ الذاكرة قدرٌ مشترَك بين الذكيِّ والغبيِّ والنابه والأبله، لأن الحافظة ملَكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات. وإنك لترَىٰ الشيخ الفانيَ الذي لا يميز بين الطفولةِ والهرم، والذي يَبكي علىٰ الحلوىٰ بكاءَ الطفل عليها، ويرتعد فرَقًا إذا سمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الشياطين، يَسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دوَّنتَه لكان تاريخًا صحيحًا ضخمًا مملوءًا بالغرائب والنوادر. وقيل لأحد العلماء: «إن فلانًا حفظ متن البخاري». فقال: «لقد زادت نسخة في البلد!».

ذلك هو السرُّ العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين، لأن من فهم معلومًا من المعلومات حقَّ الفهم أشْرِبَتْهُ روحُه، وخالط لحمَه ودمَه، ووصل من قلبه إلىٰ سويدائه، وكان إحدىٰ غرائزه فلا يرىٰ له بدًّا من العمل به رضيَ أم أبىٰ.

لولا أن العلم الدينيَّ اليوم علم محفوظ، لما وجدتَ في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية والتردُّدِ علىٰ أبواب الأحياء والأموات، في مزاراتهم أو في مقابرهم، يسألهم المعونة والمساعدة علىٰ قضاءِ الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] من يسند النفع والضرر إلىٰ كل من سال لُعابه،

وتمزَّق إهابه[١]، ولا وجدتَ في الناس كثيرًا من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة النبوة والحكمة، من مدح الفضائل وذمِّ الرذائل، ثم لا تجد فرقًا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات، والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علمًا، وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى[٢]، ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سُنة، ولا قدَّسه كاتب أو ترنَّم[٣] بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم، فاعلم أنَّه العلم المفهوم لا المحفوظُ، وإذا أردت أن تلقِّب بالعالم فلا تلقِّبْ به من يحفظ بل من يفهم ما يَحفظ، وآيةُ فهم المعلوم تأثُّرُ العالم به وظهورهُ في حركاته وسكناته، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء[٤] في وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك فربما مَرَّ بالمعلوم مُحرَّفًا فأخذه على علاته، وأقبحُ ما عرفنا من أطواره أنه يَجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه، والغثِّ[٥] والسمين، والجيد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية بالعقاقير السامة.

---

(١) **إهابه**: جلده. «مختار الصحاح» مادة (أهب).

(٢) **الجدوى**: الفائدة والمنفعة. «المعجم الوسيط» مادة (جدو).

(٣) **ترنم**: تغنى. «المعجم الوسيط» مادة (رنم).

(٤) **الصهباء**: الخمر. «القاموس المحيط» مادة (صهب).

(٥) **الغث**: النحيف أو الرديء الفاسد من كل شيء. «المعجم الوسيط» مادة (غثث).

وجملة الأمر أن الحافظ البحتَ لا رأيَ له في مبحث فيُسأل عن مذهب، ولا أثرَ لمعلوماته في نفسه فيُقتدَىٰ به، ولا ذوقَ له في الفهم فيُعتمد علىٰ شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلِّم بينها وبين علوِّ الهمة طار إلىٰ المجد بجناحين، وكان له سبيلٌ مختصر إلىٰ منزلة العظماء ودرجة النابغين. والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدمَ أبي البشر وإسرافيل صاحبِ الصُّور[1]، ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من نوابغ العلماء منها حلقة، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة. ولن يسلسَ له ذلك إلا إذا كان علمه مفهومًا لا محفوظًا، ولا يكون مفهومًا إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبَّد له[2]، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحتَرِف إلىٰ حرفته، فالتاجر يجمع من السلع ما يَنفق سوقُه، لا ما يغلو جوهره، والمحترف لا يهمُّه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

---

(١) المراد أن العلم وُجد منذ بداية الخلق وسيظل موجودًا حتىٰ الموت وانتهاء الدنيا.

(٢) المراد أخلص في طلب العلم وتعلمه إخلاصًا شديدًا.

لا يزور العلم قلبًا مشغولًا بترقُّب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما لا يزور قلبًا مقسَّمًا بين تصفيف الطُّرة، وصقل الغرة[١]، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: كأس المدام[٢]، وكأس الغرام.

---

(١) **الغُرَّة من كل شيء**: أوله وأكرمه. «المعجم الوسيط» مادة (غرر).

(٢) **المُدام**: الخمر. «المعجم الوسيط» مادة (دوم).

البائسات

زرتُ منذ أيام حاكم بلدة في منزله، فرأيت بين يديه فتاة في الثانيةَ عشرةَ من عمرها بائسةً عليلة تشكو ألمًا في عنقها، وجُرحًا في ذراعها، وهمًّا في نفسها، وتدير في الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة كأنما رُكِّبت علىٰ زئبق رَجراج. فسألتُ: «ما شأنُها؟» فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السنِّ وعلىٰ هذه السذاجة من رجل وحشيِّ الخَلق والخُلق، ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشَها وهي علىٰ حالة لا تستطيع معها أن تُلمَّ بفراش، فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجزَ، فضربها هذا الضربَ الذي رأينا آثاره في جسمها، ففرت منه إلىٰ منزل أهلها فنقموا منها هذا الإِباء الذي سمَّوْه بلادة أو غفلة، وأعادوها إلىٰ منزل زوجها كما يعاد المجرم الفارُّ من السجن إلىٰ سجنه مرة أخرىٰ. وهنالك عاد زوجها إلىٰ عادته معها فعادت هي إلىٰ فرارها، فعاد أهلها إلىٰ قسوتهم وجبروتهم، فلما أعياها الأمر خرجت إلىٰ الطريق العامة هائمةً علىٰ وجهها لا تعرف لها مذهبًا ولا مستقرًّا، حتىٰ رُفع إلىٰ ذلك الحاكم شأنُها بعد أيام، فآواها إلىٰ منزله ليخلِّصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهةِ الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتىٰ رُفعتْ

إليه حادثةٌ أخرىٰ تشبه الحادثة الأولىٰ من جميع وجوهها، إلا أن الزوج في هذه المرة خَدع زوجه عن نفسه وسقاها مخدرًا فعقرها كما عقرَ شقيُّ ثمودَ(١) ناقته من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة ولا سببَ لشقائها وبؤسها إلا جهلُها وضَعْف مداركها.

إنها لا تحسن عملًا، ولا تعرف باب مرتَزق، ولا تجد بين يديها سِلعة تتَّجر بها وتقتات منها إلا قلبَ الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشًا رغَدًا، أوْ لا فلا مفرَّ لها من الشقاء من المهد إلىٰ اللحد.

ودون امتلاكِها هذا القلبَ القاسيَ المُتحجِّر أهوالٌ عِظام، وعقباتٌ لو كُلِّف الرجل علىٰ ما به من قوة وأيْدٍ وسعَة حيلة أن يجتاز عقبة واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متىٰ بلغت الفتاة سنَّ الزواج، سواء أكان ذلك علىٰ تقدير الطبيعة أو تقدير أولئك الجهلاء، أولياء أمر تينك الفتاتين، استثقل أهلها ظلَّها وبَرموا

---

(١) ثمود هم قوم صالح ﷺ الذي حذرهم نقمة الله عز وجل عليهم إن أصابوا الناقة بسوء، فعقروها وقتلوها، وتزعَّمهم في ذلك قدار بن سالف أشقىٰ القوم، فجاءهم صيحة من السماء ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ [الأعراف: ٧٨] أي صرعىٰ لا أرواح لهم.

بها[1] وحاسبوها على المُضغة والجرعة، والقوْمة والقَعدة، ورأوا أنها عالةٌ عليهم، وأن لا حقَّ لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئًا، ووَدُّوا لو طلعَ عليهم وجه الخاطب يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قومًا هذا مبلغُ عقولهم من الفهم وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلةُ فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج أو يحْسنوا الاختيار لها.

فإذا دخلتْ هذا المنزلَ الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأنًا من شؤون صاحبه، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإن كانت ذاتَ جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائعَ التطليق، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلامًا جثمانية تُطفئ نور شبيبتها، وتُذبل زهرة حياتها، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته، والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءًا بالكذب والكيد، والخبثِ والرِّياء. وهي على ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

---

(١) **برموا بها**: سئموا وضجروا منها. «القاموس المحيط» مادة (برم).

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فما أنسىٰ لا أنسىٰ ليلةً زرت فيها صديقًا لي فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة، ليس وراءَ ما بها من الهمِّ غاية، وكأنما هي الخِلال رقة وذبولًا، ووراءها صبية ثلاثة يدورون حولها، ويجاذبونها طرف ردائها فتُسبل فضل مئزرها علىٰ مآقيها المقرَّحة رأفةً بهم أن يُلِموا ببعض شأنها فَيبكوا لبكائها؛ فسألتُها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكمًا من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها، وقد مرَّ عليها زمن طويل و«الإدارة» تماطلها في إنفاذه. فجاءت إلىٰ هذا الصديق تستعين به علىٰ أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشِّدَّة، ومعالجة القوت، ما أسال شئوننا[١]، وصعَّد زفراتِنا، وأمسكنا له أكبادنا خشيةً أن تصدَّعا.

فخفَّفت أنا وصديقي شيئًا من آلامها فانصرفت وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمّىٰ دماغيةٍ، فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شهيدةَ الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل؛ إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلُك وهبها الله مدارك مثلَ مداركك، واستعدادًا مثل استعدادك، فعلِّمْها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسنْ إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

---

(١) شئون: جمع شأن وهو مجرىٰ الدمع. «لسان العرب» مادة (شأن).

إن كنت زوجًا فلا تطردْها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها، كما تصنع بنعلك التي تلبسها، وإن كنت أبًا فهذه فِلْذة كبدك فلا تَضقْ بها ذَرعًا، ولا تُلق بها في حِجر وحش ضارٍ يأكل لحمها، ويمتصُّ دمها، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون؛ والله لا أعرف لكم بابًا في الإحسان تنفذون منه إلىٰ عفو الله ورحمته أوسعَ من باب الإحسان إلىٰ المرأة.

افتحوا لها المكاتب، وابنوا لها المدارس، وعلموها من العلم ما يرفع همتها، ويرقِّي آدابها، ومن الصناعة ما يناسب قوَّتها، وما يُشبع جوْعتها، إن نَبا بها دهر، أو تجهَّم لها حظٌّ.

علِّموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلمُ فيها أولادُكم قبل المدرسة، وأدِّبوها ليتربىٰ في حجرها المستقبلُ العظيم، للوطن الكريم.

البيان

قال لي أحد الرؤساء ذات يوم: «إني لتأتيني أحيانًا رِقاع الاستعطاف، فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفِّرة، لولا أن الله تعالىٰ يلهمني نياتِ كاتبيها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطُّها اليومَ كاتبوها في الصحف ورِقاع الشكوىٰ والكتب الخاصة والمؤلفات العامة.

هزلٌ في موضع الجِدِّ، وجِدٌّ في موضع الهزل، وإسهاب في مكان الإِيجاز، وإيجاز في مكان الإِسهاب، وجهلٌ لا يُفَرِّقُ ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعطاف والاستخفاف، وقصورٌ عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء، والعلماء والجهلاء، حتىٰ إنَّ الكاتبَ ليُقيمُ في الشوكة يُشاكُها، مَناحةً لا يقيمها في الفاجعة يُفجعُ بها، ويكتب في الحوادث الصغار، ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار، ويخاطبُ صديقه بما يخاطب به عدوَّه، ويناجي أجيره بمثل ما يناجي به أميره.

ذهب الناس في معنىٰ البيان مذاهبَ متفرِّقة، واختلفوا في شأنه اختلافًا كثيرًا، ولا أدري علامَ يختلفون، وأين يذهبون! وهذا لفظُه دالٌّ علىٰ معناه دلالة واضحةً لا تشتبه وجوهُها، ولا تتشعَّب مسالكها.

ليس البيانُ إلا الإبانةَ عن المعنىٰ القائم في النفس، وتصويرَه في نظر القارئ أو مَسمع السامع تصويرًا صحيحًا، لا يتجاوزه ولا يقصِّر عنه، فإن علِقَتْ به آفة من تينك الآفتين فهو العِيُّ[1] والحصَرُ.

جَهل البيانَ قومٌ فظنوا أنه الاستكثارُ من غريب اللغة ونادر الأساليب، فأغصُّوا بها صدور كتاباتهم وَحشوْها في حلوقها حشوًا يَقبض أوداجَها ويحبس أنفاسَها، فإذا قُدِّر لك أن تقرأها وكنتَ ممن وهبهم الله صدرًا رحْبًا، وفؤادًا جلْدًا، وجَنانًا يحتمل ما حُملَ عليه من آفات الدهر وزراياه، قرأتَ متنًا مشوَّشًا من متون اللغة، أو كتابًا مضطربًا من كتب المترادفات.

وجهِلَه آخرون فظنوا أنه الهذَر في القول[2] والتبسُّط في الحديث، واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاهُ حيث وقع، فلا يزالون يجترُّون

---

(١) **العيُّ**: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنىٰ المقصود. «المعجم الوسيط» مادة (عيي).

(٢) **الهذر في القول**: سَقَط الكلام. «المعجم الوسيط» مادة (هذر).

بالكلمة اجترارَ الناقة بِجِرَّتها، ويتمطَّقون بها تمطُّق الشفاه بريقتها، حتىٰ تسِفَّ وتتبذل، وحتىٰ ما تكاد تُسيغها الحلوق، ولا تَطرف عليها العيون، وهم يحسَبون أنهم يحسنون صنعًا.

يُخيل إليَّ أن الكتَّاب في هذا العصر يَكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته، فإني لا أكاد أرىٰ بينهم من يضع فمه علىٰ أذُن السامع وضعًا محكمًا، ويَنفُثُ في رُوعه ما يريد أن يَنفث من خواطر قلبه، وهواجس نفسه.

البيان صِلةٌ بين متكلم يُفهِم، وسامع يَفهَم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلةُ الكاتب من الرفعة والسقوط، فإن أردتَ أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدةَ في البيان قاعدَتك، واحرص الحرصَ كلَّه علىٰ أن لا يخدَعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين.

ما أصِيبَ البيانُ العربي بما أصيبَ به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية. ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًّا، قبل أن يطَّلع علىٰ أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، ومدحهم وهجوهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يَعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون، ويتغزلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون!

وبأيِّ لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمدَّ تلك الروحَ العربية استمدادًا يملأ ما بين جوانحه، حتىٰ يتدفقَ مع المداد[١] من أنبوب يراعه علىٰ صفحات قِرطاسه.

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظُ وابن المقفَّع والصاحب والصابئ والهمَذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتَّاب العربية الأولىٰ، ثم أقرأ ما خطَّه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسْفار فأشعرُ بما يَشعرُ به المنتقلُ دفعةً واحدة من غرفة محكمة نوافذُها، مسبلة ستورها، إلىٰ جو يسيل قَرًّا[٢] وصِرًّا[٣]، ويترقرق ثلجًا وبَردًا.

ذلك لأني أقرأ لغةً لا هي بالعربية فأغتبطَ بها، ولا هي بالعامية فأتفكَّه بهذَيانها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين، رجلٌ يستمدُّ روح كتابته من مطالعة الصحف، وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثةِ والروايات المترجمة، وربما كان كتَّاب تلك المخطوطات أحوجَ من قارئيها إلىٰ الاستمداد، فإذا علِقتْ بنفسه تلك الملكةُ الصحفية؛ ألقىٰ

---

(١) **المِداد**: سائل يكتب به. «المعجم الوسيط» مادة (مدد).

(٢) **القُرُّ**: البَرْدُ. «القاموس المحيط» مادة (قرر).

(٣) **الصِّرَّةُ**: شدة البرد. القاموس المحيط مادة (صرر).

بها في رُوع(١) قارئ كتابته أدوَنَ(٢) مما أخذها فيُدْلي به آخذُها كذلك إلىٰ غيره أسمجَ(٣) صورة وأكثرَ تشويهًا، وهكذا حتىٰ لا يَبقىٰ فيها من روح العربية إلا كما يَبقىٰ من الأطلال(٤) البالية بعد كرِّ الغداة(٥) ومَرِّ العشيِّ.

وطالبٌ قُصارَىٰ ما يأخذه عن أستاذه نحوُ اللغة وصَرفها وبديعُها وبيانها ورسمها وإملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها ومختلفاتها وغير ذلك من آلاتِها وأدواتها، أما روحُها وجوهرها فأكْثر أساتذةِ البيان في المدارس علماءُ غيرُ أدباء، وحاجةُ طالب اللغة إلىٰ أستاذ يُفيضُ عليه روحَ اللغة ويوحي له بسرِّها، ويُفضي إليه بلبِّها وجوهرها، أكثرُ من حاجته إلىٰ أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتِها. وعندي أن لا فرقَ بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كملتْ أخلاقه، وحسنت آدابه، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مُبين.

---

(١) **الرُّوع**: القلب والعقل، أي في خلده وباله. «مختار الصحاح» مادة (روع).

(٢) **دُون**: تحت. «المعجم الوسيط» مادة (دون) وأدون هنا المراد بها: أقل.

(٣) **أسمج**: أقبح. «مختار الصحاح» مادة (سمج).

(٤) **الأطلال**: مفردها الطلل وهو ما بقي شاخصها من آثار الديار. «المعجم الوسيط» مادة (طلل).

(٥) **الغداة والغدوة**: البُكْرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. «المعجم الوسيط» مادة (غدو).

ولا يُقذفَنَّ في رُوع القارئ أني أحاول استلابَ[1] فضل الفاضلين، أو أني أنكر علىٰ فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا أردتُ، ولا إليه ذهبت. وإنما أقول: إن عشَرةً من الكتاب المجيدين، وخمسةً من الشعراء البارعين، قليلٌ في بلد يقولون عنه إنه بلد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب.

وبعد، فإني لا أرىٰ لك يا طالب البيان العربي سبيلًا إليه إلا مزاولةَ المنشَئات العربية منثورها ومنظومها، والوقوفَ بها وقوف المتثبِّت المتفهِّم لا وقوفَ المتنزِّه المتفرِّج، فإنْ رأيت أنك قد شغفت بها، وكُلِفتَ بمعاودتها والاختلاف إليها، وأنْ قد لَذَّ لك منها ما يَلَذُّ للعاشق من زوْرةِ الطَّيف في غرَّة الظلام، فاعلم أنكَ قد أخذت من البيان بنصيب؛ فامْض لشأنك ولا تلوِ علىٰ شيءٍ مما وراءك حتىٰ تبلغَ من طَلِبتك ما تريد.

ولا تحدِّثنَّك نفسك أني أحملك علىٰ مطالعة المنشَئات العربية لأسلوب تسترقُه، أو تركيبٍ تختلسه، فإني لا أحبُّ أن تكون سارقًا ولا مختلسًا. علىٰ أنك إن ذهبتَ إلىٰ ما ظننتَ أني أذهب إليه في نصيحتك لم يكن درَكك[2] دركًا، ولا بيانُك بيانًا، وكان كلُّ ما أفدتَه من ذلك أن

(١) **استلاب**: اختلاس. «لسان العرب» مادة (سلب).

(٢) **دركك**: فهمك. «المعجم الوسيط» مادة (درك).

تُخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تَناسُب بين أجزائها، وبُردةً مرقعة لا تَشابه بين ألوانها. وإنما أريد أن تحصِّلَ لنفسك ملكةً في البيان راسخةً، تَصدر عنها آثارها بصورة واحدة؛ حتىٰ لا يكون شأنك شأنَ أولئك الذين قد علِقتْ ذاكرتهم بطائف من منثور العرب ومنظومها؛ فَقنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا. فإذا جَدَّ الجِدُّ وأرادوا أنفسهم علىٰ الإفصاح عن شيء من خلجاتِ نفوسهم رجَعوا إلىٰ تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها، فإنْ وجدوا بينها ما يَدلُّ علىٰ المعنىٰ الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعًا، وحشروه في كتابتهم حشرًا، وإلا فإما أن يتبذَّلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة، أو يهجُروا تلك المعاني إلىٰ أخْرىٰ غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، فهم لا بدَّ لهم من إحدىٰ السَّوأتين، إما فساد المعاني واضطرابها، أو هُجنة التراكيب وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحدًا منهم أو أن تصدِّق ما يقولونه في تلمُّس العذر لأنفسهم، من أن اللغة العربية أضيقُ من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة، وأنهم ما لجئوا إلىٰ التبذُّل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها. فاللغة العربية أرحب صدرًا من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعد ما وسعتْ من دقائق العلوم ما لا قِبلَ لغيرها باحتماله،

وقدرَتْ من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب علىٰ الذي عَيَّتْ به اللغات القادرات.

وليس الشأنُ في عجز اللغة وضيقها، وإنَّما الشأنُ في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها، والتغلغل في أثنائها، واقتناعِهم من بحرها بهذه البلة التي لا تُثلج صدرًا، ولا تَشفي أوامًا[١].

وكل ما يُعدُّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل علىٰ أعلام لهذه الهِنات المستحدثة، وهو في مذهبي أقل الذنوب جرمًا، وأضعفها شأنًا، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبِيلَ إليه، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق، فالأمرُ أهون من أن نَحار فيه، وأصغرُ من أن نقضيَ أعمارنا في الوقوف ببابه، والأخذِ والرد في شأنه، والمساجلة والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه، وأجداها[٢] عليه.

واعلم أنه لا بدَّ لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تُزاولَه من المنشَئات العربية فليس كلُّ متقدم ينفعك، ولا كلُّ متأخر يضرُّك. ولا أحسبك إلا واقفًا بين يديْ هذا الأمر موقفَ الحيرة والاضطراب، لأن حسن الاختيار طَلِبةٌ تتعثر بين يديها الآمال، وتُقطَّعُ دونها أعناقُ

---

(١) **الأوام**: حرارة العطش، والدوار. «المعجم الوسيط» مادة (أوم).

(٢) **أجداها**: أنفعها وأكثر فائدة. «المعجم الوسيط» مادة (جدو).

الرجال، فالجأ في ذلك إلىٰ فطاحل الأدباء الذين تَعرفُ ويَعرفُ الناس منهم ذوقًا سليمًا، وقريحة صافية، وملكة في الأدب، كأنها مِصفاة الذهب. فإنْ فعلتَ وكنت ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يُلقىٰ فيها من البذور الطيبة؛ عدت وبين جنبيك ملكةٌ في البيان زاهرة، يتناثر منها منثورُ الأدب ومنظُومه تناثر الورود والأنوار، من حديقة الأزْهار.

السَّريرة

لو كُشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأىٰ منها ما يرىٰ من غرائب هذا الكون وعجائبه، أعمىٰ أدركتْه رحمةُ الله بعد طول مِحنته فارتدَّ بصيرًا.

تتراءَىٰ لك السريرةُ في ظاهرها كأنها أديم السماء، أو صفحة الماء، فإنْ بدا لك أن تكتنِهَ[1] باطنها فإنَّك غير بالغ من ذلك مأربَك، إلا إذا استطعت أن تخترق السماء فترىٰ ما وراءها من بدائع الكائنات، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات.

يعجز المرء عن رؤية الهباء[2] فيتريَّثُ ريثما تمُجُّ الشمس لُعابها من نافذة غرفتهِ؛ فإذا هو مائج وضَّاء يروحُ ويغدو رواح السانحات[3]، وغُدوَّ البارحات[4]. ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يصورها

(١) **تكتنه**: تدرك حقيقته. «المعجم الوسيط» مادة (كنه).

(٢) **الهباء**: الغُبار ودُقاق التراب ساطعة ومنثورة علىٰ وجه الأرض. «القاموس المحيط» مادة (هبو).

(٣) **السانحات**: الطيور وغيرها التي تمر من مياسرك إلىٰ ميامنك. «المعجم الوسيط» مادة (سنح).

(٤) **البارحات**: ما مر من الطير والوحش من يمينك إلىٰ يسارك. «لسان العرب» مادة (برح).

فِي نظره تصويرًا، يخيِّل إليه أنه يكاد يلمسها بيمينه. ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلىٰ الوصول إليها سبيلًا.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه، فاستعصىٰ عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه، فلجَّ بهم الشوق إليها لجاجًا طار بعقولهم، وذهب بألبابهم، فتراموا علىٰ أقدام المنجِّمين والعرَّافين لثمًا وتقبيلًا، وابتدروا النُّصُب والتماثيل ركوعًا وسجودًا، وهاموا بزاجراتِ الطير(١) والضوارب بالحصىٰ هيام الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة، والسريرةُ كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات، ولا تجدي معه العزائم والرُّقىٰ.

إنك لترىٰ الرجل يتلألأ جبينه تلألؤَ الكوكب فِي جنح ليل مُبرد، ويفترُّ ثغره عن الأنوار، افترار الأكمام عن الأزهار، فتحسدهُ علىٰ نعمته وسعادته، وتتمنىٰ أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد، وإنَّ بين جنبيه لو تعلمُ همًّا يعتلج، وقلبًا يَدِبُّ فيه اليأس دبيب الآجال فِي الأعمار، وكبدًا مقروحة لو عرضها فِي سوق الهموم والأحزان، ما وجد من يبتاعُها منه بأبخس الأثمان.

وإنك لترىٰ الصديق فيعجبك منه حديثه الحُلو وثغرهُ المبتسم، ويروقك من وُدِّه كلفُه بك، وإعظامه لك، وإعجابه بشمائلك ومحاسنكَ، وتشيُّعُه لآرائك ومذاهبك، ولو كُشف لك من نفسه ما كشف له منها؛

(١) **الزجر للطير**: التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها. «لسان العرب» مادة (زجر).

لوددت أن لو استطعت أن تبتاع أقدام السُّليكِ[١] بجميع ما تملك يمينك، ففررت من وجهه فرارَك من وجه الأسود السالخ[٢] ووددتَ بجدع الأنف أن لا يصافحَ وجهُك وجهه من بعدها حتىٰ في جنة النعيم!

لولا ما أسدلَ الله دون السرائر من الحُجُب لبُدِّلت الأرض غيرَ الأرض، وكان للكون نظام غيرُ هذا النظام، وللتاريخ صفحات غيرُ هذه الصفحات.

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نيشانًا»[٣] في صدر القائد أو جوهرةً في تاج الملك، وأنهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين في وقائعهم ومواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين، لما دالت الدول ولا انتقلت التيجان، ولضَعُفَ ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان. ولو علم جهلة المتدينين أن رؤساء الأديان كثيرًا ما يشترون عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من هذه المدهشات الدينية، والأحلام النفسانية، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعِجات ليبيعوهم الأمن والسلامةَ بثمن غال؛ لضعفت أصوات النواقيس[٤]، وقَصُرتْ قامات

---

(١) **السُّليك**: اسم رجل من العدَّائين. «لسان العرب» مادة (سلك).

(٢) **السالخ**: الأسود من الحيات شديد السواد، وأقتلُ ما يكون من الحيات إذا سلخت جلدها. وسُمِّي بذلك لأنه يسلخ جلده كل عام. «لسان العرب» و«المعجم الوسيط» مادة (سلخ).

(٣) **نيشانًا**: وسامًا.

(٤) **نواقيس**: جمع ناقوس، وهو مضراب النصارىٰ الذي يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة. «المعجم الوسيط» مادة (نقس).

المنائر(١)، ولهلك أرباب الطيالس(٢) والقلانس(٣) جوعًا وسغبًا، ولأَصْبَحَتْ حبَّات السُّبح أكسد في سوق الأديان من بعْر النوق في سوق الأنعام. ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجو من منفعته في شيخوختِه، وأنه لا يُعجب إلا بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه، ولا يفخر إلا بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفتْ صلةُ الوُدِّ بينه وبينه، ولما كانت بين حلقات الأنْساب هذه الوشائجُ(٤) وتلك الأواصر. ولو علمت الزوجة أن زوجها يحبُّ منها جسمها أكثر مما يحب نفسها، وأنه يتربص بها الدوائر ويَعُدُّ ليومها الساعات والأيام، لما وثقت بوُدِّه، ولا اطمأنت لعهده، ولما كان للمنازل سقوف تُظلُّ الأسرَّة والمهاد.

---

(١) **المنائر**: المآذن. «المعجم الوسيط» مادة (نور).

(٢) **الطيالس**: ضرب من الأوشحة يُلبس علىٰ الكتف، أو يحيط بالبدن. «المعجم الوسيط» مادة (طلس).

(٣) **القلانس**: جمع القلنسوة. وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال. «المعجم الوسيط» مادة (قلس).

(٤) **الوشائج**: جمع الوشيجة وهي القرابة المشتبكة المتصلة. «المعجم الوسيط» مادة (وشج).

زيد وعمرو

أراد داود باشا – أحدُ الوزراء السالفين في الدولة العثمانية – أن يتعلم العربية، فأحضرَ أحد علمائها وأنشأ يتلقَّىٰ عليها دروسها عهدًا طويلًا فكانت نتيجةُ علمه ما ستراه:

سأل شيخه يومًا: «ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتىٰ استحقَّ أن يضربه زيد كل يوم ويقتِّلَه تقتيلًا، ويبرِّح به هذا التبريح المؤلم؟ وهل بلغ عمرو من الذلِّ والعجز منزلةَ من يضعُف عن الانتقام لنفسه، وضرْبِ ضاربه ضربةً تقضي عليه القضاء الأخير؟!».

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرَّق غيظًا وحنقًا ويضرب الأرض بقدميه، فأجابه الشيخ: «ليس هناك ضاربٌ ولا مضروب، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين». فلم يعجبْه هذا الجوابُ، وأكبرَ أن يعْجِزَ مثلُ هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية، فغضب عليه وأمر بسجنه. ثم أرسل إلىٰ نحويٍّ آخر، فسأله كما سأل الأوَّلَ، فأجابه بنحو جوابه فسجنه كذلك. ثم ما زال يأتي بهم واحدًا بعد واحد حتىٰ امتلأت السجون وأقفرت المدارس، وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها. ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد، فأمر بإحضارهم فحضروا وقد علموا

قبل الوصول إليه ماذا يُراد بهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانةٍ من الفضل والحِذق والبَصَر بموارد الأمور ومصادرها. فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤالَ بعينه، فأجابه الرئيس: «إن الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال». فانبسطت نفسه قليلًا وبرقت أسارير وجهه وأقبل علىٰ محدِّثه يسأله: «ما هي جنايته؟» فقال له: «إنه هجم علىٰ اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو فسلط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم، جزاءَ وقاحته وفضوله». (يشير إلىٰ زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود في الرسم)؛ فأعجب الوزير بهذا الجواب كلَّ الإعجاب، وقال لرئيس العلماء: «أنت أعلم من أقلته الغبراء، وأظلتهُ الخضراء[1]، فاقترح عليَّ ما تشاء». فلم يقترح عليه سوىٰ إطلاق سبيل العلماء المسجونين، فأمر بإطلاقهم وأنعم عليهم وعلىٰ علماء بغداد بالجوائز والصِّلات.

أحسن داود باشا في الأولىٰ وأساء في الأُخْرىٰ، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتىٰ آخذَ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلىٰ أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين، وتذهب بوحشتهم، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو، وخالد وبكر.

---

(١) **الغبراء**: الأرض، والخضراء: السماء. «مختار الصحاح» مادة (غبر، خضر).

لا ينال المتعلم حظَّه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه علىٰ العمل، والانتفاعَ بِه في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلِّمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم، وافتنَّ له في إيرادها افتنانًا يقرِّب إلىٰ ذهنه تلك الصلةَ بين العلم والعمل، ويسهل له الوصول إلىٰ القدرة علىٰ تلك المطابقة. وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعدُ الناس عن القدرة علىٰ المطابقة، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم، فلو أنك أردت أحدهم علىٰ أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية، وفي النحو عن ضرْب زيدٍ عمرًا وقتل خالد بكرًا، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر واستعارة الأظافر للمنية، وفي الصرفِ عن فعلَل وافعوعل، لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة وفي لسانه من العِيِّ والحَصَر ما يحزنك علىٰ أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل من بعدها علىٰ طائل[1].

علامَ يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحًا في كل كتاب وكل صحيفة؟! وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام وأوجه بلاغته، وفهم المراد من مختلفات أساليبه، وعن البيان بيانًا

---

(١) **طائل**: نفع أو فائدة. «المعجم الوسيط» مادة (طول).

فصيحًا يضمِّنه ما يشاء من أغراضه ومقاصده؟! وعلامَ يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل مناحيه ومذاهبه، وإن لم يكن الموضوعُ الإنسان، ولا المحمولُ الحيوان الناطق؟!

عجيب جدًّا أن يفهم الصانع الأمِّيُّ أن العلم للعمل؛ فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبْواب والصناديق، والحِدادةَ إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح، وأن يجهل المتعلمُ هذه القضية الضرورية، فلا يهمه من العلم إلا الاستكثارُ من المعلومات والقواعد وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها، والانتفاع بها في مواطنها.

ما دامت مدرسةُ الأزهر علىٰ هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم[١]، فليس بمقدورٍ لها في مستقبل الأيَّام أن يَنبغَ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاعَ أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها، فويل للعلم من العلماء!

---

(١) **العقيم**: لا خير فيه ولا ثمرة. «المعجم الوسيط» مادة (عقم).

أبو الشَّمقْمق(١)

إنَّ كثيرًا من الفقراء لم تمتدَّ يدُ الفقر إلىٰ رؤوسهم، كما امتدَّت إلىٰ جيوبهم، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء، ويفهمون كما يفهمون، وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس، كذلك في فقراء الجيوب أغنياءُ الرؤوس.

ولقد جلستُ في منزلي صبيحةَ يوم مع قوم من الماديين المستهتَرين، الذين ملأ المال فراغَ أذهانهم حتىٰ أنساهم كلَّ شيءٍ، وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجاذبون أسلاكَ الحديث الذهبية، ما بين تاجر يُعجَب بصفقته الرابحة، وزارع يَفخَر بقلَّة ما أعطىٰ وكثرةِ ما أخذ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغَلات وارتفاع الأسعار، والكلُّ متفقون، علىٰ أن السعادة التي أظلتهم أجنحتُها في هذا العهد الأخير – عهد العدل عهد الحرية والمساواة عهد الترقِّي والعُمران، هي أشبه شيء بسعادة المتَّقين في جنات النعيم.

---

(١) **أبو الشَّمقمق:** هو مروان بن محمد، من الأدباء المولدين. توفي عام (٨١٤م).

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحيةً يَخزَرُ طَرْفَه[١]، ويهزُّ رأسه، ويصعِّد أنفاسَه، ويَمضغ أضراسه، ويئنُّ من قلبه أنينًا خفيًّا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر:

فيــا لــك بحــرًا لــم أجــد فيــه مَشــربًا
علــىٰ أن غيــري واجــدٌ فيــه مَســبحا

فما هو إلا أن قضوا لُبانتَهم من الكلام المملول والحديث المعاد حتىٰ قاموا يطيرون مع الآمال، وراء الأموال، فأشرت إلىٰ أبي الشَّمقمق أن يتخلف ففعل، فسألته: «ما لك لم تشترك معنا فيما كنا فيه؟» فأجاب: «إني أكره الفضول في الحديث وقد فرَّق المقدار بيني وبينكم في المال، فلا أشترك معكم في المقال». فقلت: «ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديثُ النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في العهد الأخير، وأنت فرد من أفرادها، وجزء من أجزاء جسمها، فنهوضها نهوضُك وسقوطها سقوطك، والأمة كما تعلم هي الفرد المكرَّر والواحد الدائر، فأنت الأمة والأمة أنت؟» فقال: «والله لا أدري هل تكلمني بلسان الصوفية ولستُ بصوفيٍّ؟ أم بلغة الفلاسفة ولا أفهم للفلسفة معنىٰ؟ وكأنك تقصدني بالفرد المكرَّر والواحد

(١) **يخزر طرفه**: نظر كأنه يرىٰ بمؤخر عينه. «المعجم الوسيط» مادة (خزر).

الدائر. فإن كنت تريد أني فرد مكرَّر كثيرُ الأشباه والأمثال في العَوَز والفاقة[١]، وواحدٌ لا سند لي ولا عضد، ودائرٌ في مدارج الطرق ومَعابر السُّبل، فقد أصبت وأحسنت، وإن كنت تريد معنًىٰ غير ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك، فهل لك أن تعفيني من هذه المعَمَّيات، وتَزنَ كلامك علىٰ قدر عقلي، وتُحدِّثَني فيما يتناوله سمعي وبصري؟» فقلت: «أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئًا غيرَ أفرادها، فإذا سعدتْ أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناؤها، وحسبُك أن تَرىٰ تقدُّم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها[٢]، فتَسعدَ بسَعادتها وتُسرَّ بسرورها». فقال: «إن لم تبيِّن لي سهمي من هذه السعادة، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدِّقُ سعادة ولا أتصور ارتقاء. وما دمت أرىٰ أن لي هُويَّةً مستقلة عن هُويَّة سواي من السعداء، ويدًا تَقْصُر عما يتناولونه، وبطنًا لا يمتلئ بما يمتلئ به بطونهم، وما دمت لا أرىٰ واحدًا بينهم يَلبَس معي ردائي الممزق، وقميصي المخرّق، ويقاسمني همِّي، ويشاطرني فقري، فهيهات أن أسعدَ بسعادتهم، وأسرَّ بسرورهم! وهيهات أن أفهم معنىٰ قولك أنت

---

(١) **العَوَزُ والفاقة**: الفقر والحاجة. «مختار الصحاح» مادة (عوز، فوق).

(٢) **الناطق**: الحيوان، والصامت: الذهب والفضة والجوهر. «لسان العرب» مادة (نطق).

الأمة والأمة أنت!». فقلت: «إن الغيث إذا نزل يسقي الخصيب والجديب، والنجد[١] والوهد[٢]، وينتظمُ من الأرض الميتَ والحي». فقال: «كلُّ سماء فيها هذا الغيثُ إلا سماء مصر، فإني أراه:

كبـــدر أضـــاء الأرض شـــرقًا ومغربًـــا
وموضـــعُ رجلـــي منـــهُ أســـود مظلـــم

«ما لي وللروض الذي لا أستنشق رُوحه وريحانه، والقصر الذي لا أدخله مالكًا ولا زائرًا، وهبْ أن الطرق مفروشة بالحرير والديباج لا بالحصىٰ والمدر[٣]، فهل أبقىٰ لي الدهر من حاسة اللمس شيئًا فأميزَ بين خشن الملمس وناعمه، ومعوجِّ الأرض ومستقيمها؟ وهبني إذا مشيتُ خضت في بحر مائج بأنوار الكهرباء، فهل يغني ذلك عني شيئًا؟ وهل يكون نصيبي منه إلا انكشافَ سوأتي ورثاثتي لأعين الناظرين؟! ولقد حُبِّبَ إليَّ الظلام حتىٰ تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤونة الرتق[٤] والفتق، والتمزيق والترقيع.

---

(١) **النجد**: ما ارتفع من الأرض. «مختار الصحاح» مادة (نجد).

(٢) **الوهد**: الأرض المنخفضة. «القاموس المحيط» مادة (وهد).

(٣) **المَدر**: الطين اليابس، أو الذي لا رمل فيه. «لسان العرب» مادة (مدر).

(٤) **الرتق**: رتق الشيء: انسد والتأم. «المعجم الوسيط» مادة (رتق).

«وبعد... فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعينني ويشملني؟ هل ترقَّت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء؟» فقلت: «نعم، أما ترىٰ الأموال التي يتبرَّع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية، والتي ينفقها المحسنون علىٰ بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟» قال: «إنَّ هذه التي تسميها مكارم، لا يسميها أصحابها إلا مغارم، ألجأهم إليها التملُّق للكبراء، وحبُّ التقرب من الرؤساء، والطمع في الزخرف الباطل، والجاه الكاذب.

«ما لي وللمدارس والمستشفيات، وأنا جوعان خبز لا جوعانُ علم، ولا جوعانُ علم، ولا مرض عندي إلا مرض الفاقة، فهل أجد في المدارس خبزًا أو في المستشفيات دواء كذلك الدواءِ الذي وصفه أحد الأطباء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضًا، فعرف سرَّ مرضه، فأعطاه علبة وكتب عليها يؤخذ منه عند اللزوم، فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير؟

«أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترىٰ، فلا قدرة لي علىٰ العمل، وعندي صبيةٌ صغار ليس بينهم من يستطيع عملًا أو يحسن صنعًا، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه، والعهدِ الذي تنقِمون عليه، منفسحٌ عظيم في منازل المحسنين، وموردٌ نمير من صدقاتهم وهباتهم، وظلٌّ

ظليل من تَحنُّن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فإني أبيت طاويًا[١]، وأصبح شاكيًا، وأغدو راجيًا، وأروح يائسًا».

وهنا أرسل من جفنيه دمعةً ليست بأول دمعة بلَّل بها رداءه، ولكنها أحرُّ من سابقاتِها لأنه لم يبكِ في غير خلوته غيرَ هذه المرة، ثم نهض ومدَّ يده إليَّ مودِّعًا فمسحت بيميني دمعةً واحدة من دموعه الكثيرات.

---

(١) **طاويًا**: جائعًا. «مختار الصحاح» مادة (طوي).



دورة الفلك

أيها القصر؛ أين الكوكبُ الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك؟ أين النِّسر الطائر الذي كان يحلِّق في أجوائك؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسًا في صباحك، وبدرًا في مسائك؟!

أين الأعلام والبنود تخفِق في شرفاتك، والقوادُ والجنود تخطِر في عرَصاتك[1]؟ أين الشِّفاه التي كانت تلثم ترابك، والأفواه التي كانت تقبل أعتابك، والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك، والقلوب التي كانت تخفق لروْعتك؟!

أين الصَّوت الذي كان يجلجل فيقرع أذنَ الجوزاء[2]، ويهدر فتتلفَّت عيون السماء؟! أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع والخفض، والإبرام والنقض؟!

كيف استطاع الدهر أن يمدَّ يدَه إلىٰ شملك، فيبدده[3]، وجمعك فيفرقه، وسمائك فيكوِّرَ شموسها، وأرضكَ فيزعج أنيسها؟!

---

(١) **عرصاتك**: ساحاتك. «المعجم الوسيط» مادة (عرص).

(٢) **الجوزاء**: من بروج السماء. «لسان العرب» مادة (جوز).

(٣) **يبدده**: يفرِّقه. «مختار الصحاح» مادة (بدد).

أين كانت أسوارك وأبوابك، وحرَّاسك وحجَّابك؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء، وتصدَّ عن نفسك عادية البلاء؟!

ولـم أرَ مثـل القصـر إذا ريـع سـربُه
وإذْ ذُعـرتْ أطـلاؤه[١] وجـآذره[٢]

تحمَّـل عنـه سـاكنوه وهُتِّكـت
علـى عجـل أسـتارُه وسـتائره

أيها السجن؛ حلَّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدُّنيا، فكيف وسعته؟! وتعجز عن احتماله قُلل[٣] الجبال الرواسي، فكيف احتملته؟!

رفقًا به! لا تزعجه ولا تحرج[٤] صدره، وضمَّ جانحتيك عليه كما تضمُّ على القلب حنايا الضلوع، واعطف عليه عطفَ المرضِعات على الرضيع، ارحم هذا الجلالَ الذاهب، والعزَّ الزائل، والرأس الذي بيَّضته حوادث الدهور، والظهرَ الذي قوسته أيدي المقدور.

---

(١) **أطلاء**: جمع طَلِي وهو ولد الظَّبية ونحوه. المعجم الوسيط مادة (طلي).

(٢) **جآذر**: جمع جُوذر وهو ولد البقر الوحشية.

(٣) **قُلَل الجبال**: قمتها وأعلاها. «المعجم الوسيط» مادة (قلل).

(٤) **لا تحرج**: لا تضيق. «مختار الصحاح» مادة (حرج).

أيُّها الدهر؛ ألا تستطيع أن تنام عن هذا الإنسان لحظة واحدة؟! ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة لا يمازجها كدرٌ ولا يشوبها عناء؟!

إن كنت تريد أن تسلبه فلمَ أعطيته، وإن كنت تريد أن تُعطيه فلمَ سلبتَه. كان خيرًا له أن لا تعطيه حتىٰ لا تَفجعه في تلك العطية، وأن لا تسقيه كأس السرور حتىٰ لا يتجرَّعَ ذلك السُّمَّ الذي أودعته تلك الكأس.

أيُّها الراحل المودِّع؛ كان ارتفاعُك عظيمًا فوجب أن يكون سقوطك عظيمًا.

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصةً، فلما ذقتَ مرارتها جزعت وقطَّبت كما يَجزع ويقطِّب كلُّ من ذاق من الشراب ما لا عهدَ له به، ولا قِبل له باحتماله.

لا تأسَ علىٰ ما فاتك فإنما كان وديعة من ودائع الدهر أعارَكها برهة من الزمان ثم استردَّها.

إنك لا تدري لعل الله أراد بك خيرًا، فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك، وتراجع فيها فهرسَ أعمالك، فإن رأيت خيرًا اغتبطت، أو شرًّا استغفرت.

قضىٰ الله أن يقيم في كل حين لهذا العالَم الغافل الراقد عِبرة من العبر تزعجه من رقدته، وتوقظه من غفلته، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظَته.

مــــن بـــات بعـــدك في ملـــك يُســـرُّ بـــه

فإنمـــا بـــات بـــالأحلام مغـــرورا



تأبين فولتير[1]

في مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير.

ما مات فولتير حتىٰ احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظمىٰ التي عرضت علىٰ السموات والأرض، فأبين أن يحملنها فحملها وحدَه؛ وهي تهذيب السريرة الإنسانية، فهذَّبَها فاستنارت فاستقام أمرها.

مات فولتير مرذولًا محبوبًا في آن واحد، يبغضه الماضي لأنه يجهله، ويحبُّه الحاضر لأنه عرفه.

إن في هاتين العاطفتين، البغض، والحب، سرًّا عظيمًا من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم.

كان وهو علىٰ سرير الموت محفوفًا بعاطفتين مختلفتين شكلًا متفقتين معنىٰ، لأنهما جميعًا في سبيل مجده وفخاره، كان ينظر أمامه،

---

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها فكتور هيجو في باريس في حفلة تأبين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨ بعد مرور قرن علىٰ وفاته. مع بعض تصرُّف.

فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله، ويلتفتُ وراءه، فيُطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يكنُّه الماضي في صدره، لأولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه.

كان فولتير رجلًا وأكبَرَ من رجل، كان وحده أمة كاملة، إنه عاهد نفسه علىٰ إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده، وكأن الإرادة الإلهية المتجليةَ في الشرائع، تجليها في الطبائع، نثرت كنانة(١) هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه، فوجدت فولتير أصلبَها عودًا فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فأتمه.

إنا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسائل الاجتماعية، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها، جئنا لنتلو علىٰ القرن الثامن عشر رأيَ القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنكرم المجاهدين، والعاملين المخلصين، اجتمعنا لنمهِّدَ الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعىٰ إليها العلماء والعاملون، والصُّناع المجدُّون، وجملة القول: إنا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجِّد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام.

إنا نمجد السلام حبًّا في المدنية وحرصًا علىٰ رونقها ورَوائها، فإنَّ السلامَ فضيلة المدنية والحربَ رذيلتُها.

---

(١) **كنانة**: جَعْبة صغيرة من أَدَم للنَّبْل. «المعجم الوسيط» مادة (كنن).

نحن في هذه الساعة العظيمة، في هذا الموقف الرَّهيب، نجثو على الرُّكَب ونُعفِّر[١] جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية، ونقولُ للعالَم الذي ينصت لسماع صوت فرنسا: «لا قوة إلا قوة الضمير ولا مجدَ إلا مجد الذكاء». ذلك في سبيل العدل، وهذا في سبيل الحق.

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنساوية على هذا المثال: الشعبُ في المنزلة الدُّنيا، وفوق الشعب الدينُ والقضاء، هذا يمثله القُضاة، وذاك يمثله «الإكليروس».

أتدرون كيف كان الشعب؟ وكيف كان الدين؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد؟ كان الشعب جهلًا، والدينُ رياء، والقضاءُ ظلمًا.

إن كنتم في شكٍّ مما أقول: فإني أقصُّ عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غَناء ومقتَنعًا:

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجد شابٌّ مصلوبًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة «طولوز»، فهاج الشعب ولغط «الإكليروس» وبحثَ القُضاة، فكانت النتيجةُ أن كان الشابُّ منتحرًا فسمي قتيلًا، وكان والده بريئًا فسمي قاتلًا.

---

(١) **نُعفِّر**: نضرب بها الأرض. «المعجم الوسيط» مادة (عفر).

هكذا أراد الدينُ وأرادت مصلحته أن يَهلك والدُ الفتىٰ لأنه كان بروتستانيًّا، ولأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة، إنها لجناية عظيمة جدًّا ينكرها الدين ويُحيلها العقل، ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين؛ شريعة القلب وشريعة العقل، فحكموا أن الشيخ الكبير، قتل ولده الصغير.

هكذا قضىٰ القضاء، وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها: في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيقَ إلىٰ الميْدان العام شيخٌ أبيضُ الشعر هو «جان كالاس»، ثم جُرِّد من ثيابه وطُرح علىٰ دولاب العذاب، وشُدَّت به أطرافه وتُرك رأسهُ متدليًا.

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل؛ كاهنٌ يحمل الصليب، وجلاد يحمل القضيب، وقاضي يحمل في صدره عهدَ القوم إليه بالتنكيل والتعذيب.

لم يكن الشيخ المسكين، وقد شقَّ الخوف مرارته وتمشَّىٰ قلبُه في صدره، لينظرَ إلىٰ الصليب في يد الكاهن، بل إلىٰ القضيب في يد الجلاد.

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح علىٰ أثرها صيحةً مؤلمة، ثم أغميَ عليه فتقدم القاضي الرحيمُ وأمر له بالمنبهات فانتعشَ، فضربه الجلاد الضربة الأخرىٰ فوق الذراع

الآخر، فعاد إلىٰ صرخته وإغمائه، فعادوا إلىٰ تنبيهه وإنعاشه، وهكذا حتىٰ تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات.

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب، تقدَّم الكاهنُ ومدَّ إليه الصليبَ ليُقبِّله فحَوَّل وجهه عنه، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين، فأقبلَ الجلادُ وسَدَّد إلىٰ صدره الطرَف الغليظ من القضيب الحديد، وضربه ضربةً ألصقت صدره بظهره، فكانت القاضية.

علىٰ هذه الصورة مات جان كالاس.

وما هي إلا أيام قلائلُ حتىٰ عرف الناس أن الفتىٰ مات منتحرًا لا مقتولًا، فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفَذ سهم القضاء فيه، وما يعنيه بعد الموت أمات جانيًا أم بريئًا؟

أما الحادثة الأخرىٰ فهي عبرة الشباب كما كانت الأولىٰ موعظة الشيخوخة:

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الأولىٰ، وجدوا في إيفيل – في ليلة عاصفة – صليبًا عتيقًا أكل السوسُ أحشاءَه حتىٰ عاف البقاء فيه مطَّرَحًا فوق الجسر، بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون.

من ألقىٰ به من أعلىٰ السور؟! من أهانه؟! من ذا الذي دنَّس هذا الأثر المقدَّس؟ من ذا الذي أجرم هذا الجُرم العظيم؟!

ربما عصفت به ريح، أو عبث به عابر طريق، أو هوىٰ به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم... لا لا، كل ذلك لم يكن لأن الدين أبىٰ إلا أن يوجِدَ مجرمًا، هنالك أعلن مطران «إميان» براءةً من غفران الله ورحمته[١] لكل مؤمن علم، أو ظنَّ أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه.

إن الحرمان في الكثلكة جريمة فظيعة قاتلةٌ، متىٰ أوحي به التعصُّب الذميم إلىٰ الجهل العظيم، كان هذا الحرمانُ سببًا في أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما (لابار) والآخر (ديتالون) مرَّا علىٰ جسر إيفيل في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكرًا وينشدان نشيدًا عسكريًّا، مرَّا بالجسر وأنشدا النشيد فهما المجرمان. وكانت المحكمة مَقدَس إيفيل، ولم تكن بأقلَّ عدلًا وإنصافًا من مجلس الكابيتول في طولوز، فأمرت بالقبض علىٰ الرَّجلين فاختفىٰ ديتالون وقبض علىٰ لابار وأسلِمَ إلىٰ القضاء، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور علىٰ الجسر، فحكمت عليه محكمة إيفيل بالإعدام

---

(١) إن مغفرة الله عز وجل لعبده يعطيها بمنه وفضله للمؤمنين المتقين، وهي من الأمور الغيبية لا دخل لبشر فيها. وما قاله فكتور هوجو باطل وفاسد.

وأيَّد حكمها برلمان باريس، فدنت الساعة المخيفة الهائلة:

لقد تفننوا في تعذيب لابار وإرهاقِهِ ليكشفوا عن سرِّ فَعلته، وعن شركائه في جريمته؛ أيْ جريمةِ المرور علىٰ الجسر وإنشاد النشيد.

لقد عذبوه عذابًا أليمًا، حتىٰ إنَّ الكاهن الذي جيء به ليَسمع اعترافَه أغميَ عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه.

مضىٰ هذا اليوم وجاء اليوم الثاني وهو يوم ٥ يونية سنة ١٧٦٦، وجيء بالشاب المظلوم إلىٰ ساحة إيفيل الكبرىٰ حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطرامًا، فأسمعوه نصَّ الحكم ثم بتروا[١] يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقَوا به في النار.

علىٰ هذه الصورة مات الشيفاليه دي لابار كما مات من قبله جان كالاس.

أحزنك هذا المنظرُ يا فولتير وآلمَ نفسك وملك عليك شعوركَ ووِجدانك، فصحت صيحة الرعب والجزع، فكانت تلك الصيحة الحجرَ الأول في بناء مجدك العظيم الخالد.

---

(١) بتروا: قطعوا. «مختار الصحاح» مادة (بتر).

هنالك انبعثتْ نفسُك إلىٰ النزول في ميدان المجتمع الإنساني لِتكُفَّ عادية الظالمين، وتقلِّم أظفار الوحوش الضارية، وجلست في منصَّة القضاء لتحاكم الماضي علىٰ جرائمه، وتنتصفَ منه للمستقبل، فانتصفت وانتصرت وكنتَ من المحسنين.

فيأيها الرجل العظيم؛ طبت حيًّا وميتًا.

حدثتْ تلك الحوادث التي ذكرتُها علىٰ مشهد من المجتمَع المهذَّب الراقي، وفي حياة حافلة بالسعادة، مغتبطة بالهناء يغدو إليها الإنسان لاهيًا، ويروح ساهيًا، لا يرفع رأسه فيَعلمَ ما فوقه، ولا يخفِضها فيرىٰ ما تحته.

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد و«فرسايل» تتلألأ حسنًا وبهاءً، ورونقًا وماءً، وظرفاء الشعراء مثلُ «سان أولاير» و«بوفلير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل.

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثِّل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيعَ بذلك القضيب الحديد، وأن يستلَّ لسان الفتىٰ لأنه أنشد الأناشيد.

كان المجتمَع في ذلك التاريخ مؤلَّفًا من قوًىٰ عظيمة هائلة، قوةُ البلاط، وقوة الأشراف، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفِّع، وقوة الحكومة التي كانت أسدًا علىٰ الرعية ونَعامةً بين يدي الملك، تجثو أمامه

خاضعة صاغرة، إلا أن جُثِيَّها كان علىٰ جُثة الشعب، وقوةُ الإكليروس المؤلَّف من الرياء الكاذب والتعصُّب الأعمىٰ.

تقدَّم فولتير وحده وأثار حربًا عَوانًا[١] علىٰ هذا العالم المؤلَّف من تلك القوىٰ المختلفة المخيفة، ولم يَره أكبر من أن ينخذل، ولم يرَ نفسه أصغر من أن ينتصر.

أتدري ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غيرُ تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها، وتَسبق الصاعقة في انقضاضها، ما كان له سلاحٌ غير القلم، فالقلم حارب وبالقلم انتصر.

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رَحىٰ تلك الحروب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوىٰ، والصلاح والفساد، فتمَّ علىٰ يديه الغَلَبُ للخير علىٰ الشر، وفاز فوزًا مبينًا.

كان فولتير قلبًا وعقلًا، كان له رقَّة الفتاة في غِلالتها[٢] وشدة الأسد في لبْدته[٣].

(١) **حربٌ عوان**: قوتل فيها مرة بعد أخرىٰ. «المعجم الوسيط» مادة (عون).

(٢) **غلالتها**: لبسها تحت الثياب. «المعجم الوسيط» مادة (غلل).

(٣) **اللِّبدة**: الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. «المعجم الوسيط» مادة (لبد).

فولتير محا الخرافات الدينيةَ والعادات الفاسدةَ وأرغمَ أنف الكبرياء، وأذلَّ عزَّ الرؤساء، ورفع السُّوقيَّ إلىٰ حيث لا يصل إليه ظلم القاضي وتنطُّع الكاهن.

علَّم ومدَّن وهذَّب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يَكسر سورة النفس، فلم تَنكسر سورتُه، ولم تفتر عزيمته، بل كان يلقىٰ الاستبداد بالسخرية، والغضبَ بالاستخفاف، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة.

أقِفُ هنا قليلًا إجلالًا لابتسامة فولتير.

فولتير هو الابتسامة، والابتسامة هي فولتير.

أفضلُ مزايا الرجل الحكيم أن يَملك نفسَه عند الغضب، وكذلك كان فولتير.

كان عقله ميزان أعماله، فما غلبه حتىٰ الغضبُ للحق.

كنتَ تراه عابسًا مُقَطِّبًا، فما هي إلا كَرَّةُ الطرْف حتىٰ ترىٰ فولتيرَ الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطِّب.

يكاد يكون ابتسامه ضحكًا لولا حزن الحكيم، وهمُّ العاقل. كان ابتسامُه كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء، ويرتاح لها الأولياء.

كان يبتسم للقوي فيُخجله بتهكُّمه واستخفافه، وللضعيف فيسرُّه بتحنُّنه وانعطافه.

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت أشعتها كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الأنوار.

نعِمَ الابتسامُ ابتسامٌ أنار الطريقَ للعدل والحق والصلاح، وبدَّد ظلمات التقليد.

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية، وزيَّنتْها بالإخاء والمودة والحرية والمساواة، فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام، سواء أسكن القصر الكبير، أم الكوخ الحقير، ولبس المعلِّم تاج الملك فتصرَّف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرُّف الحاكم القدير، ونشر السلام أجنحته البيضاء علىٰ المجتمع الإنساني فقرَّت السيوف في الأغماد، وهدأت الدماء في العروق والأرواح في الأجسام. وكل ذلك بفضل ابتسامة فولتير، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يومُ الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامةً تتلألأ بين لألاء النجوم.

فلنمجد ابتسامة فولتير كلَّ التمجيد، ولنُكبرها كلَّ الإكبار. هل كان

فولتير يحلم دائمًا فلا يستخفُّ حملة الغضب؟ كلا بل كان يغضب أحيانًا في سبيل الحق.

إن التوسُّط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان؛ حتىٰ لا تَهبط به كِفة وتعلو به أخرىٰ، وحتىٰ لا يَهلك بين عاطفتي الحب والبغض، وإن الفلسفة هي الاعتدالُ وإظهارُ الحقائق واضحة من مؤتلفات الأعمال والأقوال، ولكن أرىٰ أن حبَّ الحق يَجب أن يكون في مرتبة الغلو حتىٰ تهبَّ عاطفتُه هبوب العاصفة فتذهب بالأقذاء والأقذار.

يعيشُ المرءُ بين سعادتين من حاضره ومستقبله، أما الأولىٰ فيكفلها العدل، وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل، لذلك يُحبُّ الناس القاضي العادل، والكاهن الصالح، لأن الأول صورة العدل، والثاني مثالُ الرجاء، فإذا انقلب العدل ظلمًا، والأمل يأسًا، عافهما الإنسان ولوىٰ وجهه عنهما، وقال للقاضي: «لا أحب قانونك». وللكاهن: «لا أعتقد بدعتك». وهناك يهبُّ الفيلسوف الغيور غاضبًا، فيُحاكم القضاء أمام العدل والكهنوتَ أمام الله، وكذلك فعل فولتير فكان من المحسنين.

إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلًا، وكلما كثر العظماءُ حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره، فهو كالشجرة تكون في نظر

الناظر أطول في الغابة الشَّجراء منها في التربة الجرداء، لأنها تكون في منبتها ومستقرها. وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة – روسو وديدرون وبوفون وبومارشه ومونتسكيو – أولئك القوم المفكرون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الأشياء والتفكُّر الموصل إلىٰ إتقان الأعمال، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل، فأجادوا وأفادوا.

مات أولئك القوم العظام وهوت من أفقها كواكبهم، ولقد كانوا في حياتهم جسدًا وروحًا، أما الجسد فقد طواه القبر، وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم.

أجل، إن الثورة روحهم والمظهرُ الساطعُ المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم.

هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة الماضي وفاتحة المستقبل.

إنَّك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقعها ووقائعها، إذا اخترقت أشعةُ العقل حجابَ المسببات، ونفذت إلىٰ الأسباب نرىٰ في نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفًا وراء دانتون، ورسُّو وراء روبسبير، وفولتير وراء ميرابو، ونجد أن أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة.

إنَّ الكلمة الأخيرة التي أنطِق بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري إلىٰ التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار.

قد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها وهي الإخاء الإنساني والتعارف النفسي، فمن العبث أن تشغل القوةُ بعد ذلك مكانًا من هذا المجتمع، فإن فعلت كان أليق الأسماء بِها الاستبداد.

إن المجتمع الإنساني أنكر علىٰ القوَّة حقَّها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها؛ فقاضاها بين يدي التمدين ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء، وأتىٰ بالتاريخ شاهدًا علىٰ دعواه فقضىٰ التمدين له عليها، وجاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا.

شفَّ ثوبُ الرياء عما تحته، وظهرت الحقيقة بيضاءَ ناصعة لا غُبارَ عليها، فأصبح الأبطال والمجرمون في نظر الإنسان سواء.

هدمَ التمدُّن تلك القاعدة الفاسدة؛ وهي أن الجُرْم العظيم أصغرُ من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبرُ إثمًا وأعظم جريرة من قتل الأفراد، واستكبرَ أن يَعتبر الحرب مجدًا وهو يعتبر السرقة عارًا. وبالجملة عَرف أن الجريمة جريمةٌ حيث حلَّت، وفي أيِّ مظهر ظهرت، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئًا أن يسمَّىٰ القيصرَ أو يُدعىٰ الإمبراطور، ولا يخفىٰ علىٰ الله من أمرِهِ شيءٌ سواءٌ ألْبِسَ تاجَ الملك أم قلنسوةَ الإعدام.

فلْنصرِّحْ بالحقيقة المقرَّرة الواضحة، ولنحقرِ الحرب أشدَّ الاحتقار.

إن الحرب المباركة لا أثرَ لها في الوجود.

إن منظر الدماء والأشلاء أفظعُ منظر.

لا يُعقل أن يكونَ الشرُّ طريق الخير، وأن يكون الموتُ وظيفةَ الحياة.

أيتها الأمهات الجالسات حولي، خفِّفْنَ من أحزانكنَّ، فقد أوشكت يد الحرب أن تكفَّ عن اختلاس أفلاذ أكبادكن.

مُحَالٌ أنْ يستمرَّ الحالُ علىٰ هذا المنوالِ. أن تشقىٰ المرأة فتلدَ، ويَغرسُ الزارع فيكسو الأرض بساطَها الأخضر، ويَجهدُ العامل فيملأ الخزائن ذهبًا وفضة، ويأتي الصانعُ بعجائب المصنوعات، وغرائب المدهشات، حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها، وفاخرت السماءَ بنجومها وكواكبها، وذهبنا لرؤية معرِضها العام وجدناه ساحة القتال؟!

لا، لا... إنا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا، ونُنكرَ أن الساعة التي نحن فيها تشتمل علىٰ بضع دقائق محزنةٍ تكدر صفوَها وتنتقص من سرورها.

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابةٌ سوداء.

إن الشَّعب لم يقض كلَّ أربه[1] من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية.

(١) أَرَبَهُ: حاجته وأمنيته. «المعجم الوسيط» مادة (أرب).

فلنذكر عند ذكر ملوكِ الحرب فولتير وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوك السلام، ولنوجِّهْ وجهتَنا إلىٰ تلك الروح العالية، إلىٰ تلك الحياة العظيمة، إلىٰ ذلك الدَّفين المقدَّس، إلىٰ فولتير، ولنركع أمام قبره عسىٰ أن يمدنا بروح منه ويَهديَنا إلىٰ حظيرة السلام[١]، فإنه بعد مرور قرنٍ علىٰ موته لم يزل في الأحياء الخالدين.

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسَّفَّاكين بصوت عال: «كفىٰ، كفىٰ، إنها همجية! إنها تشوه وجه المدنية الجميل».

إن أسلافَنا من الفلاسفة هم رسلُ الحق إلىٰ البشر، فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها، ويُنادوا أن الحياة ملك للإنسان، وعظيمٌ عليه أن تُسلبَ منه، وأن التمتع بالحرية حقٌّ من حقوق العقول والأفكار.

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور، فلنطلبه بين ظلمات القبور!

---

(١) النفع والضر بيد الله عز وجل، ولا يملك حيٌّ نفعًا ولا ضرًّا لنفسه فما بالنا أن يكون ميتًا.



العُلَماء والجُهَلاء

لا تحسبنَّ أنَّ الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا تُرام، أو أن بين من نسميهم العلماءَ ومن نسميهم الجهلاءَ، ذلك الفرقَ العظيم الذي يتصورُه الناس عندما يريدون التفريق بينهما، وإنزالَهما منازلهما، فالعلماء والجهلاء إن دققتَ النظر سواءٌ، لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يَعلَمون المعلوماتِ منظمةً، وأولئك يعلمونها مبعثرة، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يُبِينون.

ومن نظر إلىٰ البصائر نظرًا ثاقبًا نافذًا وجد أن المعانيَ الصحيحة والقضايا الكونيةَ المتعلقةَ بالخير والشر، والنفع والضرِّ، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياتَيه الماديةِ والمعنويةِ، يشترك في العلم بها الناس جميعًا عامتُهم وخاصتهم، كبارُهم وصغارُهم، من نشأ منهم تحت سقوف الجامعات، ومن عاش تحت سقوف السموات، لأن العلم يَنبوعٌ يفور من الداخل، لا سَيلٌ يتدفق من الخارج، ولأن المعلومات كامنة في النفوس كمونَ النار في الزَّند والقوةِ في المادة، وما وظيفةُ التعليم إلا استثارتُها من مكامنها، وبَعثُها من مراقدها.

وآيةُ(١) ذلك أنك لا تجد مثلًا من أمثال العلماء التي يَفْخرون بها ويَعدُّونها مَظهر حكمتهم، وآيةَ فلسفتهم، إلا وترىٰ في ألسنة العامة وشواردِ أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها. كما أنك لا تجد قاعدةً من قواعد الحكمة، ولا قضيةً من قضايا الآداب والأخلاق التي نعدُّها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق إلا وهي مُلقاة تحت أقدام العامة، ومذالة بين أيدي الجاهلين والأميين.

وعندي أنه لولا عجزُ العامة عن بيان ما يَجول في خواطرهم، ويَهجس في ضمائرهم من المعلومات علىٰ صورة مرتَّبة منظمة؛ لما خُيِّل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلامًا عجيبًا، أو معنًىٰ غريبًا.

وليست هذه الغِبطة التي نراها تَعلَقُ بنفوسهم عندما يتلقَّوْن أحاديث الخاصة، من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، أو أدركوا ما لا عهدَ لهم به من قبل، بل لأنهم عثروا علىٰ من يترجم عن أفكارهم، ويجمع لهم شمل المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم، ولأنهم وجدُوا في أنفسهم لذةَ الأنس بأفكار تشابه أفكارهم، وآراء تشاكل آراءَهم.

ولا أخشىٰ بأسًا إن قلتُ: إن عِلْم العامة أفضلُ من علم الخاصة، لأنه عِلمٌ خالص من شائبة التكلُّف والتعمُّل، حتىٰ إنك لتجدُ في بعض الأحايين

---

(١) آية: علامة. «القاموس المحيط» مادة (أيي).

بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثَّكلىٰ لغرابته وشذوذه، وما يترفع أضيقُ العامة ذهنًا وأضعفُهم فهمًا أن يجعل له شأنًا، أو يقيمَ له وزنًا، ولأنه يَعلقُ بالنفس ويتغلغل بين طياتها تغلغلًا تظهر آثاره علىٰ الجوارح. وكثيرًا ما تجد بين الجهلاء من تُعجبك استقامته، وبين العلماء من يدهشك اعوجاجُه، وإن كان صحيحًا ما يقولون من أن العلم ما ينتفعُ به صاحبه، فكثير من الجهلاء، أعلمُ من كثير من العلماء.

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك رهبة وهيبة، ولا تَغْلُ[١] في احتقار الجهلاء، وازدراء العامة والضعفاء، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرىٰ العناوين وعبيدَ الألقاب.

وإن في اختفاء الحقائق الكونية وتَنَكُّرها، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه وتفرقه مذاهبَ وشِيَعًا، وركوب كلِّ فريق رأسَه، وهُيامه علىٰ وجهه، ووقوف طُلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق، ورءُوس المسالك حيارَىٰ يَنشدون[٢] فلا يجدون، ويَجدُّون فلا يَصِلون، لدليلًا علىٰ أن الفلاسفةَ والحكماء والعلماء كلماتٌ غيرُ مفهومات، وأسماءٌ بلا مُسَمَّيات، وأنَّ حقائق الأشياء وأسرارَ الكائنات قد استأثر الله بعلمها،

---

(١) **لا تَغلُ**: لا تبالغ. «المعجم الوسيط» مادة (غلو).

(٢) **ينشدون**: يطلبون. «مختار الصحاح» مادة (نشد).

واحتجنها[١] من دون عباده، ولم يمنحهم منها إلا بِلَّة تزيدهم وجدًا كلما وَجَدوا بَردها، وتملأ قلوبهم شوقًا كلما تذوَّقوا طعمها:

ضــــريبُك في بنــــي الــــدنيا كثيـــرٌ
وعَــــزَّ الله ربُّـــك مـــن ضـــريب

ومـــا العلمـــاءُ والجهـــلاءُ إلا
قريـــبٌ حـــين تنظـــر مـــن قريـــب

---

(١) احْتَجَنَها: اختص نفسه بها. «المعجم الوسيط» مادة (حجن).



الرجل والمرأة

«**حضرة السيد المحترم:**

لا تَعجب إن رأيتَ إعجابي بك ظاهرًا في كل سطر من سطور كتابي هذا، فإنما أنا أنطق بلسان كثير من العقلاء الذين يحبونك حبًّا جمًّا، ويعتقدون أنك فريدٌ في أدبك، فريدٌ في قلمك، فريد في تسامحك وتساهلك، لذلك أردنا أن نوجه إليك السؤال الآتي راجين منك الإجابةَ عليه:

لماذا نرىٰ الهيئةَ الاجتماعية تحكم علىٰ المرأة الفاسقة حكمًا صارمًا فتنبذها وتحتقرها، ولا تحكم بمثل هذا الحكم علىٰ الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة؟!

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه، والسَّلام».

«سائل»

يعتقد كثيرٌ من الناس أن الرجل والمرأة سواءٌ في العقل والذكاء، وعندي أنهم أخطأوا في الأولىٰ وأصابوا في الأخرىٰ.

تَستطيع المرأة أن تجاريَ الرجلَ في سرعة الفهم وحضور البديهة،

ولا تستطيعُ أن تجاريه في الأناة[١] والرفق والاستمساكِ وامتلاك هوىٰ النفس والأخذِ بفضيلة الصبر علىٰ ما تكره وعن ما تحب.

تستطيع المرأة أن تُدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار، وأن تَستخرج كما يستخرجُ المجهولاتِ من المعلومات، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع، لأن بين جنبيها نفسًا غيرَ نفسه، وهوًىٰ غير هواه، ولأن لها قلبًا صغيرًا لا يقوىٰ علىٰ احتمال ما يحتمله عقلهُ الكبير.

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه، وتمشي المرأة وراءَ قلبها فيُضلُّها، فما وقفت معه في موقف إلا سقطت بين يديه عجزًا وضعفًا، لأنه يعرف السبيل إلىٰ قلبها، ولا تَعرفُ السبيل إلىٰ عقله.

لا تعجب إن قلتُ لك: إن الذكاء غيرُ العقل، فاللصوصُ والمحتالون والمزوِّرون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياءُ وليس بينهم عاقل واحد، لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك من حيثُ لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئًا. وكثيرًا ما يكون الذكاء الشديد داعيةَ الجنون، حتىٰ إنك لا تكاد تَرىٰ ذكيًّا من الأذكياءِ إلا وترىٰ له في شؤونه وأطواره أحوالًا شاذَّة لا تنطبق علىٰ قانون من قوانين العقل ولا قاعدةٍ من قواعد الطبيعة.

---

(١) **الأناة**: الحلم والوقار. «المعجم الوسيط» مادة (أني).

وعندي أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكياءَ من بؤس العيش وسوءِ الحال عائدٌ إلىٰ ضعف في عقولهم، ونقص في تصوراتهم.

وبعدُ... فالذكاءُ في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع، وكثيرًا ما يضرب الشجاع رأس نفسه بسيفه إذا كان طائشًا أهوجَ[١]، لا يملك نفسه في موقف من مواقف الحزن أو الغضب.

فماذا يغني المرأةَ ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرِّفها، ويُمسك بيدها أن تعثرَ[٢] في جريانها واشتدادها بعقبةٍ من عقبات هذه الحياة؟

سَيثقل هذا الحكمُ علىٰ نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهنَّ، ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهانٌ قاطع ليس في استطاعتهنَّ أن ينازعْنني فيه مع شدة ذكائهنَّ ولا في استطاعة أنصارهنَّ من الرجال أن ينقضوه ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرًا!

لولا أن الرجل أعقلُ من المرأة ما كان له عليها هذا السلطانُ وذلك الغلَبُ، ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقادُ الجنيب[٣]، ولا أن يملكَ

---

(١) **الهَوَج**: الحمق والطيش والتسرع. «القاموس المحيط» مادة (هوج).

(٢) **عثر**: سقط. «مختار الصحاح» مادة (عثر).

(٣) **الجنيب**: الطائع المُنقاد من الخيل وغيرها. «المعجم الوسيط» مادة (جنب).

عليها أمرَ فقرها وغناها وحبسِها وإطلاقها وحجابها وسفورها، ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا تَرىٰ في نفسها قوةً لدفعها والخروج عليها.

القويُّ يملك علىٰ الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتىٰ نفسَه وهواه، وكذلك كان شأنُ الإنسان مع الحيوان وشأنُ الرجل مع المرأة.

الإنسانُ نوع من أنواع الحيوان لم يكن في مبدإ خليقته خيرًا منها في شأن من شؤون الحياة، ولكنه كان أوفرَ منها عقلًا وأوسع حيلةً، فما زال يطلب لنفسه الغايةَ التي تناسب استعدادَه وفطرته حتىٰ أصبح سيدَ الحيوان، فمدَّن المدن ومصَّر الأمصار[١] وشاد وبنىٰ وتأنق وترفَّه، ثم طرد صاحبه إلىٰ تلال الرمال، ورءوس الجبال، يأكل بعضه بعضًا. والرجل أخو المرأة وقسيمُها في الرحم والمهد، والأبوة والأمومة، والقومة والقعدة، والنومة واليقظة، ولكنه وجد في نفسه فضلًا من قوة العقل والتدبير عليها، وكان ظالمًا خشِن النفس قاسيَ القلب، فأبىٰ إلا أن يأسِرها ويغلبها علىٰ أمرها ويملك عليها جسمَها ونفسها، فتم له ما أراد.

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنتْ، وملك عليها نفسها لأنه ألقىٰ في رُوعها أن ذنبها في الفسق المشترك بينه وبينها أكبر من ذنبه،

---

(١) **مصَّر الأمصار**: بناها. «المعجم الوسيط» مادة (مصر).

وأن جريمتها ضِعفُ جريمته فصدَّقت، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت، وأصبحت تنظر إلىٰ هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها بالنسبة إليها – كما ينظر إليها هو – بعين الإجلال والإعظام.

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيَسلبها إياه، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها وملأ قلبها هولًا ورعبًا، وأوسع نفسها تقريعًا وتأنيبًا من حيث لا تطير علىٰ الرجل شرارةٌ واحدة من هذه النار المتأججة[1]، لأنه هو الذي وضع هذا القانون وتلك الشريعة، وما كان له أن يقصر في مجاملة نفسه ومحاباتها؛ لأنه شرِهٌ طماع مُحبٌّ لذاته، ولا أن يعدل في القضاء في قضية غيره لأنه ظالم جبار.

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل لاستطاعتْ أن تحجبه في المنزل، وأن تتولىٰ شأنه، وأن تعبث بعقله، فتعظِّم جريمته وتصغِّر جريمتها في عينه، وأن تنفذ إلىٰ قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة، وأن تحدثه فيصدِّق، وتأمره فيأتمر، وأن تسنَّ له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود، كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد.

---

(١) **المتأججة**: الملتهبة. «القاموس المحيط» مادة (أجج).

لا أريد أن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحقَّ في ظلمها وغلبتها علىٰ حقها، بل أريد أن هذا الفرق هو سبب ذلك السلطان القاهر، والحكم الجائر.

وجملة القول: إن حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكمٌ ظالمٌ، ولو أنه أنصفهما لعرف فرْق ما بينهما في القوة العقلية، فجعل عقاب الرجل القويِّ المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة، ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظَلَمة جائرون، ولأن نساءه ساذجات ضعيفات، يصدقن الرجال في أقوالهم، وينظرن إلىٰ المستحسَنات والمستهجَنات بأنظارهم، فإن أردنا أن تنال المرأة حقَّها من الرجل وأنْ تنتصف منه، فليس سبيلُها إلىٰ ذلك المغالبةَ والمصارعةَ، فإنها أضعف منه جسمًا وعقلًا، بل السبيلُ إليه أن نعلمها العلم لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه، وكيف تحمله علىٰ إجلالها وإعظامها، وأن تعلمه كذلك ليستطيع أن يكون شخصًا كريمًا، وإنسانًا رحيمًا.

الدَّعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية، داعيًا إلىٰ ترك ضلالة من الضلالات، إلا وقد آذَنَ نفسه بحرب لا تخمدُ نارُها ولا يخبو[1] أوارُها، حتىٰ تهلكَ تلك الضلالة أو يهلِك دونها.

ليس موقفُ الجندي في معترك الحرب بأحرجَ من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحَها بأقربَ منالًا من سلب النفوس غرائزَها وميولها.

لا يضنُّ[2] الإنسان بشيءٍ مما تملك يمينه ضنَّه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات، وإنه ليبذل دمَه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانةً لدمه، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء[3] في مواقف الحروب البشرية، من عهد آدمَ إلىٰ اليوم، إلا حمايةً للمذاهب، وذوْدًا عن العقائد.

لذلك كان الدعاةُ في كل أمة أعداءَها وخصومها لأنهم يحاولون أن يرزءوها في ذخائر نفوسها، ويفجعوها في أعلاق قلوبها.

---

(١) **لا يخبو**: لا ينطفئ. «مختار الصحاح» مادة (خبو).

(٢) **لا يَضِنُّ**: لا يبخل. «مختار الصحاح» مادة (ضنن).

(٣) **الأشلاء**: الأعضاء. «مختار الصحاح» مادة (شلو).

الدعاةُ أحوج الناس إلىٰ عزائمَ ثابتة، وقلوبٍ صابرة علىٰ احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة حتىٰ يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها.

الدعاةُ الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونةً أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين أو ضالين أو كافرين، لأن ذلك ما لا بدَّ أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمدًا ﷺ عاش بين أعدائه ساحرًا كذَّابًا، فلما مات ماتَ سيدَ المرسلين، وأن الغزالي عاش متهَمًا بالكفر والإلحاد ومات حجَّةَ الإسلام، وأن ابن رشد عاش ذليلًا مهانًا حتىٰ كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوفَ الشرق، فهم يحبون أن يكونوا أمثالَ هؤلاءِ العظماءِ أحياءً وأمواتًا.

سيقول كثيرٌ من الناس: وما يُغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظنًّا، ولا تسمع له قولًا؟ إنه يضرُّ نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمقَ الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذي ألمَّ بنفوس كثير من العلماء فأسكت ألسنتهم عن قول الحق، وحبسَ نفوسَهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون،

فجمدت الأذهان وسكنت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يغشىٰ[١] العقل، والعلمُ نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدًا رويدًا، فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاءُ بينه وبينها، حتىٰ إذا أتت عليه انكشف له الغطاءُ فرأىٰ النار نورًا، والألَمَ لذةً وسرورًا.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان، لأن الحق وجودٌ والباطلَ عدم، وإنما يصرعه جهلُ العلماء بقوته، ويأسُهم من غلبته، وإغفالهم النداءَ به، والدعاء إليه.

محالٌ أن يهدم بناءَ الباطل فردٌ في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقضُ الثاني منه حجرًا والثالث آخر وهكذا حتىٰ لا يبقىٰ منه حجر علىٰ حجر. الجهلاء مرضىٰ والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يُحجم[٢] عن العمل الجراحي فرارًا من إزعاج المريض، أو خوفًا من صياحه وعويله، أو اتِّقاء لسبِّه وشتمه، فإنه سيكون غدًا أصدق أصدقائه وأحبَّ الناس إليه.

---

(١) **يغشىٰ**: يغطي. «مختار الصحاح» مادة (غشي).

(٢) **يحجم**: يكف وينصرف. «المعجم الوسيط» مادة (حجم).

وبعدُ... فقليلٌ أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلا إذا كان خائنًا في دعوته، سالكًا سبيلَ الرياء والدهان في دعوته، وقليلٌ أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه، وتشعر بحلاوة الشفاءِ، بعد مرارة ذلك الدواء.

الدُّعاةُ في هذه الأمةِ كثيرون، ملءُ الفضاء، وكِظَّة[١] الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد لأنه لا يوجد بينهم شجاع.

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباءُ المجامع وخطباءُ المنابر، كلهم يدعون إلىٰ الحق، وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضرًّا، أو يلاقي في طريقها شرًّا.

رأيت الدُّعاةَ في هذه الأمة أربعة: رجل يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شرٍّ. ورجل يعرف الحق وينطق به، ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجُم علىٰ النفوس بما يزعجها وينفِّرها، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواءَ المرَّ في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده[٢]. ورجل لا

(١) **الكِظة**: البِطنة والامتلاء. «القاموس المحيط» مادة (كظظ).

(٢) **ازدراده**: ابتلاعه. «المعجم الوسيط» مادة (زرد).

يعرف حقًّا ولا باطلًا، فهو يخبط[١] في دعوته خبط الناقة العشواءِ[٢] في مسيرها، فيدعو إلىٰ الخير والشر والحق والباطل والضار والنافع في موقف واحد، فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه:

«مِكـرٍّ مِفـرٍّ مقبـل مـدبر معًـا»

ورجل يعرف الحقَّ ويدعو الأمة إلىٰ الباطل دعوة المجدِّ المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة، لأنه صاحب هوىٰ يرىٰ أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوُّها في ثياب صديقها لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد. فليت شعري من أيِّ واحد من هؤلاءِ الأربعة تستفيد الأمة رشدَها وهداها؟!

ما أعظمَ شقاءَ هذه الأمة وأشدَّ بلاءَها! فقد أصبح دعاتها في حاجة إلىٰ دعاة ينيرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصَّبر والاحتمال في سبيلها، فليت شعري متىٰ يتعلمون؟ ثم متىٰ يرشدون؟!

---

(١) **يخبط**: يسير علىٰ غير هدًىٰ. «المعجم الوسيط» مادة (خبط).

(٢) **الناقة العشواء**: التي لا تبصر أمامها. «القاموس المحيط» مادة (عشواء).



الفهرس

فهرس الجزء الأول

المقدمة ٥
الغَدُ ٥٦
الكأس الأولىٰ ٦٠
الدَّفين الصغير ٦٧
مُناجاةُ القَمَر ٧٢
أيْنَ الفَضيلَةُ؟! ٧٥
الغَنِيُّ وَالفَقِيرُ ٨٢
مَدينَة السَّعادَةِ ٨٦
أيها المَحْزونُ ٩٦
إلىٰ الدَّير ٩٨
الرَّحْمَةُ ١٠٤
رسالة الغفران ١١١
عِبْرَةُ الدَّهْرِ ١٢٥
أفسَدكَ قومُكَ ١٣٥

الصدق والكذب ١٣٨
النَّظَّامون ١٤٩
الحُرِّيَّة ١٥٢
عِبرةُ الهِجْرة ١٥٧
الإِنصاف ١٦١
المدنية الغربية ١٦٣
يوم الحساب ١٧٠
الشَّعْرَةُ البيضاءُ ١٧٩
الصياد ١٨٥
الانتحار ١٩٣
الجمال ١٩٧
الكذب ٢٠٠
غرفة الأحْزان ٢٠٣
الشَّرَف ٢١١
الحبُّ والزَّواج ٢١٦
الإِسلام والمسيحية ٢٢٢
أهَناءٌ أم عَزاء؟ ٢٣٤
الزوجتان ٢٣٦

في سبيل الإحسان ٢٤٤
أدب المناظرة ٢٥٤
الإحسان في الزواج ٢٥٩
لا همجيَّةَ في الإسلام ٢٦٤
البخيل ٢٦٩
البعوض ٢٧٧
الجزع ٢٨٣
الاتِّحاد ٢٨٧
النُّبوغ ٢٩٣
البائسات ٣٠١
البيان ٣٠٦
السَّريرة ٣١٥
زيد وعمرو ٣١٩
أبو الشَّمقْمق ٣٢٣
دورة الفلك ٣٢٩
تأبين فولتير ٣٣٣
العُلَماء والجُهَلاء ٣٤٩
الرجل والمرأة ٣٥٣

الدَّعوة...٣٥٩
الفهرس ٣٦٥